
موسوعة
عظماء في تاريخ مصر
N
نوبليس

عظماء

في تاريخ مصر

(٣)

إلياس الأيوبي

موسوعة

عظماء في تاريخ مصر

المجلّد الثالث

تاريـــخ مصـــر

في عهد الخديوي إسماعيل باشا

١٨٦٣ ـ ١٨٧٩

الجزء الأول

ـ ١ ـ

دار نوبليس

اسم الموسوعة: عظماء في تاريخ مصر

اسم الكتـــاب: تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا
- المجلّد الأول - ١ -

المؤلــــــف: إلياس الأيوبي

قياس الكتـاب: ١٧ × ٢٤

عدد الصفحات: ٢٦٠

عدد صفحات الموسوعة: ٤٢٣٦

مكـان النشـر: بيروت

دار النشر والتوزيع: دار نوبِليس

تلفاكس: ٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١

هاتــف: ٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ ـ ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١

صندوق بريـد: ٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان

بريد إلكتروني: info@nobilis-int.com

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

EAN 9786144031346

ISBN 978-614-403-134-6

فهرست

المجلد الأوّل

(الأرقام الموضوع بجانبها علامة نجمة هكذا : * موجودة بأسفل الصفحات)

صفحة

تقدمة الكتاب ١٩*

رأى اللجنة العلمية فى الكتاب ٢٥*

نص الخطاب المرسل من المجمع العلمى المصرى الى المؤلف ٢٧*

مقدّمة الكتاب ٢٩*

شكر المؤلف من تفضلوا بمساعدته ٣٣*

بيان أهم مصادر الكتاب ٣٥*

تمهيــــد... ... ... ٤١*

الجزء الأوّل — السحر ١

الفصل الأوّل — وفاة محمد سعيد باشا ٢

مشتملات :

عود سعيد باشا ٢

يسى بك والمستخدم والبشرى ٤

اعلان موت محمد سعيد باشا وارتقاء اسماعيل العرش... ... ... ٦

الفصل الثانى — الأمير اسماعيل ٨

مشتملات :

نشأة اسماعيل وتربيته — ذهابه الى ڤيينا فالى باريس ٨

صفحة

عودته الى مصر — موت أبيه... ... ... ٩
موت جدّه محمد على — النزاع بين عباس وباقى الأمراء — اتهام
اسماعيل بقتل خادمه ١١
تسوية الخلاف — قتل عباس وعودة اسماعيل... ... ... ١٢
إيفاده الى أوروبا من لدن سعيد بمهمة سرية ١٣
كارثة كفر الزيات ١٤
قائمقامية اسماعيل الأولى ١٥
والثانية — سرداريته للجيش المصرى — اخماد فتنة القبائل الثائرة
على حدود السودان ١٦
الفصل الثالث — سمو الوالى اسماعيل باشا ١٧
مشتملات :
وصف اسماعيل لدى ارتقائه العرش ١٧
مراميه ١٩
فتنة الاسكندرية — اخمادها ٢٠
الجزء الثانى — بزوغ الشمس... ... ... ٢١
الفصل الأوّل — ايقاظ الآمال ٢٢
مشتملات :
السفر الى الأستانة لتقلد الإمارة ٢٢
خطبة الجلوس ٢٣
تهدئة المخاوف على مشروع القنال ٢٤

صفحة

الفصل الثانى — زيارة السلطان عبد العزيز للديار المصرية ٢٦

مشتملات :

سفر السلطان ٢٧

الوصول الى الاسكندرية ٢٨

مسامرة بين السلطان واسماعيل ٣٠

جولة فى الاسكندرية ٣١

وفود المهنئين بوصول السلطان سالمًا — زيارة للسراى نمرة ٣ —

السفر الى مصر ٣٣

حكاية نساء الريف وسعيد باشا ٣٤

حكاية الألفى محافظ القاهرة ومقتل عباس ٣٥

الوصول الى مصر ٣٧

نزول السلطان فى سراى القلعة ٣٨

صلاة الجمعة فى مسجد محمد على بالقلعة — استقبال وفود المهنئين بالقلعة ٤٠

مقابلة وفد العلماء للسلطان ٤١

لطيفة للشيخ العدوى ٤٢

حفلة المحمل ٤٣

حكاية المملوك الذى نجا من مجزرة أوّل مارس سنة ١٨١١ ... ... ٤٤

زيارة السلطان لشبرا ٤٦

زيارة للتحف المصرى يوم "شم النسيم" ٤٨

زيارة للأهرام ٤٩

العود الى الاسكندرية ٥١

القيام الى الأستانة ٥٢

صفحة
هواجس وعبر ٥٣
الجزء الثالث — رابعة النهار ٥٧
العمل على تحقيق الخطة المرسومة :
الباب الأول — (تحقيق الشطر الأول منها) . اجمال... ... ... ٥٨
الفصل الأول — اصلاح الادارة ٦٠
مشتملات :
تقسيمات مصر الادارية سابقا ٦٠
الاصلاحات التى أدخلها اسماعيل على الادارة ٦٤
انشاء وزارة زراعة — ادخال نظام هيئات نيابية على المديريات —
تعيين مديرين من أبناء البلاد ٦٦
حكاية جابر بك مدير بنى سويف وقواصه التركى ٦٧
انشاء مجلس نيابى ٦٨
الفصل الثانى — توسيع نطاق الزراعة والرى والمواصلات ٧٤
مشتملات :
صيرورة الأرض المصرية برمتها الى محمد على ٧٤
اصلاحات ابراهيم باشا الزراعية... ... ... ٧٥
الاعتناء بوسائل الرى فى عهد محمد على ٧٧
توسيع نطاق المواصلات فى عهد محمد على ٧٩
أول سكة حديدية بمصر ٨٢
اصلاحات سعيد الاجرائية ٨٣
اسقاط المتأخرات... ... ... ٨٤

صفحة

تطهير المحمودية ٨٥

انشاء الخط الحديدى ما بين القاهرة والسويس — انماء اسماعيل
مساحة الأطيان المنزرعة قطنا ٨٦

تمليكه الفلاحين الأطيان البائرة التى كانوا يزرعونها ٨٧

استقدام آلات رافعة — تطهير الترع — حفظ الجسور — انشاء
مجالس زراعية ٨٨

انشاء وزارة زراعة ٨٩

التوسع فى تعميم وسائل الرى — ترعة الابراهيمية ٩٠

ترعة الاسماعيلية ٩١

إنجاز القناطر الخيرية — إنشاء ترع عديدة ٩٣

ازدياد الآلات الرافعة ازديادا عظيما — انشاء الكبارى — زيادة
الأطيان الصالحة للزراعة — تحسين طرق المواصلات ٩٤

تعميم السكك الحديدية فى القطر ٩٥

اصلاح ادارة السكك الحديدية — حكاية ناظر محطة طنطا
والمسافرين الانجليز ٩٦

حكاية التاجر اليونانى الوقح... ... ... ٩٨

الإقدام على انشاء سكك حديدية فى السودان ٩٩

إقامة الأسلاك البرقية و إنشاء مكاتب لها ١٠٠

المواصلات البريدية ١٠٤

شراء مصلحة البريد — كليار باشا ١٠٥

صفحة
تعديل طريقتى ربط الضرائب وتوزيعها ١٠٧
سوء طريقة تحصيل الضرائب... ... ... ١٠٩
مساعدة الفلاحة المصرية بالمال ١١٠
تضحية اسماعيل بمصالحه فى سبيل انقاذ مصالح الفلاحين من الخراب ١١١
الفصل الثالث — فتح أبواب التجارة والصناعة والعمل ١١٣
مشتملات :
إطلاق التجارة من عقالاتها ١١٣
المرأة التاجرة الرثة الملابس — انشاء الشركة المجيدية للملاحة ١١٥
انشاء شركة الجز ١١٦
انشاء عدّة شركات مساهمة ١١٨
تصليح ميناءى السويس والاسكندرية وتوسيعهما ١١٩
انشاء المنارات البحرية ١٢٢
إحياء الصناعة والفنّ ١٢٤
عمل محمد على فى ذلك... ... ... ١٢٥
نظام الحرف ١٢٦
عمل اسماعيل... ... ... ١٢٧
معامل السكر — معامل النسيج ١٢٨
مصانع المعادن — مصانع الطوب — الدباغة ١٢٩
صناعة الفخار — معامل الزجاج — معامل الورق ١٣٠
تحسين المطبعة الأميرية — انشاء الحرف ١٣١
معامل التفريخ — معامل القطن ١٣٢

صفحة

العمل فى مناجم الزمرد ومناجم أخرى — استخراج النطرون ، والنترات ، والملح ١٣٣

رواج صيد الأسماك والملاحة ١٣٤

الاشغال الهندسية — العمار والعمارات ١٣٥

عمار الاسكندرية — عمل محمد على ١٣٦

عمل ابراهيم ١٣٧

عمل اسماعيل — توسيع الشوارع وتبليطها — توسيع الحارات — إنشاء حدائق وأحياء جديدة — إنشاء متنزهات ١٣٩

الانارة بالغاز — إنشاء البلدية — تجاوز العمار الأسوار والأبواب القديمة ١٤٠

زيادة عدد السكان — إقامة تمثال محمد على — عمار مصر ١٤١

عمل محمد على — تحويل الأزبكية الى متنزه عام ١٤٢

عمل ابراهيم ١٤٣

تقلبات الأزبكية ١٤٤

تعذر الاستقاء فى القاهرة بالرغم من قربها الى النيل — سعى محمد على لجلب مياه النيل الى القاهرة ١٤٦

عدم نجاحه — عمل عباس الأول فى السبيل عينه — عمل سعيد فى السبيل عينه ١٤٧

وصف شوارع القاهرة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ١٤٨

عمل اسماعيل فى تحسين القاهرة — ازالة أكوام الأقذار — تعميم الكنس والرش ١٤٩

صفحة

اختطاط شوارع جديدة — تحويل الأزبكية الى ما هى عليه الآن ... ١٥٠
انشاء أحياء جديدة ١٥١
اختطاط شوارع جديدة أخرى — انشاء سراى عابدين ١٥٢
انشاء كوبرى قصر النيل — انشاء كوبرى الانجليز — انشاء القصور العديدة، والمساجد — اقتداء الكبراء بالخديو — توزيع الماء على أحياء مصر القاهرة ١٥٣
تحسين النظافة والصيانة — إنارة أحياء مصر وشوارعها بالغاز ١٥٤
الواردات — الصادرات ١٥٥
الجمارك والضرائب على بعض المهن كانت تعطى التزاما — الغاء سعيد عموم الجمارك الداخلية والدخوليات — خلل مصلحة الجمارك ... ١٥٧
حكاية غريبة ١٥٨
اصلاح ادارة الجمارك فى عهد اسماعيل ١٥٩
الفصل الرابع — إحياء مالية القطر ١٦٠
مشتملات :
حالة المالية التعسة لدى وفاة سعيد ١٦٠
نكتتان لسعيد ١٦٢
الحوالات على المالية ١٦٣
اصلاح اسماعيل الحالة السيئة ١٦٤
زيادة رواتب الموظفين ١٦٥
مصادر الايرادات ١٦٦

صفحة
الفصل الخامس — انتعاش التعليم والحركة الفكرية ١٦٩
مشتملات :
حال التعليم قبل محمد على ١٦٩
المدرسة الأولى سنة ١٨١٦ ... ... ١٧٠
انشاء مدرسة الطب سنة ١٨٢٥ — أول بعثة الى فرنسا ١٧١
أوّل مجلس للمعارف ١٧٢
الأمل فى تشييد دولة عربية جديدة — التوسع فى تعليم أبناء القطر المصرى ١٧٣
المدارس الابتدائية ١٧٤
المدارس الثانوية والعالية والخصوصية ١٧٥
إقفال المدارس ١٧٦
التساعد بالأزهريين ١٧٧
الاضطرار الى التربية والتعليم على نفقة الحكومة ١٧٨
رغائب ابراهيم باشا — حديث للسيو جومار ١٧٩
تعديل طريقة ارسال البعثات العلمية — انشاء مدرسة مصرية بباريس ١٨٠
أخذ السلطان فؤاد الأول برأى جدّه ابراهيم ١٨١
انحراف عباس الأول عن رأى ابراهيم ١٨٢
قلة ميل سعيد الى تعليم أبناء البلاد ١٨٣
اهتمامه بالمدارس الأجنبية، وبالتعليم العسكرى ١٨٤
ميدان العمل أمام اسماعيل — تقسيم حركة التعليم فى أيامه ١٨٦
مدارس الحكومة... ... ... ١٨٧
لائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤ ... ... ١٩٠

صفحة
مضارّ مبدأ المجانية المطلقة... ... ... ١٩٥
مدارس الأوقاف — المدارس الفردية ٢٠٣
أوّل مدرسة مصرية للبنات ٢٠٤
مدارس الأقباط الأورثوذكس ٢١٠
مدارس الأقباط الكاثوليك — مدارس الروم الأورثوذكس... ... ٢١٣
مدارس الروم الكاثوليك — مدارس الأرمن ٢١٤
مدارس اليهود ٢١٥
المدارس الغربية ٢١٦
الارساليات المدرسية ٢٢٨
حكاية ما وقع لبعض العائدين من طلبة الارساليات العلمية الى أوروبا
مع عباس الأوّل ٢٣٠
نهضة فى المعارف والأفكار — مظاهر هذه النهضة... ... ... ٢٣٢
المظهر الرسمى — مدرسة الاچيتولوچيا ٢٣٣
المتحف المصرى... ... ... ٢٣٤
لطيفة لموميا فرعونية ٢٣٧
خنزير ماربيت ٢٣٨
ماربيت ولپيك ٢٣٩
المكتبة الخديوية... ... ... ٢٤١
دار الآثار العربية... ... ... ٢٤٢
تنشيط الصحافة والجمعيات العلمية والخيرية والأدب والعلم ٢٤٣

صفحة
مظهر النهضة الفردى ٢٤٦
مظهر النهضة الاجتماعية ٢٥٤
الفصل السادس — التغييرات التى أدخلت على الحياة الاجتماعية المصرية ٢٥٨
مشتملات :
جهود اسماعيل لتغيير القوى الفكرية ومجارى التقدير المتبادل بين
الغربيين والمصريين ٢٥٩
تغيير العقلية بواسطة الاصلاح اداريا وقضائيا ٢٦٩
استبداد الادارة فى الماضى — حكاية مدير الدقهلية وقريب أحد
محاسيب عباس الأول... ... ... ٢٧١
الدفتردار وناظر القسم والفلاح ٢٧٢
ضابط القاهرة والتركى زوج المرأة الحسناء ٢٧٣
تغيير العقلية منزليا... ... ... ٢٧٩
تغيير العقلية سياسيا ٢٨٤
تغيير العقلية اجتماعيا ٢٨٥
احترام اللحية قديما ٢٨٧
شيخ البلد والقروى ٢٨٨
مهزار محمد على ٢٨٩
الملاهى الحديثة — الكوميديا... ... ... ٢٩١
الأوپرا ٢٩٢
حكاية فيلبي النقاد المسرحى ٢٩٣
المراقص — الليالى الراقصة ٢٩٥

صفحة

السباقات ٢٩٦

تقدّم حلوان ٢٩٨

ابطال النخاسة والرق ٢٩٩

الرق فى الاسلام ٣٠٠

نشوء النخاسة — الرق فى المسيحية... ... ... ٣٠١

الرق فى البلاد المسيحية غيره فى الاسلام — نشوء الرغبة فى ابطال الرق ٣٠٢

ابطال النخاسة ٣٠٣

تحرير الأرقاء فى عموم الممتلكات البريطانية — اقتداء الدول الغربية
بتريطانيا العظمى ٣٠٤

تحوّل الجهود لإبطال الرق فى العالم الاسلامى... ... ... ٣٠٥

انضمام اسماعيل الى الحركة التحريرية ٣١٠

مهمة بيكر باشا ٣١٩

مهمة الكولونيل جوردون ٣٢٠

معاهدة ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ القاضية بابطال الرق ٣٢١

الظواهر خلاف الحقيقة ٣٢٣

الباب الثانى — تحقيق الشطر الثانى (أى السعى الى الفوز بالاستقلال التام
للبلاد) • اجمال ٣٢٤

الفصل الأوّل — ازالة القيد الأوّل (قيد ما كان جائرا على حقوق العرش
المصري فى الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس العالمية من محمد سعيد باشا) ٣٢٥
مشتملات :
نبذة فى تاريخ ترعة السويس قديما ٣٢٥

صفحة

نبذة فى تاريخ ترعة السويس حديثا ٣٢٧

ماتييه دى لسبس ومحمد على — فرديناند دى لسبس ومحمد سعيد ... ٣٢٩

لجنة سنة ١٨٤٦ ... ... ٣٣٢

مفاتحة دى لسبس الأمير سعيد فى شأن فتح ترعة السويس ٣٣٣

الامتياز — أول اكتتاب ٣٣٥

السعى الى نيل تصديق السلطان العثمانى على الامتياز — مقاومة انجلترا للشروع ٣٣٩

تعضيد محمد سعيد لدى لسبس ٣٤١

الاكتتاب العام ٣٤٧

البدء فى العمل ٣٤٨

اطلاع اسماعيل على حقيقة تعهدات سلفه وامتعاضه ٣٥٢

بدء النزاع بين اسماعيل ودى لسبس ٣٥٤

النضال بين دى لسبس ونوبار ٣٦٠

سوق نوبار الى محكمة جنح السين ٣٦١

وليمة ١١ فبراير سنة ١٨٦٤ ... ... ٣٦٢

تحكيم نابليون الثالث — حكم نابليون الثالث ٣٦٤

التسوية النهائية ٣٦٧

الفصل الثانى — إزالة القيد الثانى (قيد النسيادة العثمانية ، بما يتبعها من تضييقات مذلة ، وإلزامات مصغرة، وتوريث بالأرشدية الخ) ٣٦٩

مشتملات :

فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ... ... ٣٦٩

صفحة
القيود الاثنا عشر... ... ... ٣٧٠
فرمانا أوّل يونيه و ٢٠ يوليه سنة ١٨٤١ — تصديق الدول عليهما ٣٧٤
عمل اسماعيل على ازالة تلك القيود — تحويل مجارى الوراثة ٣٧٥
العمل على تغيير لقب "والى" بلقب يشعر بجلال مركز صاحب مصر ٣٨٤
الاتفاق على لقب "خديو" ٣٨٦
الامتيازات التى أوجبها هذا اللقب ٣٨٧
السعى الى الاستقلال والوسائل التى اتخذت لذلك ٣٩١
اشتراك مصر فى معرض باريس العام سنة ١٨٦٧ ... ... ٣٩٣
قسم المعرض المصرى ٣٩٤
لطيفة لاسماعيل أثناء زيارته لباريس ٣٩٨
مقارنة بين اسماعيل وغليوم الثانى امبراطور ألمانيا ٣٩٩
الاستقلال دون السلطان العثمانى بالقيام بحفلات ترعة السويس ... ٤٠٣
مكيدة ٤٠٤
إخماد روح تمرّد فى الجند المصرى ٤٠٦
مولد الملك (فؤاد)... ... ... ٤٠٧
سفر الخديو الى أوروبا لاستدعاء عواهلها الى حفلات ترعة السويس ٤٠٨
النزاع مع تركيا ٤١٠
مجىء الامبراطورة أوچينى الى القطر المصرى — تمهيد الطريق الى الأهرام ٤١٨
رحلة الامبراطورة الى الصعيد ٤١٩
بدء الحفلات بافتتاح ترعة السويس ٤٢٠
حادثة لطوسن باشا وهو طفل ٤٢٦

صفحة

إشاعات سوء ٤٣٠

مرقص الاسماعيلية ٤٣٧

نيابة سفير بريطانيا العظمى عن سلطان تركيا ٤٤٤

عود الى النزاع بين مصر وتركيا ٤٤٥

سفر اسماعيل الى الأستانة ٤٥٠

فرمانا سنة ١٨٧٢ ... ... ٤٥٥

فرمان سنة ١٨٧٣ ... ... ٤٥٧

الفصل الثالث — إزالة القيد الثالث (قيد الامتيازات الأجنبية القضائية) ٤٦١

مشتملات :

نبذة فى تاريخ الامتيازات الأجنبية ٤٦١

التجاوزات ٤٦٣

لطيفة للسيو تريكو ٤٦٧

مذكرة نوبار فى سنة ١٨٦٧ ... ... ٤٧٠

المشروع لا ينال حظوة لدى الحكومة الفرنساوية ٤٧٢

» » » » » العثمانية ٤٧٣

مساعى نوبار ٤٧٥

اجتماع للجنة الدولية بمصر ٤٧٦

تقريرها الموافق ٤٨٩

لجنة بباريس لفحص المشروع — موافقة انجلترا — تشكيل لجنة
ايطالية بفلورانسا ٤٩١

صفحة

رفض تركيا — موافقة روسيا و بروسيا والولايات المتحدة على الاصلاح القضائى ٤٩٢
عدول الباب العالى عن الرفض ٤٩٣
نتيجة أبحاث اللجنة الفرنساوية ٤٩٤
طبع القوانين المختلطة وتوزيعها ٤٩٦
الحرب السبعينية — توقف المخابرات — عود الى المخابرات ٤٩٧
مراوغة الباب العالى ٤٩٩
سفر اسماعيل الى الأستانة — نزول تركيا عن إصرارها ٥٠٢
اجتماع سفراء الدول ٥٠٣
لجنة الأستانة ٥٠٥
تصديق بريطانيا العظمى وايطاليا على الاصلاح نهائيا ٥٠٩
تصديق الدولة العلية — استمرار فرنسا على المعارضة ٥١٠
تصديق النمسا والولايات المتحدة النهائى ٥١١
مقاومة فرنسا المقاومة الأخيرة ٥١٣
تقرير لجنة محكمة إكس ٥١٦
حفلة استقبال القضاة الأول ٥١٧
استمرار فرنسا على ممانعتها ٥١٨
تهديد الحكومة المصرية بالغاء محكمتى التجارة بمصر والاسكندرية ... ٥١٩
موافقة فرنسا بعد التى واللتيا — افتتاح المحاكم المختلطة ٥٢١
بلوغ الأوج ٥٢٢
تقرير العمل بالتاريخ الغريغورى ٥٢٣

تقدمة الكتاب

الى حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر

"نور ساطع ظهـــر حديثـا في سمـاء الشرق"

«إدون دى ليون»

مولاى، هذه جملة حقة وصف بها المؤرخ إدون دى ليون والدك الجليل وكان يعرفه عن كثب، إذ كان على عهده قنصلا جنرالا لجمهورية الولايات المتحدة بالقطر المصرى.

ولا يسع المرء، إذا أجال الطرف فيما كانت عليه مصر يوم ارتقى (اسماعيل) عرشها وما وصلت اليه من حضارة وتقدم يوم اعتزاله الأريكة الخديوية، إلا أن يعترف بأن إدون دى ليون السياسى المؤرخ لم يقل إلا الحقيقة الواقعة. فقد اعتلى (اسماعيل) أريكة مصر والبلاد لم تخلص بعــد من ظلمات القرون الوسطى التى حاول جدّكم الأكبر (محمد على) أن ينتشلها منها، فحال الأجل بينه وبين إتمـام عمله، فوقفت مشروعاته الجليلة، وتعطلت أنظمة العدل، وكادت تعفو آثار العلم، وتخبو جذوة التطور الذى بدت بشائره فى سبيل المدنيـة. أضف الى ذلك صعابا: منها ما نشأ عن امتياز قناة السويس الذى منحه (سعيد باشا) للشركة المعروفة، فقـد كان يلزم مصر بتعهدات من شأنها أن تمس سيادتها فى جزء كبير من أراضيها؛ ومنها ما اشتملت عليه الفرمانات الصادرة فى سنة ١٨٤١ من نصوص تجعل تبعية مصر للدولة العثمانية

فى حالة أقل ما توصف بها أنها غير مرضية ، وأنها تعرّض البلاد لطوارئ ليست فى الحسبان ؛ كما أن الامتيازات التى منحتها الدولة العثمانيــة لرعايا الدول الأجنبية فى مصر كانت حملا ثقيلا على عاتق المصريين ، اضطربت لهـا العدالة ، وتعدّدت بسببها السلطات المختلفة فى البلد الواحد ، حتى كانت النظم الداخلية مختلة معتلة .

أما فى الخارج فكانت مصر مفقودة المكانة لا يعرفها على حقيقتها إلا النفر القليل ، و يظن أكثر العالم المتمدين أنها لا تمتاز عن بقية بلاد أفريقيا التى لا تزال تعيش عيشة همجيـــة .

تلك كانت حال البلاد . ولكن بعد أن تولى (اسماعيل) العرش ست عشرة سنة ونصف السنة أصبحت لمصر حكومة منسقة تنسيق الأنظمة المتبعة فى أرقى البلدان الأوروبية ، من حيث نظامها النيابى والادارى والسياسى .

وزادت مساحة أرضها المزروعة نيفا وألف ألف فدان ؛ وتقدّم الرى فيها تقدّما عظيما : فشقت الترع التى لا يحصر عددها ولا تجحد فوائدها ، نذكر منها ترعتى الابراهيمية والاسماعيلية ؛ وشـيدت القناطر العديدة ؛ وأقيم من الكبارى نحو أربعمائة على النهر الأعظم وفروعه : منها كوبرى قصر النيل الفخيم ، وكوبرى الانجليز ؛ وأنشئت الطرق الزراعية المترامية الأطراف فى أنحاء البـلاد ؛ ومدّت السكك الحديدية ، والأسلاك البرقية على أبدع وضع حتى بلغت ديار السودان ؛ وأنشئت المواصلات البريدية ؛ وأصلح توزيع الضرائب على أرباب الأطيان . وأنشئت شركات الملاحة وغيرها من شركات المساهمة ؛ وأصبحت موانئ الاسكندرية و بورسعيد والسويس ،

وهى أهم ثغور القطر، تضارع أحسن موانئ السواحل الأوروبية والبحر الأبيض المتوسط عملا وحركة، كما نصبت المنارات الجميلة على طول الشاطئ المصرى حتى سواحل المحيط الهندى .

أما الفنون والمهن والحرف على تباينها ، والصناعات على اختلاف أنواعها ، فقد انتعشت انتعاشا عظيما ، ونشطت المشروعات العامة نشاطا جديدا، وظهرت مدن القطر بمظهر غير مظهرها الأول ، وعلى الأخص مدينتا الاسكندرية والقاهرة بعد أن رصفت طرقهما وأضيئت بمصابيح الغاز ووزعت بهما المياه بطريقة محكمة ، وأوجد فيها نظام خاص للكنس والرش ، وقد غرست فيها الحدائق الغناء، وأنشئت الميادين والمتنزهات الفسيحة الجميلة على طراز حدائق باريس ومتنزهاتها وساحات السباق ، وازداد بهاؤها بالمبانى الفخمة ، مثل بناء الأوبرا، ودور التمثيل الأخرى ، وما أحدث فيها من الأحياء الجديدة على النسق الأوروبى ، وما شيد من القصور والمساجد التى تضاهى أبدع ما أنتج فنّ البناء من عهد المماليك .

وقد زاد عمار البلاد فى هذه الفترة وبنيت عدّة مدن جديدة، أهمها الاسماعيلية وحلوان ، واتخذت فى هذا العهد جميع الوسائل اللازمة لحفظ الصحة العامة فى القطر : فأعيد تنظيم الادارة الخاصة بها ، وأصبحت البلاد ، على قدر المستطاع ، فى مأمن من غوائل الأوبئة والوافدات ، وقد نفخت فى التجارة روح جد زادت بها الواردات وضوعفت الصادرات حتى بلغت أربعة أضعاف ما كانت عليه من قبل ، وألغى الالتزام الخاص بالجمارك ، ونظمت إدارتها أحسن تنظيم .

أما التعليم فحدث عنه ولا حرج ، لأنه دفع الى الامام دفعة كان من شأنها أن أنشئت المدارس على اختلاف أنواعها فى جميع الانحاء : منها مدارس الفتيات ومدارس العميان ومدارس الخادمات التى انفردت مصر دون الشرق كله بايجادها ؛ وزودت المدارس الخاصة والأجنبية بالتشجيع ، ورتبت لها الاعانات ، ونفحت من الهبات الجميلة الشئ الكثير ، وظلت البعثات المدرسية للبلدان الخارجية تتوالى ويتسع نطاقها ، وصارت العربية لغة رسمية فى مصالح الحكومة والمدارس الأميرية بدل اللغة التركية .

كل هذا أدى الى اتساع دائرة العلوم والمعارف والآداب الاجتماعية : فنبغ فى مصر فطاحل الكتاب ، ونطس الأطباء ، ورجال الصحافة الأكفاء ، والمفكرون الحكماء وو الرأى الصائب والفكر السديد ؛ وأنشئت مدرسة العلوم المصرية القديمة ، ودار الآثار العربية ، ودار الكتب الخديوية الفخمة ، فأصبحت كأنها حلقة وصلت مصر الفراعنة بمصر القرون الوسطى ومصر الحديثة .

كما أنه امتاز عهد والدكم الجليل بالتطور الاجتماعى السريع الذى نهض بعقلية القطر المصرى وكاد يرفعها الى مصاف بلاد الغرب . فارتقت العوائد وأنماط الحياة المنزلية والعمومية ، ونظمت ادارة الحفظ والامن على أسس جديدة ؛ وانفصلت السلطات بعضها عن بعض : فأصبحت السلطة التنفيذية مستقلة عن السلطة القضائية ، وحق (لاسماعيل) أن يفخر بما فعل قائلا : « انفصلت بلادى عن افريقيا لأننا أصبحنا جزءا من أوروبا » .

وفى ذلك العهد المجيد تخلصت مصر مما ترتب على امتياز قناة السويس من المساس بحقوق سيادتها ، وتعاقبت الفرمانات التى نالتها بما بذلته من نفائس ثروتها مؤذنة برفع القيود التى كانت مصر راضخة لها بحكم التبعية للدولة العثمانية ، فتفككت هذه القيود واحدا بعد واحد ولم يبق منها إلا أمر الخراج ، واتخذ العزيز لقب "الخديو" بدلا من لقب "والى" الذى كان يشاركه فيه حكام الولايات العثمانية ، ثم قرر التوارث فى العرش على مبدأ الابن البكر من "أولاد صاحب العرش" ، وأصبح استقلال مصر استقلالا حقيقيا — بالرغم من صلة التبعية الاسمية — بدليل اشتراكها كدولة مستقلة فى المعرض العام الذى أقيم سنة ١٨٦٧ فى باريس ، وترؤس مليكها حفلات افتتاح قناة السويس التى تعدّ من أبدع وأبهى صفحات عهده ، وذلك بالرغم مما أبدته تركيا من الاحتجاجات على ترؤسه لها .

ولما كانت الامتيازات الأجنبية قد أدى الافراط فى تطبيقها الى مساوئ عدّة ، فقد درئ ضررها على قدر الطاقة بانشاء المحاكم المختلطة التى تعد صفحة أخرى مجيدة فى تاريخ حكم (اسماعيل) وكان من شأنها أن تعيد الى مصر كرامتها وحقوقها فى السيادة الداخلية .

و بينما كان العمل سائرا بجدّ ونشاط فى انجاز هذه العجائب المدهشات ، كان الفتح سائرًا من جهة أخرى للقضاء على الرق والنخاسة ، فنجم عن ذلك أن قضى على الرق والنخاسة قضاء لا رجوع فيه ، وخضع السودان بأكمله لسيطرة مصر التى امتدّت الى الشاطئ الغربى للبحر الأحمر والمحيط الهندى حتى بلغت رأس غاردافوى ، فأصبحت مصر امبراطورية عظيمة . ولما دخلت فى عداد الأمم المتمدينة حازت بينها المكان اللائق بمجدها الاثيل وأعمالها الجليلة .

ولم يقف الأمر عند هـذا الحد، بل شكلت البعثات العلمية التى تجاوز عددها الثلاثين بعثة لاستقصاء الجهات المجهولة فى أواسط أفريقيا وشرقها، سعيا وراء خدمة العلم والمعارف، ورفع شأن القطر المصرى . فأنشئت الجمعية الجغرافية الخديوية، وسارع أقطاب العلماء الى الانخراط فى سلكها لنوال شرف الانتساب لها .

فلم يك والدك الجليل نورا ساطعا فحسب، بل كان شمسا متألقة فى سماء مصر .

ولا غرو اذا اتجهت رغبتك يامولاى — وأنت أبرّ أبناء هذا المصلح العظيم، الذى تمت على يديه جميع هذه المدهشات — الى أن يفصل التاريخ وقائعها . لذلك تكرمت ووضعت تحت إشراف المجمع العلمى المصرى المباراة التى أدّت الى ظهور هـذا الكتاب، وتفضلت — مذ قررت اللجنة العلمية التى انتدبت لفحص مختلف مؤلفات المتبارين أفضليته على سواه — فشملته وشملت مؤلفه بتعطفاتك الملكية العالية .

فلتتفضل جلالتكم وتأذنى برفعه إلى سدّتكم الملكية مقدّما بين يدىّ من صادق إخلاصى وعظيم طاعتى وعبوديتى لكم خير شفيع له

العبد الخاضع

الياس الأيوبى

رأى اللجنة العلمية

المشكلة لفحص مؤلفات المتبارين فى هذا الكتاب

كتاب الياس الأيوبى ، يتألف من مجلدين مجموع صفحاتهما ١٠٨٤ صفحة ، فى كل صفحة عشرون سطرا كتابة .

وينقسم الى سبعة أجزاء تشتمل على اثنين وثلاثين فصلا .

أقسام المؤلف معقولة وعملية . قص الحوادث مضبوط ولا تحيز فيه .

الانشاء عصرىّ وأنيق ، ليس فيه كلمات بطل استعمالها ، والكلمات المستحدثة قليلة فيه .

الكتاب

المرسل من المجمع العلمى المصرى الى المؤلف

مصر فى ٨ مايو سنة ١٩٢٢

حضرة المحترم

بأمر جلالة الملك يتشرف المجمع العلمى باعلانكم ، فيما يخصكم ، بنتيجة المباراة التى وضعها صاحب الجلالة تحت إشراف جمعيتنا لتأليف كتاب فى تاريخ مصر مدّة حكم سموّ الخديو اسماعيل :

إن جائزة الثلاثمائة جنيه قد منحت لكم، وقد صرّح لكم أن تلقبوا بلقب "الفائز فى المباراة"، وستدفع لكم نظارة خاصة جلالته المبلغ المذكور عند تقديمكم هذا الكتاب . هذا وأن صاحب الجلالة يضع تحت تصرفكم مبلغا آخر تكميليا اذا أردتم أن تترجموا مؤلفكم الى اللغة الفرنساوية .

وإنى بتبليغى هذه القرارات لكم أرجوكم أن تقبلوا منى خالص تهانئى وشعور احترامى الفائق ،،

عن رئيس المجمع العلمى المصرى
(الوكيل) : ا . پيوبك

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

بينما نحن مشتغلون فى كتابة الجزء السادس من تاريخ مفصل خصصنا نفسنا لوضعه فى شؤون مصر الاسلامية بين الفتح العربى والفتح العثمانى ، إذا بأحد الأدباء من أصدقائنا أشار علينا بالتنكب ، مؤقتا ، عن موضوعنا هذا الى الاشتغال بتحرير تاريخ مصر فى أيام حكم (اسماعيل) قائلا : « إن أحوال مصر الحاضرة ربما كانت الى إيقاف الناس على ما أدى الى تشبك المصالح المختلفة فى هذا البلد الأمين تشبكا غريبا ، أدعى منها الى إيقافهم على ما تم فى عصور خلت ، قد لا يهتم لها واحد فى الألف ، لا سيما وأن الأمير فؤاداً[1] قد أقام مباراة تحت إشراف المجمع العلمى المصرى ؛ ووضع جائزة لمن يحرر أحسن تاريخ لمصر فى عهد أبيه ! » .

فرأينا أن نعمل باشارة الصديق الأديب على ما فى العمل بها من حرج ومشقة . فاننا ، من جهة ، نكاد نكون معاصرين لعهد (اسماعيل) — والحقائق التاريخية انما يظهرها البعد ، فقط ، فى حلتها أو صبغتها الحقيقية — ومن جهة أخرى ، فانا ، على ما أوجدته فينا معرفتنا بتاريخ (اسماعيل) السطحية السابقة من ميل فطرى الى الرجل

(1) هذا الكلام صدر فى سنة ١٩١٧ .

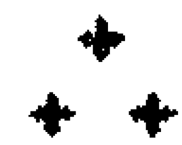
وإعجاب به، كما، لتأثرنا بالأحاديث والروايات المتناقلة عنه، نعتقد — ولو اعتقادا غير راسخ ومضبوغا بصبغة مجرد الأخذ برأى الغير أخذا لا يبرره تحكيم عقل — أنه ربما استفادت سمعة (اسماعيل) من عدم تعرض أحد لإزالة السدول عنها، ومن إبقائها ما بين النور والغسق، حيث أجمع على ذلك كتاب العربية، بدلا من إبرازها الى نور النهار الساطع.

ولكننا، فيما يختص بقرب معاصرتنا للأيام التي دعينا للتكلم عنها، قلنا في نفسنا: «إننا، اذا توخينا الحقيقة بإخلاص، وبحثنا عنها باعتناء، وقررناها بشجاعة وبدون هوى، قد لا نجد بأسا في إقدامنا على كتابة تاريخ (اسماعيل)، ولئن لم نستطع إيفاءه حقه — لأن المصادر التي سوف يستقي منها مؤرخو المستقبل غير موجودة الآن تحت تصرفنا — فان ما لا يدرك كله لا يترك كله؛ وربما قدمت كتابتنا بعض المادة المفيدة لمن سوف يتلونا في هذا المضمار!

وفيما يختص بما لدينا من فكرة غير مبتنية على تحكيم عقل في شخصية (اسماعيل)، فانا قلنا في نفسنا: «فوق أنه يعار علينا، بصفتنا من المفكرين، أن نقيم بناء اعتقادنا في الأشخاص التاريخيين على محض التعرف السطحي بهم، أو على مجرد آراء الغير فيهم، فان إقدامنا على كتابة تاريخ الرجل يلزمنا، حتما، درس شخصيته وأعماله درسا تاما، فيغمر، في معارفنا، فراغا شائنا؛ وقد يؤدى بنا الى تعديل فكرنا وفكر قرائنا الكرام في الخديو الأول تعديلا يوجبه تعرفنا بأخلاقه وخصاله تعرفا صحيحا، ووقوفنا على جميع أعماله وقوفا حقا!».

فأقدمنا ، إذا ، على العمل ؛ وأخذنا فى مطالعة كل ما كتب عن (اسماعيل) وعصره، بل معظم ما كتب عن أسرته فى العربية والفرنسية والانجليزية والايطالية وما ترجم الى هذه اللغات من اللغات الأجنبية الأخرى التى لا نعرفها، ودرس ذلك جميعه درسا تاما .

وإذا بنا كلما زدنا تعرفا بعمل (اسماعيل) المتنوع ، وإدراكا لنتائجه الاجتماعية فى القطر، زاد إعجابنا به وعلا قدره فى نفسنا . وما فرغنا من البحث والتنقيب ، والمطالعة والدرس، إلا وقد رسخ فينا الاعتقاد الثابت بأن (اسماعيل) كان رجلا عظيما ومصريا صميما ؛ وأنه عمل لمصلحة مصر ورقيها وتقدمها ما لم يعمله عاهل تولى عرشها منذ قرون ؛ وأنه — وإن لم يخل من نقائص : فكثر عليه، لذلك ، عدد الطاعنين — قد كان أميرا شرقيا، جديرا بأن يوضع فى مصاف عظماء الشرق ؛ وجديرا بأن يقرن اسمه، بعد مماته ، بصفات التمجيد والتبجيل التى كان يقرن بها وهو مستو على عرشه الساطع سنى .



فأقبلنا بارتياح، بل بابتهاج، على تدوين تاريخ مصر فى أيامه . ولم نعد نخشى إلا شيئا واحدا ،وهو: أن يحول عجزنا دون إيفائنا الموضوع حقه ، وأن لا تخرج مينرفا[1] من رأسنا إلا مجردة من سلاحها .

(١) "مينرفا" إلهة الحكمة عند قدماء اليونان والرومان خرجت مدججة بالسلاح من رأس زيفس أبيها — وهو إله الآلهة والبشر .

على أنه إذا كانت الأعمال انما توزن بالنيات ، فانا نقدّم عملنا هذا الى الجمهور ونحن واثقون من أنه سيغتفر لنا كثيرا ، لأن نيتنا فى الحقيقة صالحة ، ولم نبتغ سوى تقرير الأمور كما خيل الينا أنها هى هى فى الواقع . فان أخطأنا النظر اليها ، فلقصر طبيعى فى العين ، لا لأنا وضعنا عليها نظارة الغرض والتحيز .

الاسكندرية فى ٢٥ يناير سنة ١٩٢٣

الياس الأيوبى

شكر المؤلف من تفضلوا بمساعدته

قد تفضلت اللجنة العلمية فى دار الكتب المصرية التى يرأسها حضرة العالم الكبير والفيلسوف المفكر صاحب العزة أحمد لطفى السيد بك بقبول طبع هذا الكتاب فى مطبعة القسم الأدبى فى تلك الدار، وتحت إشرافها النافع . وهى لا تطبع فيها من الكتب إلا ما تحكم بأنه جدير بأن ينظم فى عقد المؤلفات الفاخرة التى تعمل، بنشرها، على إحياء آداب اللغة العربية . فقلدتنا بذلك منة لم تقلد بها أحدا من المعاصرين لنا قبلنا ؛ وجعلت لكتابنا قيمة ثمينة فوق القيمة التى أكسبه إياها حكم المجمع العلمى المصرى والمندوبية العلمية الخاصــة فيه بأنه أفضل المؤلفات المقدّمة الى تقديرها فى المباراة العلمية التى وضعها صاحب الجلالة مولانا الملك (فؤاد الأوّل) إذ كان — حفظه الله — لا يزال الأمير المعظم فؤادا .

ومهما شكرنا، فانا لن نوفى ما توجبه هذه المنة الفريدة من شكر علينا !

ومما زاد فى مقدارها لدينا هو أن حضرة العالم الفاضل والحسيب النسيب السيد محمد على الببلاوى ، نقيب أشراف الديار المصرية وأحد أعضاء تلك اللجنــة الجليلة ومراقب إحياء الآداب العربيــة ، قد وقف بشخصه الكريم على طبع كتابنا هذا، مهذبا، مجهدا نفسه فى جعله خلوا من كل شائبة .

ولا يسعنا ، هنا ، إلا شكر دار الكتب المصرية فى المحروسة والمكتبة البلدية بالاسكندرية على التسهيلات التى جادتا بها علينــا باعارتنا كل ما احتجنا اليــه من كتب ؛ وشكر أمنائهما ، حضرات الأفاضل : على فكرى افندى وخليفة قنديل افندى

وسيد عمر افندى، أمناء دار الكتب المصرية ؛ وحضرة الأستاذ العالم الشيخ أحمد أبي على، أمين المكتبة البلدية بالاسكندرية، على حفاوتهم بنا، ولطفهم الفائق نحونا، وآدابهم الجمة فى معاملتنا .

ونحن فى حاجة الى أن نشكر، على الأخص، صاحب العزة والمروءة وسليل بيت المجد والحسب سليمان يسرى بك، القاضى بمحكمة الاسكندرية الأهلية، الذى تفضل ووضع تحت تصرفنا مكتبته النفيسة، بلطف نفس، وكرم أخلاق، وسماحة شيم، زادت فى جمال معروفه .

وبما أنّا فى مقام شكر من نرى شكرهم واجبا، فانّا نقدّم هنا أجمل عبارات اعترافنا بالفضل والجدارة الى حضرة صديقنا الفاضل وزميلنا الكريم بولص غانم افندى ، المترجم بمحكمة مصر المختلطة، الذى أمدّنا بسعة اطلاعه على أصول البلاغة العربية، وقضى معنا ساعات طويلة فى مراجعة هذا المؤلف .

وكذلك نشكر حضرة محمد عصمت افندى رئيس القسم الأدبى بدار الكتب، وحضرات المصححين فيه فقد ساعدوا مساعدة ممدوحة. وأخص بجميل الشكر حضرة الشاب الفاضل الأديب عباس السيد افندى ملاحظ مطبعة دار الكتب المصرية، فانه لم يدع مجهودا إلا وبذله فى سبيل تصحيح الغلطات المطبعية، وإتقان العمل بسرعة وتيقظ تام، حتى تمكن من إبرازه فى حلة قشيبة قبل الميعاد المتفق عليه .

* * *

فإن ظهرت — مع ذلك — فى الكتاب شوائب، فانّ الكمال لله وحده !

أهم مصادر الكتاب

اسم الكتاب	اسم المؤلف
مصر القديمة والحديثة	أود سكالكى
سورية ومصر فى عهد سلاطين تركيا الخمسة الأخيرين	باركر
مصر اليوم من الخديو الأول الى الخديو الثالث ...	فريزر
مصر من سنة ١٧٩٨ الى ١٩٠٠	برهييه
التاريخ المصرى من القدم الى اليوم	ليدى أمهرست أوف هاكنى
مذكرات انجليزى عن مصر من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٨٧	البارون دكوزيل
تاريخ مصر تحت حكم محمد على من سنة ١٨٢٣ الى ١٨٣٨	مانجين
أحوال وعوائد المصريين الحديثين	لين
تقرير عن مصر وكنديا سنة ١٨٤٠	باورنج
موجز تاريخ مصر سنة ١٨٤٠	كلوت بك
مصر تحت حكم محمد على	هامون
مصر بعد صلح سنة ١٨٤١	هامون
فى بلد محمد على (ترجمة انجليزية)	باكارموسكاو
مصر فى سنة ١٨٤٥...	شلشر
مصر تحت حكم محمد على...	مارسيل
مصر تحت حكم عباس	بيل سانت چون
مصر الحديثة من محمد على الى سعيد باشا	مريو

أهم مصادر الكتاب

اسم الكتاب	اسم المؤلف
كشف الستار عن أسرار مصر	مدام أولمپ ادوار
مصر واسماعيل باشا	ساكريه وأوتريون
مصر القديمة والحديثة فى معرض باريس العام سنة ١٨٦٧	تييرس
رسائل فى مصر الحديثة	چليون دانجلار
مصر الخديو أو دار الرق القديمة فى عهد أرباب حديثين	إدون دى ليون
مصر كما هى الآن سنة ١٨٧٧	ماك كون
مصر وأوروبا بقلم قاض مختلط قديم	ڤان بمين
مصر فى عهد اسماعيل	ماك كون
اسماعيل باشا من سنة ١٨٣٠ الى ١٨٩٥	راڤس
مناظر متغيرة أو تذكارات عن أناس عديدين فى بلاد عديدة	سير ادورد مالِت
الفرنساويون والانجليز بمصر	بيوڤيس
مصر — الحكام الوطنيون والتدخل الأجنبى	فون مالورتى
وصف مصر — القاهرة وضواحيها	ڤوچانى
مصر الأخيرة	ليبيك
خديويون وباشاوات	مو برلى بل
حياة البلاط بمصر	بتلر
مصر	ساندى إى كاسترو
المسألة المصرية	فريسينيه
مصر الجديدة	جرڤين
مصر وتسليمها	فارمان

أهم مصادر الكتاب

اسم الكتاب	اسم المؤلف
رحلة الى سوريا ومصر فى سنة ١٧٨٣ و ١٧٨٤ و ١٧٨٥	ڤولنى
رسائل مكتوبة من مصر	برتلمى سانت إلير
سياحة المارشال دوق دى راجوزا فى سوريا وفلسطين ومصر	مارمون
ليالى مصر	ديدييه
خمسمائة ميل على النيل	ديدييه
رحلة السلطان عبد العزيز من استامبول الى القاهرة	جارديه
رسائل من مصر من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٦٥	ليدى دف جوردون
رسائل من مصر سنة ١٨٦٩	ليدى دف جوردون
الفلاح سنة ١٨٦٩	آبو
حياة البؤساء بمصر سنة ١٨٦٩	مارى واتلى
بين أكواخ مصر سنة ١٨٧١	مارى واتلى
الرسائل الأخيرة من مصر سنة ١٨٧٧	ليدى دف جوردون
مصر مجتازة مراحل مراحل	رونيه
الكولرا بمصر سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٥٥	كولتشى
الادارة الصحية العمومية بمصر من سنة ١٨٦٠ الى ١٨٦٥	كولتشى
حوادث من التاريخ المعاصر	لوكوڤيتش
الملك العقارى بمصر	يعقوب أرتين باشا
مذكرات عن أهم الأشغال العمومية المفيدة التى عملت بالقطر المصري من أقصى القدم حتى يومنا هذا ...	لينان ده بلفون
النقود المصرية	فؤاد سلطان بك

اسم المؤلف	اســـم الكتاب
أنونيم	حالة مصر المالية سنة ١٨٧٤ ... ...
فرديناں دى لسبس	فتح برزخ السويس : ايضاح ومستندات رسمية من سنة ١٨٥٥ الى ١٨٦٠ ... ...
فرديناں دى لسبس	رسائل ويومية ومستندات ليؤخذ منها تاريخ ترعة السويس من سنة ١٨٥٤ الى ١٨٧٠ ... ...
شارل رو	برزخ السويس وترعته ... ...
أنونيم	تاريخ مصر المالى من أيام سعيد باشا سنة ١٨٥٤ الى ١٨٧٦
سانتير دى يوف	صاحب السعادة شريف باشا . مصر سنة ١٨٨٧ ...
سانتى	مصر تحت حكم اسماعيل باشا . ميلانو سنة ١٨٨٠ ...
يعقوب أرتين باشا	بعض اعتبارات عن التعليم العام بمصر سنة ١٨٩٤ ...
يعقوب أرتين باشا	المعارف العمومية بمصر سنة ١٨٩٠ ... ...
لورد كرومر	مصر الحديثة ... ...
پ . ل . هـ . دى . س	تراجم مصرية : اسماعيل صدّيق باشا وموت المفتش مصر سنة ١٨٧٩ ... ...
نعوم شقير بك	تاريخ السودان ... ...
فيليب جلاد	الفرمانات السلطانية والأوراق الرسمية الخاصة بمصر من سنة ١٨٤٠ الى ١٨٧٩ ... ...
اوكوفيتش	كيف يوزع القضاء بمصر سنة ١٨٦٦ ... ...
—	الاصلاح القضائى بمصر . المداولات والاجتماعات التى سبقته وأدّت اليه (مكتبة الاستئناف المختلط) ...
هير پروس	محاكم مصر المختلطة ... ...

أهم مصادر الكتاب

اســم الكتاب	اسم المؤلف
اسماعيلية	بيكر باشا
الدارفور تحت ادارة جوردون باشا	مساداليا
تاريخ محمد على	كلوت بك
تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر	جوين
مصر عملا بمعاهدات سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤١... ...	بوردنيانو
حملة المصريين على الحبشة	سوتزارا
شراء أسهم ترعة السويس فى نوفمبر سـنة ١٨٧٥ ...	شارل . لساج
رسائل الدكتور برون محررة من مصر والاسكندرية الى المسيو مول بباريس من سنة ١٨٣٨ الى ١٨٥٤	أرتين باشا
مصر وضواحيها	لامب لاو
فى الطاعون الذى فتك بالقطر المصرى سنة ١٨٣٥ ...	جائتانى
ترعة السويس الخ	سرفنسنت هورد
مصر المسلمة والحبشة المسيحية	داى
خراب مصر...	روزستين
بيان عن حال التعليم الطبي الخ فى القطر المصرى سنة ١٨٤٩	كلوت بك
سبع سنوات فى السودان المصرى...	جيسى باشا
التعليم فى مصر	دور بك
ترجمة حياة على مبارك باشا	الدكتور درى بك
قناة السويس	محمد طلعت حرب بك
تاريخ محمد على	موربيه

تمهيـــد

كانت مصر حتى سنة ١٧٩٨ م تحت حكم الأمراء المماليك الفعلى وحكم الدولة العثمانية الاسمى . فأتت فى سنة ١٧٩٨ حملة فرنساوية تحت قيادة الجنرال بوناپرت فقضت على حكم المماليك، واحتلت القطر . فعز ذلك على انجلترا . فما زالت بالدولة العثمانية حتى حملتها على إشهار الحرب على فرنسا وارسال جيش زاخر الى مصر لإخراج الجيش الفرنساوى منها . ولكن الجنرال بوناپرت قضى على ذلك الجيش قضاء مبرما فى واقعة أبى قير فى ٢٥ يوليه سنة ١٧٩٩

غير أن أحوال فرنسا الداخلية والخارجيــة ما لبثت أن اضطرت الجنرال بوناپرت الى مغادرة القطر . فخابر خلفه الجنرال كليبر الانجليز والأتراك فى أمر انسحابه بجيشه من مصر والعود الى فرنسا على مراكب انجليزية . وأبرم معهم لهذا الغرض معاهدة العريش فى أوائل سنة ١٨٠٠ وسلم الصدر الأعظم يوسف باشا معظم البلاد .

ولكن الحكومة الانجليزية لاعتقادها الوهن التـام فى الجيش الفرنساوى المعقود لواءه لكليبر أبت التصديق على معاهدة العريش وأبت إلا أن يسلم الجيش الفرنساوى سلاحه فتنقله المراكب الانجليزية أسيرا الى انجلترا .

فهاج هذا الأمر ثورة الغضب والحمية فى صدر الجنرال كليبر . فأرسل الى الصدر الأعظم يوسف باشا يأمره باعادة البلاد الى الفرنساويين والارتداد الى سوريا — وكان يوسف باشا قد بلغ بجيشه العثمانى المطرية وعسكر فيها — فأبى يوسف باشا إلا استمرار الزحف الى القاهرة .

فخرج الجنرال كليبر اليـه بعشرة آلاف فرنســاوى وهزمه هزيمـة مخجلة فى عين شمس . وعاد واسترد القطر كله .

ولكن سليمان الحلبى ما لبث أن قتـله فى ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ ؛ فآلت القيادة الى الجنرال منيو — وكان قد اعتنق الاسلام وتسمى عبد الله . ولم يكن من الدراية بأمور الحرب على شئ .

فاغتنمتها انجلترا فرصة وأرسلت حملة انجليزية تحت قيادة الجنرال آبر كرمبى لإخراج الفرنساويين من مصر . فتحارب الجيشان الغريبان فى ضواحى الاسكندرية — ما بين سيدى جابر والمعمورة — وانجلت المعركة عن فوز الانجليز وقتل قائدهم . فارتد الفرنساويون الى الاسكندرية وتحصنوا فيهـا . وخلف الجنرال هتشنسن القائد المقتول . فغمر الأرض حول الاسكندرية بالمياه بكسره سد أبى قير، وزحف بمعظم جيشه الى العاصمة . وبعد مناوشات و وقائع صغيرة وحصارات لاداعى الى ذكرها فى هذه النبذة، انتهى الأمر بانجلاء الجيش الفرنساوى عن مصر على قاعدة معاهدة العريش .

فأراد الأمراء المماليك — على ما أوجدته فى طائفتهم من ضعف عظيم حروبهم مع الفرنساويين — العود الى الاستقلال بأحكام البلاد . وأرادت الدولة العثمانية استئصال شأفتهم ليستقيم لها عود الحكم فى مصر أسوة بباقى الممالك الشاهانية .

فقام إذًا نزاع عنيف وقتـال مخيف بين الولاة المعينين على مصر من لدن الدولة العثمانية والأمراء المماليك، ودارت الحرب بينهم سجالا .

وكان قد حضر الى مصر مع الجيش العثمانى المكلف بمهمة إخراج الفرنساويين منها رجل مكدونى من أهل قولة يقال له (محمد على)؛ فاغتنم فرصة ذلك النزاع وأخذ يتقدم على أكتاف الولاة تارة وطورا على أكتاف المماليك، حتى أصبح من كبار زعماء الجنود . فشرع حينذاك يعمل فى الخفاء على إسقاط الولاة ويقاتل المماليك جهارا حتى آل به الأمر الى تهشيم مراكز الفريقين وفل كلمتهم . فأجمع العلماء وشعب القاهرة على اختياره أميرا على مصر فى ١٤ مايو سنة ١٨٠٥ ؛ وعضدهم فى ذلك الجنرال سيبستيانى السفير الفرنساوى فى الأستانة عملا بتوصية القنصل الفرنساوى بمصر المدعو ماتييه دى لسبس، والد فردينان دى لسبس صاحب قناة السويس .

فأقرت الأستانة محمدا عليا واليا على القطر فى ٩ يوليه سنة ١٨٠٥، فما توانى لحظة فى تثبيت مركزه ضــد دسائس تركيا ، ومساعى الانجليز وعدائهم ، وتمردات الجنود وبأس المماليك، والاحتياج الى المــال حتى انتهى به الكفاح، بعد عناء شديد، الى الفوز التام . فوطد قدميه نهائيــا على السدة المصرية؛ وقهر الانجليز وأجلى عن البلاد حملة أرسلوها اليها فى سنة ١٨٠٧ ؛ وأفنى الجنود غير النظامية فى حروب أرسلها اليها فى البلاد العربية لمقاتلة الوهابيين ، وفى السودان للبحث عن مناجم ذهب وجلب السود ؛ وفرغ من أمر المــاليك بالمكيدة الهائلة التى دبرها لهم وجزرهم فيها بالقلعة يوم أول مارس سنة ١٨١١ ؛ وعالج مسألة المــال معالجة قطعية بأن استولى شيئا فشيئا على جميع موارد الرزق فى البلاد وعلى أطيان القطر برمتها .

حينذاك أقبل ينشئ من مصر دولة حديثة وأمة شابة جديدة . ولكنه أدرك بأن ذلك لن يتسنى له إلا اذا جمع على ولائه عواطف العالم الاسلامى ، وإلا اذا نقل

البلاد ـــ ولو بعنف ـــ من البيئة التى بنت القرون المنصرمة جدرانها حولها، الى بيئة جديدة تكون مصطبغة القاعدة والجدران بصبغة المدنية الغربية، اصطباغا متفقا مع روح الاسلام .

فلجمع عواطف الاســلام على ولائه هبّ يقضى على الوهابيين قضاء مبرما ـــ والعالم الاسلامى كان يعتبرهم خوارج ومنشقين ـــ وهبّ ينجد الدولة العثمانية المسلمة على اخماد ثورة اليونان المسيحيين . فأفلح فى الأمرين .

ولنقل مصر الى البيئة الجديدة المرغوب فيها عمل ما يأتى :

(أوّلا) نظم البلاد اداريا على النمط الغربى .

(ثانيــا) أنشأ من أبناء البلاد جيشا زاهرا وبحرية عامرة مدرّبين على الطريقة الغربية، بالرغم من صعاب كانت الواحدة منها كافية لفل الحديد ودك الجبل .

(ثالثــا) جدّد بجدة المعارف، بتغييره برنامج التعليم وطريقته وفتح ميدانا جديدا للعلم أدخل الأمة فيه قسرا . فأنشأ المدارس المختلفة تترى : ابتدائية وثانوية وعالية متنوعة، وأدخل فيها التلامذة والطلبة رغم أنوفهم وأنوف أهلهم، وعلمهم فيها العلوم الوضــعية الغربية على يد أساتذة أكفاء أتى بهم من بلاد الغرب . وأرسل البعثات تلو البعثات الى المعاهد العلمية فى أوروبا لا لكى تقتبس علوم الأمم الغربية وفنونها فحسب ، بل ليتخرج منهـا أساتذة يعلمون تلك العلوم لمواطنيهم بعــد عودتهم الى بلادهم .

ثم أضاف الى تجديد بجدة المعارف إقامة المعامل والمصانع فى طول البلاد وعرضها ليتمكن القطر من ترويج المصنوعات على الطراز الغربى فى داخليته ـــ لاعتقاد

(محمد على) أن تغيير معالم البيئة المـادّية يساعد كثيرا على تغيير معالمها المعنوية — ومن الاستغناء عن الواردات الأجنبية .

(رابعـا) غطى وجه القطر بالأشغال والأعمال المفيدة وسخر فيها الأيدى تسخيرا ؛ ولولا ذلك ما اشتغلت ولا تمت تلك الأعمال . فأقام السدود وقوّى الجسور و بنى ما رأى بناءه منهـا واجبا ؛ وعزز القناطر واحتفر الترع العديدة وأقام عليها القناطر الحاجزة المسهلة للرى ؛ وابتنى الترسانة والأحواض لتصليح السفن ؛ وشـيد القناطر الخيرية الكبرى — وهى معجزة أعماله — وأقام الحصون والقلاع ؛ وأنشأ القصور والسرايات ، واختط الشوارع ؛ وهلم جرّا ، من الأعمـال العظيمة التى غيرت وجه القطر تغييرا محسوسا .

(خامسا) هدم الحواجز التى كانت العصور السالفة قد أقامتها بين تعامل الغرب والشرق ؛ ومكن العالمين من الاختلاط معا ، لا بالاتجار الواسع فقط ، بل بالاحتكاك اليومى ، وفى العادات والأخلاق والعقلية ؛ ومنع كل تجاوز قد يجر ذلك الاحتكاك اليه .

(سادسا) سنّ قانونا للبلد كل موادّه متشربة بالرغبة فى فتح عصر جديد للأمة ، عصر تكون المساواة فيه بين الأفراد تامة ؛ و يكون الفرد فيه آمنا على حريته الشخصية من كل عبث ، ما دام لا يرتكب جرما ، ولا يأتى أمرا تؤاخذه عليه الشرائع .

(سابعا) فتح أذهان المصريين الى أمرين لم يكونوا ليفكروا فيهما البتة : (الأوّل) أن مصر والسودان قطران توأمان أبوهما النيل . فإمّا أن يدوما ملتصقين كما ولدا ، و إمّا أن يكونا متحالفين أبدا ، و إلا فللقوىّ منهما أن يجبر الثانى على إحدى هاتين الحلتين ، كما أجبرت ولايات الشمال الأمريكية ولايات الجنوب على البقاء متحدة

معها، بحرب الانفصال بين سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٦٥؛ و(الثانى) أن لمصر قومية شخصية منفصلة تمام الانفصال عن قوميات الشعوب الأخرى القاطنة فى الأقاليم التى كانت تتكوّن منها القومية العثمانية فى ذلك العصر. وانما فتح أذهان المصريين الى هذين الأمرين بالحربين اللتين قام بهما فى مجاهل السودان وفى سوريا والأناضول؛ وأفضتا الى استتباب السلطة المصرية على السودان نهائيا وعلى سوريا وإقليم اضاليا، بضع سنين.

ولكن انجلترا أبت أن تقوم على ضفاف النيل دولة مصرية قوية تجعل طريقها الى الهند غير آمنة. فألبت على (محمد على) روسيا وبروسيا والنمسا؛ وأرسلت ضدّ قواه فى سوريا حملة؛ وبذلت فى سبيل إثارة الأهلين عليه فى تلك البلاد نقودا جمة. فاضطرته الى الانسحاب من الأناضول والشام والاكتفاء بمصر. ثم استصدرت له من السلطان عبد المجيد، بالاتفاق مع الدول الأوروبية، فرمانى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ اللذين بقيا دستور الحكومة المصرية، حتى أبطلت مساعى (اسماعيل الأول) معظم نصوصهما، وأوصلت القطر الى استقلال تام لا يقيده سوى قيد الجزية السنوية.

فأقام (محمد على)، بعد هذه الحوادث، أكثر من سبع سنوات على دست الأحكام يعمل بثبات على تنفيذ مراميه؛ ويحوط الدولة الحديثة التى أنشأها بعنايته اليقظة، حتى داهمه الخرف وهو فى التاسعة والسبعين من عمره.

نخلفه ابنه الأكبر (ابراهيم باشا)، قائد الجيوش المصرية المنصورة فى الملاحم والمعامع، وقاهر الوهابيين واليونان والأتراك. ولكن ولايته لم تدم إلا ثلاثة أشهر: لأن المنون اخترمته وهو فى أجد سعيه الى إسعاد البلاد، بينما أبوه لا يزال حيا.

فأعقبه (عباس الأوّل) ابن أخيه طوسن المتوفى سنة ١٨١٦ — وكان أرشد ذكور الأسرة — فملك حتى سنة ١٨٥٤ ملكا حاول جهده ، فى السنين الست التى انتشر كابوسه فيها على الصدور ، أن يتنكب بمصر عن الجادة الحديثة التى أدخلها فيها جدّه العظيم (محمد على)، ليعود بها الى دياجير العصور الوسطى المدلهمة .

ولكنه قتل، وهو فى ريعان رجولته . وخلفه على العرش عمه (محمد سعيد باشا) ابن (محمد على) العظيم . فملك تسع سنوات كانت كلها خيرا على البلاد وسعادة . ولولا أنه أثقل كاهل الحكومة المصرية ببعض نصوص تجاوزية فى الامتياز الذى منحه لفرديناند دى لسبس لإنشاء قناة السويس ، وبالضائقة المالية التى جرها إسرافه على موظفيه ومستخدميه، بالدينين — السائر والمسجل — المركبين على عاتق البلاد والبالغين معا ما يقرب من أحد عشر مليونا ونصف مليون من الجنيهات ، واللذين لم يكن لهما مقابل من أعمال عمومية نافعة، لعدّت سنوات ملكه التسع العصر الذهبى فى تاريخ مصر الحديث .

وكانت بنيته القوية لما ارتقى سدّة الامارة تبشر بعمر طويل ؛ ولكن إسرافه فى اللذات قتله، هو أيضا، وهو فى الأربعين من سنه . فخلفه (اسماعيل الأوّل) ابن أخيه (ابراهيم) العظيم . وهو الذى يسرد كتابنا هذا تاريخ مصر فى عهده !

الجزء الأوّل

السَّـــــحَر

الفصـــــل الأوّل

وفاة محمد سعيد باشا(١)

توافق الناس والزمان * فحيث كان الزمان كانوا

عود سعيد باشا

عاد محمد سـعيد باشا ، والى مصر ، من أوروبا ، فى أواخر سـنة ١٨٦٢ الى الاسكندرية ، والمرض الذى ذهب الى بلاد الغرب ، ليتطبب منه ، على يد نطس أطبائها ، قد تمكن من حياته ، تمكنا ، سمم كل ينابيعها . فبات ميؤسا من نجاته : وأخذ الموت ينسج أكفانه . ويسدل حوله ظله .

وكما أن الناس ، حين تميل الشمس الى الغروب ، يأخذون فى الشخوص اليهـا ويرقبون مغيبها ، وتجيش العواطف فى صـدر كل منهم طبقا لميوله وآماله ، فهكذا كان المصريون ومستوطنو مصر ، والذين تربطهم بها مصالح ، ينظرون الى مغيب حياة محمد سعيد باشا ، وتواريها وراء أفق هذا العالم المنظور ، بأعين تختلج فيها عواطف القلوب المختلفة .

فالأفاقون الذين احتاطوا بالأمير المحتضر ، أيام كانت زهرة حياته وصولته يانعة ، فأثروا من إسرافه واعتزوا من هواه ، كانوا ينظرون الى دخوله فى حشرجة الموت ، وقلوبهـم شاعرة بأن آنقلاب ظهر المجن لهم بات قريبـا ، وأن الأوان آن ليقتلعوا خيامهم من الأرض المصرية ويقصدوا أقطارا غيرها .

(١) أهم مصادر هذا الفصل : ‹‹تاريخ مصر فى عهد اسماعيل›› للؤلف الايطالى ف . سابتى ، و‹‹مصر الخديوى›› لأدون دى ليون ، و‹‹إماطة اللثام عن أسرار مصر›› للكاتبة أولمب أدوار ، و‹‹الكافى›› لميخائيل بك شاروبيم .

والبطانة التي لم تحط به إلا لأنه الأمير والحاكم وولي النعم، مارأته يحتضر وتأكدت من أنه، لا محالة، ميّت إلا وولت وجهها شطر الشمس المنتظر شروقها لأنها شمس من سيصبح الأمير والحاكم وولي النعم .

والذين أحاطوا بمحمد سعيد باشا، ليرتكنوا عليه في أعمال نافعة أقدموا عليها، ومشروعات جليلة أخرجوا بعضها الى حيز الوجود، وتعلقت آمالهم في إخراج الباقي منها، الى الحيز عينه، بحياة الرجل المائت، إنما كانوا ينظرون الى زواله، وقلوبهم واجفة، وآمالهم مضطربة، لا يدرون ما المصير .

والشعب المصري، الذي رأى من الوالي المولّى حبا خاصا له، واعتناء كبيرا بمصالحه، ورغبة حقيقية في تحسين أحواله، وتخفيف أثقاله، ورأى منه إقبالا على إحياء اللغة العربية وإحلالها في دوائر الحكومة محلا رسميا، والجيش المصري الذي كان محط انتباهه ومعزته، ووجد نعيم الحياة تحت لباس جنديته، كانا ينظران من بعيد الى تصاعد أواخر أنفاس الأمير المحتضر، والقلب حزين مكتئب، والنفس ضارعة الى الله أن يحذو الخلف حذو السلف، وأن تكون الأيام التالية ظُهر الخير، اذا صح اعتبار الأيام المتصرمة بخره .

وأما الرجال المحافظون المتمسكون بالتقاليد العباسية، الراغبون عن كل عين تتفجر في مصر للمدنية الغربية، وعن كل طريق يمهد لها، الناقمون على محمد سعيد باشا تركه سياسة سلفه، للسير في خطوات (محمد علي) أبيه العظيم، فإنهم كانوا ينظرون إلى احتضار ذلك الأمير، نظرة القليل الصبر، ويرقبون عن كثب، ساعة لفظه نفسه الأخير، معللين الأنفس بعود العهد القديم إلى البزوغ من وراء سرير موته، لاعتقادهم أن مذهب الخلف مذهبهم، وأن (اسماعيل) يكره ما يكرهون ويحب ما يحبون .

وأما (اسماعيل) نفسه، فإنه مذ تأكد أنّ رقدة عمه لرقدة لا يعقبها قيام؛ وأن الموت بات محتما، بالرغم من أن شجرة العمر لم تثقلها السنون، ساورته الأنفعالات الطبيعية التي تساور كل إنسان في مركزه، وأخذ ينتظر وهو في القاهرة، أن ترد عليــه الأنباء المبشرة بارتقائه سدّة جده . الباشا العظيم !

وكانت قد جرت العادة أن ينعم بلقب (بك) على أول من يحمل إلى الوالي الجديد خبر صيرورة العرش المصري إليه؛ وأن ينعم عليه بالباشوية إذا كان بيكا .

بسي بك والمستخدم والبشرى

فلم يغادر (بسي بك) مدير المخابرات التلغرافية، عدته، ثمان وأربعين ساعة؛ لكي يكون أوّل المبشرين، فيصبح باشا؛ ولكن النعاس غلبه في نهاية الأمر؛ فاستدعى أحد صغار موظفي مصلحته؛ وأمره بالقيام بجانب العدة، ريثما يذهب، هو، إلى مخدعه وينام قليلا؛ وبالإسراع إلى إيقاظه حال ورود إشارة برقية من الاسكندرية تنبئ بانتقال محمد سعيد باشا إلى دار البقاء . ووعده بجائزة، قدرها خمسمائة فرنك مقابل ذلك . ثم ذهب الى مخدعه، ونام على سريره وهو بلباس العمل .

ولم يكن الموظف الصغير الذي أنابه عنه، يجهل عادة الإنعام التي ذكرناها — فلما انتصف الليل بين اليوم السابع عشر واليوم الثامن عشر من شهر يناير سنة ١٨٦٣ ، وردت من الاسكندرية الإشارة البرقية المنتظرة بفارغ الصبر . فتلقاها ذلك الموظف الصغير وأسرع بها الى سراى الأمير (اسماعيل) وطلب المثول بين يديه .

وكان (اسماعيل) لا يزال جالسا في قاعة آستقباله، سهران، يحيط به رجاله وتسامره هواجسه .

فلما رفع اليــه طلب ذلك الموظف، أمر بإدخاله حالا، فأدخل، وأحدقت به أنظار الجميع .

فجثا الرجل أمامه وسلمه الاشارة البرقية الواردة . فقرأها (اسماعيل)، وما أتى على ما دوّن فيها، إلا ونهض والفرح منتشر على محياه — فوقعت الاشارة من يده — وشكر الله بصوت عال على ما أنعم به عليه من رفعه الى سدّة مصر السنية . ثم ترحم على عمه ترحما طويلا .

فشاركه رجاله المحيطون به فى فرحه، وتصاعدت دعواتهم له بطول البقاء ودوام العز، وأخذوا يهنئونه ويهنئ بعضهم بعضا .

ثم نظر (اسماعيل) الى الموظف الجاثى أمامه، (والذى كان قد التقط الاشارة البرقية حالما وقعت من يد مولاه، ووضعها فى جيبه) . وتبسم وقال : "انهض يا بك"! وبعد أن حباه نفحة من المال أذن له بالانصراف .

فعاد الموظف مسرعا الى مصلحة التلغرافات، لرغبته فى الحصول على جائزة الخمسمائة فرنك التى وعد بها، زيادة على الذهب الذى أصابه؛ ودخل بتلك الاشارة على رئيسه، بسى بك، وأيقظه وسلمها اليه .

فتناولها بسى بك وقرأها . ثم فتح كيسه بسرعة وأعطى الرجل المبلغ الذى وعده به . ثم أسرع بالرسالة الى سراى الأمير (اسماعيل)، وهو يرى أنه قد أصبح باشا، وتتلذذ نفسه بذلك .

فلما دخل على الأمير، وعرض عليه الاشارة، قابله (اسماعيل) بفتور وقال : "لقد أصبح هذا لدينا خبرا قديما!" .

فأدرك الرجل أن موظفه خانه، وسبقه الى استجلاء أنوار الشمس المشرقة ونعمها، ثم ضحك عليه واستخلص منه خمسمائة فرنك . فاستشاط غضبا ونقمة، وعاد الى مصلحته، واستدعى ذلك المكير الماكر، وأنذلت عليه .

فأوقفه الموظف عند حدّه، قائلا : "صه! فإنى أصبحت بيكا مثلك!" .

هكذا أضاع بسى بك ثمرة سهره ثمانيا وأربعين ساعة، بعدم تجلده على الاستمرار ساهرا . بضع سويعات أخرى! (١)

إعلان موت محمد سعيد باشا وارتقاء اسماعيل العرش

وما نشرت المدافع، المطلقة من قلعة الجبـل، الخبر فى أنحاء العاصمة، وأعلمت سكانها بغروب شمس حياة محمد سعيد باشا، وشروق شمس حكم (اسماعيل باشا)، إلا وأسرع كبار القوم ووجوه البلد وقناصـل الدول بمصر الى سراى هـذا الأمير وهنؤوه . وتمنوا له ملكا طويلا سعيدا .

وما بزغ نهار الثامن عشر من شهر يناير، إلا وورد الى العاصمة آخر من كان قد بقى حول سرير الوالى المحتضر فى الاسكندرية، وفارقه حالما فارقتـه الروح، وأسرع هو أيضا الى سراى الوالى الجديد، ليقدّم له فروض عبوديته، ويتلمس من محظوظيته، نعمته .

ولم يبق بجانب جثة من كانت كلمتـه بالأمس حياة وموتا إلا فرنساوى يقال له المسيو براڤيه، كان صديق المتوفى الحميم . (٢)

وبينما تعـدّ فى مصر معدّات الاحتفال بارتقاء الوالى الجديد كرسى أبيه وجدّه، صدرت الأوامر الى أولى الشأن فى الاسكندرية، بالاسراع الى مواراة محمد سعيد باشا التراب، لكيلا ينشر الناسـور، الذى قتله، الفساد فى جثته بسرعة فتذهب الرائحة

(١) أنظر : "مصر الخديوى" لأدون دى ليون ص ١٥٩ و ١٦٠، و "إماطة اللثام عن أسرار مصر" لأولمب أدوار، ص ١٦٣ و ١٦٤؛ وانظر : "تاريخ مصر فى عهد اسماعيل" لماك كون، ص ١٩ فى الحاشية .

(٢) أنظر : "إماطة اللثام عن أسرار مصر" ص ١٦١

الكريهة التى قد تنبعث عنه، بالمهابة الواجبة لمقامه السامى . وقضت تلك الأوامر بأن يكون مدفن الوالى المتوفى بجانب مدفن إسكندر المقدونى العظيم ومدافن البطالسة الكرام، إجلالا له، ولكى يكتسب، من ذلك الجوار الساطع، حقا أمام أعين الأجيال المقبلة، فى أن تظلله سحابة الفخار المنتشرة حول قبور الصالحين من أولئك العواهل الأماجد[(١)] .

فامتثل ذوو الشأن بالاسكندرية تلك الأوامر، ووويت جثة محمد سعيد باشا فى مرقده الأبدى، فى الروضة المسوّرة الكائنة فى سفح قلعة الديماس بجوار المسجد المعروف بمسجد نبى الله دانيال — ونودى بالقلعة بمصر بولاية (اسماعيل) ابن أخيه .

فتزينت المدن والبنادر ثلاث ليال؛ وأقيمت الولائم والأفراح، وفرّقت سموّ الأميرة أم (اسماعيل) الهدايا النفيسة على أرباب الدولة والعلماء والمشايخ، وأقامت الأدعية فى المساجد أياما : ورممت بترميم بعض أضرحة الأولياء والصالحين من مالها الخاص[(٢)] .

---

(١) ''إماطة اللثام عن أسرار مصر'' ص ١٦١، وكان (سعيدباشا) فى أشهر حياته الأخيرة، حينما أحس بدنو أجله قد أنشأ لنفسه ضريحا لحفها بالقرب من القناطر الخيرية . ولكن (اسماعيل) للأسباب المذكورة فى المتن لا للأسباب التى تذكرها مدام أدوار أمر بدفنه بالاسكندرية . أنظر : ماك كون ص ١٦ من ''مصر فى عهد اسماعيل'' .

(٢) أنظر : ''الكافى'' المجلد الأخير، ص ١٣٨ طبعة بولاق سنة ١٩٠٠

الفصـــل الثانى[1]

الأمير (اسماعيل)

واذا رأيتَ من الهلال نُمُوَّهُ * أيقنتَ أن سيكون بَدْرا كاملا

نشأة اسماعيل وتربيته

هو ثانى ثلاثة أنجال البطل المغوار، والقائد المقدام، ابراهيم باشا، ابن محيي الديار المصرية، الباشا العظيم والغازى المهيب، الأمير (محمد على) المكدونى مولدا، والمصرى قلبا ومطامع وجهادا .

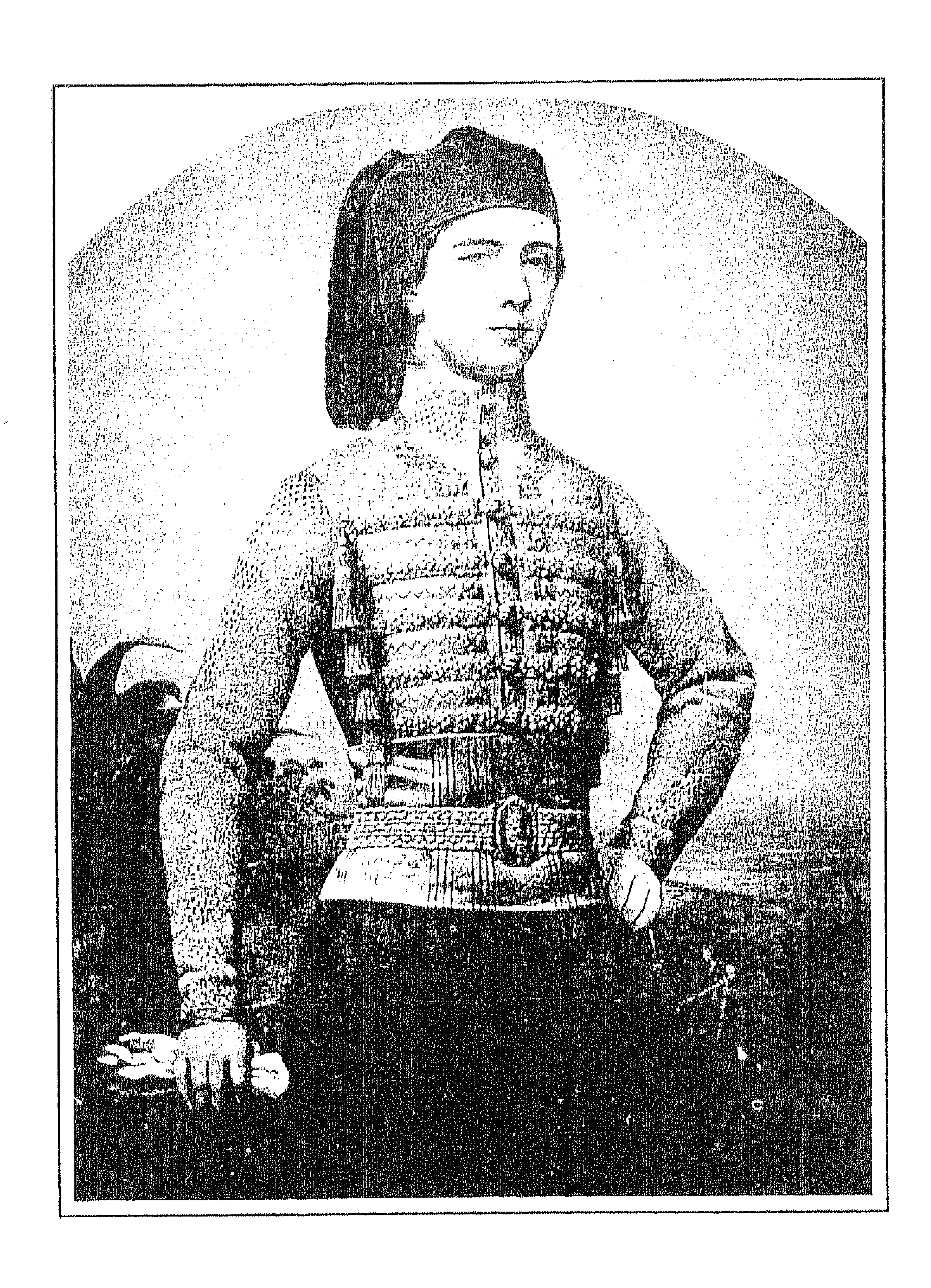
ولد فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ ، على أصح تقدير، فى قصر المسافرخانه، بمصر ، ومن المؤرّخين من يجعل مولده فى ١٥ أو ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٢٧ — من والدة غير والدتى أخويه الاثنين : البرنس أحمد رأفت والبرنس مصطفى فاضل : وتربى فى حجر والده وبحياطة جدّه، فى المدرسة الخصوصية التى أنشأها فى القصر العينى (محمد على باشا) لتربية الأمراء أولاده الصغار وأولاد أولاده .

فتعلم (اسماعيل) فيها، على يد نخبة من مهرة الأساتذة، مبادئ العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية، ونزرا يسيرا من الرياضيات والطبيعيات .

ذهابه الى فيينا فالى باريس

ولكنه أصيب برمد صديدى، لم تفتأ آثاره ، بعد زواله ، تؤلم جفونه . وعجز الأطباء بمصر عن مداواته . فأرسل الى ڤيينّا، وهو فى الرابعة عشرة من عمره، ليعالج فيها . ويربى، فى الوقت عينه، تربية أوروبية .

(١) أهم مصادر هذا الفصل : ''تاريخ مصر القديم والحديث'' للكونت اودسكلى ، و''مصر فى عهد اسماعيل'' لسانتى ، و''مصر فى عهد سعيد'' لمريو ، و''مصر فى عهد اسماعيل'' لماك كون ، و''مصر الخديوى'' لأدون دى ليون ، و''رسائل عن مصر'' لسنت هيلير ، و''تاريخ مصر الحديث'' لجورجى بك زيدان .



فقضى هناك عامين تحسنت صحته فيهما تحسنا بينا، وفارق الألم جفونه . فأمر جدّه بانتقاله الى المدرسة المصرية فى باريس . وهى دار تربية أسسها فى تلك العاصمة (محمد على) عينه — عملا بنصائح فرنساوى يقال له المسيو چومار — للنشأة المصرية اللبيبة، وأرسل اليها ولديه الأميرين حليم وحسين والأمير أحمد ولد ابراهيم ابنه مع نخبة من شبان مصر الأذكياء . منهم شريف باشا، ومراد باشا، وغيرهما، تحت رياسة وجيه أرمنى اسمه اسطفان بك، وإدارة وكيل له اسمه خليل افندى تشيراكيان .

فانتقل الأمير (اسماعيل) اليها، وهو فى السادسة عشرة من عمره . وتبـارى على مقاعدها، وفى مضمار تعليمها، مع أذكى أولئك الشبان وأكثرهم نشاطا . وبرع على الأخص فى علم الهندسـة وفى فنى التخطيط والرسم؛ وأتقن، إتقانا تاما، اللغة الفرنساوية؛ والطبيعيات والرياضيات .

عودته الى مصر

فلما أتم علومه المدرسية، عاد الى القطر المصرى؛ وكان والده الفارس المهيب قد اسـتلم زمام الحكم فيه، وأخذ يظهر للملأ أن كفاءته الادارية لا تقل عن كفاءته الحربية .

فشرع الأمير (اسماعيل) يتعلم، فى مدرسـة أبيه الحازم، ضروب الحكم وفنون الادارة، ويعلل نفسـه بالنبوغ فيها، نبوغه فى سائر العلوم التى تلقاها، كما أنه أخذ يتشرب لبان الأحكام القائمة على قاعدة التطور طبقا لمقتضيات الأيام .

موت أبيه

ولكن المرض، الذى كان قد أنشب أنيابه إنشابا أليمـا، فى أحشاء ابراهيم باشا لم يمهله كثيرا؛ ولم يرحم القطر المصرى الذى باتت آماله كلها فى تحسين أحواله، وترقية شؤونه، وسعادة أيامه، متعلقة بأذيال تلك الحياة الثمينة . فحصد الموت عمر

قاهر (نزيب) ، بعد عود ابنه الأمير (اسماعيل) الى مصر بقليل ؛ وغادر أولاد ذلك الرجل العظيم الثلاثة ، حزانى ، كسيرى الفؤاد ، بالرغم من الثروة الواسعة المخلفة لهم .

وانمـا كان حزنهم وانكسار فؤادهم مسببين لهم ، أولا : من فقدانهم أبا ، قلّما جادت بمثله لغيرهم الأيام ؛ ثانيا : من تحكم الداء ، العضال ، فى جسم (محمد على) العظيم وعقله ، بحيث أحرمهم مؤاساته فى ذلك المصاب وأعوزهم تعضيده ؛ وثالثا : لأن ارتقاء ابن عمهم (عباس الأوّل) السدّة المصرية ، مع ما اشتهر عنه من الجفاء لوالدهم جفاء حمل ابراهيم باشا فى حياته على إبعاده الى مكة المكرمة (١) ، لم يكن من شأنه أن يلهمهم الصبر ، ويحل من قلوبهم ، محل بلسم العزاء الذى كانت قلوبهم محتاجة اليـــه .

غير أنهم تقوّوا وتجلدوا ، وبذلوا مجهودهم ليكونوا مع الوالى الجديد على أتم ما يرام من الصفاء .

ولمـا كان الأمير (اسماعيل) لا يزال يافعا ، وقليل الحنكة فى الأشغال المـالية ، عهد النظر فى شؤون دائرته الى إدارة خاصة ، باشرتها برهة مباشرة لم ترضه الرضا كله . فشمر عن ساعد الحزم والجدّ وأخذ زمام تلك الادارة بيده ؛ فنجحت أموره نجاحا باهرا ، وازدادت ثروته زيادة عظيمة .

وكانت له فى الصعيد الأطيان الشاسعة ، من التى يزرع فيها قصب السكر وتأتى بمحصول جيد منـه . فأقبل على تحسين زراعتها تحسينا ضاعف محصولها . وأوجد فى تلك الأصقاع ، معملا بخاريا لتكرير السكر ، على مثال المعامل الانجليزية الأولى .

(١) أنظر : "إماطة اللثام عن أسرار مصر" ص ١٣٦

موت جده محمد على

وبينما هو موجه كل اهتمامه الى أشغاله هذه الخصوصية، ومكب عليها بكل نشاط نفسه النشيطة، إذا بملك الموت نزل مرة أخرى، وقبض بالاسكندرية، بقصر رأس التين، روح (محمد على) المنزوى عن العالم!

فما واروه التراب فى مسجده الرخامى المرمرى الذى أنشأه على جبين قلعة الجبل، إلا وقام نزاع بين (عباس) و(سعيد) مبنىّ على اختلاف فى تقسيم تركته.

النزاع بين عباس وباقى الأمراء

ولما كان الحق فى جانب (سعيد)، وكانت مصلحته مصلحة عموم الأسرة؛ وكانت دعاوى عباس من شأنها أن تذهب، فيما لو حققت، بمعظم ثروة البيت العلوى، انحاز سائر الأمراء، وفى جملتهم (اسماعيل)، الى (سعيد) وأخذوا يقاومون مطامع (عباس) المقاومة كلها.

فكبر النفور بين الطرفين، وبات موقف المقاومين حرجا؛ لأن (العباس) لم يكن يحجم عن ارتكاب جريمة عائلية. والكل كان يعلم أنه حاول قتل عمته، الأميرة زهره باشا، الشهيرة بنازلى هانم، أرملة محمد بك الدفتردار. لولا أن أهل قصرها تمكنوا من تهريبها[1].

ولكن الأمراء، و(اسماعيل) فى مقدمتهم، لم يكونوا ليرهبوا سطوة ذلك العاتى. وأخذوا يكاتبون فى شأن دعواهم الباب العالى، ملحين عليه الإلحاح الوحيد المفهوم لديه، بإنصافهم.

اتهام اسماعيل بقتل خادمه

فوقع فى خلد (عباس) الإقدام على عمل يلقى الرعب فى قلوبهم ويرعد فرائصهم ويجعلهم يعتبرون بما يجرى لواحد منهم. فاتهم الأمير (اسماعيل) بقتل أحد خدمه؛

(١) أنظر: "إماطة اللثام عن أسرار مصر" ص ١٣٦

وأراد أخذه بجريرة تلك التهمة، كأنما قتل خادم كان أمرا ذا شأن فى نظر عباس فى تلك الأيام[١] .

ولكن الأمير (اسماعيل) لم يجد صعوبة فى دحض تلك التهمة والخروج منها سليما . على أنه اتخذ لنفسه عبرة ، واعتبر بها الأمراء كذلك . فقرّ رأيهم جميعا ، على مغادرة القطر المصرى ، والذهاب الى الأستانة ليعرضوا أمرهم على السلطان ويستنصفوه من قريبهم المغتصب العاتى . وذهبوا اليها .

فصدرت إرادة السلطان عبد المجيد بانفاذ فؤاد افندى — وهو الذى أصبح فيما بعد فؤاد باشا الطائر الصيت — وجودت افندى — الذى أصبح فيما بعد، جودت باشا ، وآشتهر بتآليفه التاريخية وغيرها — إلى مصر ليسوّيا الخلاف ، ويصلحا بين أفراد الأسرة العلوية الكريمة .

تسوية الخلاف

فأتيا، ونجحا فى مهمتهما . فعاد الأمراء إلى مصر إلا (اسماعيل) ، فانه فضل البقاء فى الأستانة على الرجوع إلى قطر يحكمه (عباس) قطر، قد يجد فيه عقارب وحيات تحت قدميه .

فحفه عبد المجيد بعنايته، وأنعم عليه برتبة الباشوية الرفيعة، وعينه عضوا فى مجلس أحكام الدولة العلية .

قتل عباس وعودة اسماعيل

فاشتهر الأمير (اسماعيل) فى وظيفته هذه، ببعد النظر وصائب النصيحة . ولبث فيها ، والحرب قائمة بين تركيا وروسيا؛ ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن قتل (عباسا)

(١) أنظر : "مصر فى عهد اسماعيل" لماك كون ص ٢٠

في سرايه ببنها العسل، المملوكان اللذان ارسلتهما بهذه المهمة إلى مصر الأميره نازلي هانم عمته الناقمة عليه[١] — يوليو سنة ١٨٥٤ —

فولاه عمه محمد سعيد باشا رئاسة مجلس الأحكام المصري الأعلى . فاهتم بشأنه أعظم اهتمام ونظمه على مثال مجلس أحكام الدولة العلية .

إيفاده الى أوربا من لدن سعيد بمهمة سرية

وفي سنة ١٨٥٥، أوفده سعيد إلى أوروبا بمهمة سرية لايعلم التاريخ ماهي . ولكنه يظنها مختصة بالسعي إلى توسيع نطاق الاستقلال المصري الداخلي، عقب فوز الجنود المتحالفة، التي منها الحملة المصرية، على جنود الروس، فوق ربى بجيث جزيرة القرم . وزوده بكتابين خاصين مرسلين منه إلى الامبراطور نابليون الثالث والى البابا پيس التاسع، ليسلمهما إياهما يدا بيد[٢] .

فقام الأمير (اسماعيل) بتلك المهمة، قياما رفع شأنه في أعين العاهل الفرنساوي والحبر الروماني، وأوجب ممنونية محمد سعيد له .

أما العاهل الفرنساوي فانه — بعد أن وقف منه على دقائق الادارة المصرية وحركة تطور المدنية في القطر المصري . بالنسبة لتزايد نزوح الجاليات الأجنبية اليه — وعده بالنظر فيما اقترحه عليه من توسيع نطاق الاستقلال الداخلي بمصر في مؤتمر الصلح المقبل، اذا ما وجد الى ذلك سبيلا .

(١) أنظر : "إماطة اللثام عن أسرار مصر" ص ١٤٣ وما يليها . على أن الرواة اختلفوا في حقيقة مقتله . فنهم من اتهم السلطان عبد المجيد به، ومنهم من جعله بتدبير من بعض نسائه الخ . أنظر : "مصر في عهد إسماعيل" لماك كون ص ١٠، و"مصر الخديوي" لأدون دي ليون ص ٨٧، و"رسائل عن مصر الحديثة" لجليون دنجلار، ص ٦٢

(٢) أنظر : ماك كون "مصر في عهد اسماعيل" ص ٢٠، ورافيس : "اسماعيل باشا" ص ٣

وأما الحبر الرومانى — وكان لشخصه، فى تلك الأيام، منزلة سامية : أوّلا بسبب مركزه، ثم للشهور عن ميوله وفضائله، وأخيرا بسبب صداقة نابليون الثالث له — فانه قبل هدايا ضيفه، بممنونية عظمى، واحتفى به حفاوة فائقة، ووعده بمساعدته جهد الطاقة والاستطاعة خيرا، ورجاه أن يرفع إلى سدّة عمه السنية وصيته بالاكليرس الكاثوليكى والكاثوليكيين المصريين إحسانا .

فلما عاد الأمير (اسماعيل) إلى مصر، وجد من مظاهر شكر عمه له، ما أثلج صدره، وأنساه مشاق سفره .

وفى مايو سنة ١٨٥٨، أقام محمد سعيد باشا حفلة حافلة فى الاسكندرية — وكانت حفلات ذلك الوالى عديدة فخمة — ودعا إليها جميع أمراء بيته العالى، سواء فى ذلك الذين كانوا فى الاسكندرية، والذين كانوا بمصر أو غيرها من الجهات .

فلبى الأمراء الدعوة، وفى مقدمتهم أحمد باشا رأفت أكبر أولاد إبراهيم باشا، وحليم باشا أصغر أنجال (محمد على) واعتذر الأمير (اسماعيل)، لأنه كان متوعك المزاج .

كارثة كفر الزيات

وقد كان توعك مزاجه فى ذلك الظرف، أمرا ساقه إليه حسن الحظ : فإنه لما انقضت الحفلة عاد الأميران السابق ذكرهما إلى مصر بقطار خاص مع حاشيتهما ورجالها . فوقعت العربة التى كانت تقلهما فى النيل، عند كفر الزيات . فغرق الأمير أحمد باشا ونجا الأمير حليم باشا .

فأصبح الأمير (اسماعيل) ولىّ عهد السدّة المصرية، لأنه بات أرشد رجال البيت العلوى بعد موت أحمد باشا أخيه الأكبر .

وقد اختلفت فى سبب تلك الكارثة الروايات . فمن قائل إن الكوبرى نسى مفتوحا سهوا فسقط القطار فى النيل عند ما بلغه، لأن السائق لم يتمكن من إيقافه، ومن قائل

— وهو الأقرب الى الصدق : لأن كوبرى كفر الزيات لم يكن قد أنشئ بعد — إن القطارات كانت ، فى ذلك العهد ، تجتاز النيل عند كفر الزيات ، فى معدية تنقل عرباتها ، ثلاثا ثلاثا ؛ مع ترك الخيار للركاب فى النزول اتقاء للخطر ، أو العبور فيها ؛ وأن الأميرين — وكانا معا فى عربة واحدة — خُيّرا فأبيا إلا البقاء فى العربة وعبور النهر وهى تقلهما ؛ وأن المنوط بهم أمر نقل العربات إلى المعدّية دفعوا بعربتهما بقوّة إليها إظهارا لنشاطهم وغيرتهم ؛ فتدحرجت عنها إلى النهر وغرقت فيه . أما أحمد — وكان بدينا — فلم يستطع الوثوب من نافذة العربة إلى الماء ، فأخرج ميتا مخنوقا ؛ وأما حليم — وكان خفيف الجسم ، متمرّن العضلات — فإنه وثب من النافذة إلى الماء واجتازه سباحة[1] .

ولكن النميمة — وكان ذلك بدء قيامها ؛ ولكم حاولت ، فيما بعد ، تسوء سمعة (اسماعيل) وطمس معالم فخره ومجده — أبت إلا أن تغتنمها فرصة لتنفث عليه وعلى عمه سعيد سمومها وتحاول تعكير مياه الصفاء ، والتوادد بينهما[2] .

غير أن الأميرين لم يباليا ، فى نقاوة ضميرهما ، بما أذاعته الألسنة الشريرة حولها ، وظهر ذلك جليا فى أعمالها .

قائمقامية اسماعيل الأولى

فان محمد سعيد باشا ، حينما سافر إلى سوريا زائرا فى سنة ١٨٥٩ (ومكث فى بيروت ثلاثة أيام ، نزل فيها ضيفا كريما على وجهاء المدينة ، وكان فى أثناء مروره فى الطرقات ، ينثر الذهب على الناس) ، عهد فى قائمقامية الولاية : مدّة غيابه الى ابن أخيه الأمير (إسماعيل) . فدل ذلك على مقدار ثقته به وباخلاصه[3] .

(١) أنظر : ماك كون "مصر فى عهد اسماعيل" ص ١٨ ، و "مصر الخديوى" لأدون دى ليون ص ١٥٤ و ١٥٥

(٢) أنظر على الأخص : "الكافى" لشاروبيم بك ج ٤ ص ١٣٦ و١٣٧ طبعة بولاق الأميرية سنة ١٩٠٠

(٣) أنظر : "تاريخ مصر الحديث" لجورجى بك زيدان ج ٢ ص ٢٠٢

كذلك حينما قصد البلاد الحجازية لتأدية فريضة الحج فى أوائل ســنة ١٨٦١ ، أقامه نائبا عنه وقائما مقامه . وسرّ جدّا من الكيفية التى أدّى بها الأمير (إسماعيل) واجبه . وأظهر له امتنانه حين عودته، بتقليده قيادة أربعــة عشر ألف عسكرى، وبتعيينه سردارا عامّا للجيش المصرى؛ وعهد إليه فى إخماد ثورة بعض القبائل المتمرّدة على حدود السودان .

والثانيـــة

سرداريته للجيش المصرى

إخماد فتنة القبائل الثائرة على حدود السودان

فقام الأمير (اسمـاعيل) بهذه المهمة خير قيام : لأنه تمكن بحسن دهائه وفطنته من تسكين نيران تلك الفتنة بدون سفك نقطة دم واحدة[1] .

ولمـا أحس محمد سعيد باشا بأول وخزات الداء الأليم، الذى قضى فيما بعد على حياته، وشعر بأنامله تهدم بسرعة هيكل جسمه القوى، وعزم على السفر إلى أوروبا للتطبب منه، فى أواخر صيف ســنة ١٨٦١ ، عهد أيضا بالنيابة عنه فى كرسى ولايته، إلى ابن أخيه الأمير (اسماعيل) : كأنه كان شاعرا أن الموت بات قاب قوسين أو أدنى؛ وأنه يجدر به أن يقدم، لولى عهده، الفرص التى تمكنه من تعلم شؤون الحكم، قبل التلبس، لنفسه، بواجبات أعبائه .

غير أن أطباء أوروبا لم يتمكنوا، أكثر من أطباء مصر، من التغلب على داء سعيد العضال . فعاد الرجل إلى مصر، وهو يائس من الحياة . وما لبث أن فارقها غير باكٍ عليها، تاركا ثروته القليلة، نسبيا، لابنه الأمير طوسون وأرملته الأميرة أنجا هانم البديعة الجمال، ومخلفا ملكه لابن أخيه (اسماعيل باشا) .

---

(١) أنظر : "مصر فى عهد اسماعيل" لمالك كون ص ٢٠

الفصل الثالث

سمو الوالي (اسماعيل[1] باشا)

وإذا سألتَ عن الكرام وجدتَني * كالشمس لا تخفى بكل مكان

وصف اسماعيل لدى ارتقائه العرش

وكان عمره، عند ارتقائه السدّة المصرية، اثنين وثلاثين عاما وسبعة عشر يوما : أو ما يقرب من ثلاث وثلاثين سنة قمرية .

فكان، والحالة هذه، في ريعان حياته وظهر أيامه : ناضج الفكر والتصوّر، يانع الجسم، ممتلئه، زاهر البنية، قويا، ربعة القامة، عريض الجبهة، كثيث اللحية والشارب والحاجبين، متلألئهما، كأنهما من ذهب الجنيهات، وكانت عيناه تتقدان حدّة وذكاء مع قليل ميل نحو الحول، من أثر الرمد الصديدي الذي مُنِي به في حداثته، وانجلى عن إبقاء إحدى عينيه أصغر قليلا من الأخرى .

وكان، اذا حادث إنسانا، كسر على عينه اليمنى، وشخص الى محدثه باليسرى، شخوصا مزعجا، لشدّة تألقها : كأنه يريد أن يحتلي أعماق أفكاره، بالنور الساطع المنبعث عنها .

وبلغه، مرة، أن أحد القناصل العامة، قال، بعد مثوله بين يديه ومحادثته وانصرافه : « إنه إنما ينظر بعين ويسمع بالأخرى » . فقال : « واني لأفكر بالاثنتين معا »[2] .

(١) أهم مصادر هذا الفصل : "مصر تحت حكم اسماعيل" لسانتي، و"خديويون وباشوات" لموبرلي بل و"مصر واسماعيل باشا" لساكريه وأوتربون، و"مصر القديمة والحديثة" لأودسكالكي، و"مصر في عهد اسماعيل" لماك كون .

(٢) أنظر : "خديويون وباشوات" لموبرلي بل ص ٦

وكان عظيم الهيبة ؛ جليل المقــام . ولا غرابة : فإنه ابن (ابراهيم) وحفيــد (محمد على) . والهيبة كانت ميزة كل حركاتهما وسكناتهما . والجلال كان يحف بهما كأنه ظلهما الظليل .

وكان حسن الفراسة ؛ يدرك ، حالا ، ما انطوت عليــه سريرة محادثه . ولكنه كان أيضا حسن الظن بالناس ، لاسيما بالأجانب وأفراد الجاليات الغربية : فأدى ذلك الى جملة أضرار أصابتــه وأصابت بلاده . لأن عدد المخلصين اليــه الولاء فى خدمتهم ، من أولئك الأجانب ، لم يتجاوز — على كثرتهم — عدد الأصابع .

وكان كبير النفس ، عالى الهمة ؛ يشعر شعورا عميقا بأن كونه ابن (ابراهيم باشا) الأمير الذى قاتل فى قارات العالم القديم الثلاث ، ليوطد دعائم ملك مصر ، ويوسع نطاقه ؛ ثم تمنى ، حينما آلت اليه أزمّة الأحكام ، لو يمنّ الله عليه بعمر طويل ، ليتمكن من السير بمصر ، بخطوات واسعة ، فى مضمار المدنية الغربية والرقىّ العصرى ؛ وكونه حفيد (محمد على) ، الباشا العظيم ، الذى أخرج مصر من بطن العدم الى عالم الحياة ؛ ومن حضيض الذل الى عرش الســيادة ؛ وسدّد خطاها فى سبيل العمل وميدان الفخار ، نيفا وأربعين عاما ، يجعلانه محط آمال تاريخية عظيمة يتحتم عليه تحقيقها ؛ ويوجبان عليه أعمالا صاعدة ، لا مندوحة له من الإقدام عليها .

فوضع نصب عينيه ، حالمـا انفتح عصر ملكه أمامه ، الجرى على خطة تجعــل التاريخ يضعه فى صف جدّه وأبيــه ، وينعته بنعتهما . فيقول : (اسماعيل العظيم) ابن (ابراهيم العظيم) ابن (محمد على العظيم) .

وصمم على تنفيذ تلك الخطة ، وعدم الحياد عنها ، مهما تكاثرت فى سبيله العقبات

ومهما اضطرته صروف الأيام الى اللين ، موقتا ؛ والتظاهر بعكس ما يرمى اليه من الأغراض البعيدة .

مراميه

تلك الخطة كانت ترمي :

(أولا) الى السير بمصر بصراحة تامة فى سبيل المدنية الحديثة ؛ والسير بها ، بعزم ثابت وقدم راسخة ، فى جميع تشعبات ذلك السبيل .

(ثانيا) الى الفوز بالاستقلال السياسى لها .

(ثالثا) الى النهوض بها الى مصاف الدول العظمى .

ولكنه كان يعلم أن تحقيق هذه المرامى عن سبيل القوة يكاد يكون محالا : (أولا) لعدم نضوج العقلية العامة فى البلاد ، نضوجا يساعده على إدراك متمنيات نفسه ؛ و(ثانيا) لان مركز مصر من الدولة العلية ومن الدول الغربية يجعلها أضعف بكثير من أن تحاول ، مرة ثانية ، تغليب سيفها على سيوف تلك الدول — (وما أصاب جدّه فى ذلك كان خير عبرة له) . فصمم على تحقيقها عن سبيل الدهاء والاقناع ، وبالارتكان على الدولة الغربية التى يتضح له رجحان كفتها فى ميزان السياسة العمومية .

غير أن حزب الناقمين على محمد سعيد باشا ميوله الى الأجانب ، واستسلامه اليهم ؛ المتوسمين فى خلفه إقلاعا عن تلك الميول وعودة الى المبادئ العباسية ومقتضياتها ؛ والمنضمين فى أهوائهم حول هذا الخلف ، توهما منهم أنه رئيسهم وزعيم حزبهم المعارض لكل اصلاح ، لم يكونوا يعلمون ما انطوى عليه ضميره ، وصح عليه عزمه .

فظنوا، لما أغمض محمد سعيد جفونه الإغماض الأبدى، أن دورهم قد حل؛ وأن الأوان قد آن للحمل على الجالية الغربية، حملة تزعزع أركانها، وتفنى شأنها .

فتنة الاسكندرية

فأضرموا نار الأحقاد والضغائن الدنيئة فى قلوب زمرة من السوقة والزعانف ودفعوا بهؤلاء الى نوع من الفتنة والقيام على الغربيين . وحرضوا ثلاثة من العساكر — ولعلهم كانوا ألبانيين من بقايا أجناد الأرناؤط الثمانية آلاف الذين اتخذهم (عباس الأول) حرّاسا له، وعزم على تسريح ماتبقى من الجيش المصرى ليحلهم فى قوة البلاد العسكرية مكانهم — على إهانة أحد الفرنساويين، والانهيال عليه ضربا بدون سبب . ثم على تطويقه بحبل فى رقبته، وسحبه فى الشوارع ومحاولة قتله؛ وهم يظنون أنهم يعملون عملا يقع من قلب الوالى الجديد موقعا حسنا .

فهب قنصل فرنسا العام بالاسكندرية مدافعا عن المهان من رعايا دولته . وطالب الحكومة المصرية بمعاقبة الجناة وتقديم المعذرة .

فترددت الحكومة قليلا . لأنها لم تكن قد وقفت بعد على نيات الأمير الجديد . ولكن (اسماعيل) أصدر الأوامر حالا بضرب المعتدين ضربة تكون عبرة لأمثالهم، ورادعا لمهيجيهم .

إخمادها

فجردت الحكومة الجناة من رتبهم؛ وأنزلتهم من درجاتهم؛ ونفتهم الى أقاصى البلاد . ثم أمرت فرقة عسكرية بتقديم التحية الى الراية الفرنسية[1] . فأدرك الرجعيون ساعتئذ خطأهم، وأخلدوا الى السكينة، ريثما تتهيأ لهم فرص مناسبة . وأمسوا يعتقدون بأن (اسماعيل) ليس رجلهم، وأن آمالهم يجب أن تعقد بغيره .

(١) أنظر: "مصر واسماعيل باشا" لسكريه وأوتربون ص ٢١ و ٢٢ و ٢٣

الجزء الثانى

بزوغ الشمس

الفصـــل الأوّل

إيقاظ الآمال[1]

وما زلت توّاقا إلى كل غاية * بلغت بها أعلى البناء المقوّم

غير أنه لم يكن من مصلحة (اسماعيل) ولا من مصلحة البلاد أن ينفر رجال ذلك الحزب . لأنهم، وان لم يكن يرجى منهم نفع مطلقا، لانغلاق عقولهم دون أشعة كل نور من أنوار التطوّر الاجتماعى، كانوا قادرين على تعكير مياه التفاهم بين مصر والأستانة . وذلك التعكير لم يكن مرغوبا فيه . بل كان المرغوب فيه عكسه لنجاح سياسة الدهاء التى عوّل (اسماعيل) على اتباعها فى تحقيق أمنيات نفسه .

السفر الى الأستانة لتقلد الإمارة

لذلك، فانه، بعد أن انقضت مراسم التهانى بارتقائه سدّة جدّه وأبيه، صرح بعزمه على السفر الى الأستانة العلية لتناول فرمان التولية فيها، اقتداء بأبيه (ابراهيم) وعملا بنصوص فرمان سنة ١٨٤١

فأقام حليم باشا عمه مقامه فى غيبته، وسافر اليها . ومثل بين يدى السلطان عبد العزيز — وكان قد أخلف، منذ أقل من سنتين، أخاه عبد المجيد على عرش آل عثمان — فلقى منه كل حفاوة وإكرام وقلده السلطان بيده أفخر نياشين الدولة فوق تقليده إياه إمارة مصر .

(١) أهم مصادر هذا الفصل : "مصر فى عهد اسماعيل" لماك كون، و"مصر القديمة والحديثة" لأردسكلكي .

فاغتنم (اسماعيل) فرصة فيض هـذه التعطفات ، والتمس من عبد العزيز التنازل إلى زيارة القطر المصرى ، فوعده السلطان بذلك عاجلا ، فشكر وعاد راضيا محظوظا .

ولما وصل الى الاسكندرية وقابله جميع قناصل الدول وكبار رجال الجاليات الغربية ليهنئوه بسلامة الإياب وفرمان التولية ، ألقى على مسامعهم خطابا نفيسا ، كان بمثابة إعلان للخطة التى رسمها لنفسه ، فيما يختص بإدارة مصر الداخلية . وهاك نصه [1] :

خطبة الجلوس

« ياحضرات القناصل

إنى أشعر شعورا عميقا بالواجب الذى وضعه الله سبحانه وتعالى على عاتق باستدعائه المرحوم عمى إلى جواره وانتخابه إياى لتولى زمام الأحكام المصرية . وإنى آمل فى ظل صاحب الجلال الهمايونى السلطان الأعظم أن أقوم قياما حسنا بأداء ذلك الواجب .

وإنى موطن العزم توطينا حقا ، ياحضرات القناصل ، على تخصيص كل ما أوتيت من ثبات وهمة لترقية شؤون القطر الملقاة تقاليد حكمه إلىّ ، وإنماء رخائه .

وبما أن أساس كل إدارة جيدة إنما هو النظام والاقتصاد فى المالية فإنى سأجعلهما نبراسى فى كل أعمالى . وأعمل على توطيد أركانهما بكل ما فى وسعى .

ولكى أقدم مثالا صالحا للجميع ودليلا محسوسا على إرادتى هذه الأكيدة فإنى قد عزمت منذ الآن على ترك الطريقة المتبعة من أسلافى ، وعلى تقرير مرتب سنوى لى ، لن أتجاوزه أبدا . فأتمكن بذلك من تخصيص عموم إيرادات القطر لإنماء شؤونه الزراعية وتحسينها .

(١) ومن قائل ان هذا الخطاب تلى فى القلعة ، ثانى يوم التولية .

وإنى قررت أيضا إلغاء طريقة السخرة المشؤومة ، التى اتبعتها الحكومة دائمـا فى أشغالها والتى هى السبب الأهم ، بل الأوحد ، الحائل دون بلوغ القطر كل النجاح الذى هو جدير به .

وإنى لمتيقن أن التجارة الحرّة ستجد فائدتها ومصلحتها فى هذه الاجراءات ، فتنشر الرخاء وتعممه بين جميع الطبقات من الأهالى والسكان .

أما التعليم ، وهو أس النجاح والرقىّ ، وإقامة معالم العدالة بقسطاس حق ، وهى محور كل أمن ؛ فإنى سأخصهما بفائق عنايتى . فينجم عن النظام فى المـالية والادارة ؛ وعن توزيع العدالة توزيعا لا تشـوبه شائبة ، زيادة فى سهولة المعاملات ، وضمانة لسلامتها بين الأورو بيين والقطر .

وإنى آمل ، ياحضرات القناصل ، أن أجد منكم اقتناعا بهذه العواطف التى تملأ فؤادى ، وإقبالا على وضع أيديكم فى يدى بإخلاص ، لنعمل معا فى سبيل نير ، على ما فيه خير البلاد وساكنيها[1] . »

فكان لهـذا الخطاب وقع حسن ، ليس فقط عند سامعيه ، بل فى عموم الأرض المصرية ، وفى ذات البلاد الخارجية ؛ وتيقن الجميع أن الملك الجديد البازغ بخيره ، يحمل فى طيات مستقبله سعادة ، قلما حلمت الأقطار الشرقية بمثلها .

تدنه المخاوف على مشروع القنال

وكان فرديناند دى لسيبس ، صاحب مشروع ترعة السويس ، خائفا على مشروعه انقلابا فى الوالى الجديد ، وانحرافا كان قد هوّل به كثيرون حوله . فرأى (اسماعيل)

(١) أنظر : " مصر القديمة والحديثة " لأودسكلكى ص ١٢ ج ١ ، و " مصر فى عهد اسماعيل " لماك كون ص ٢٢

أن يسرى عنه مخاوفه، ويسكن مخاوف الشركة العالمية القائمة بذلك المشروع مع إبقاء يديه حرتين فى المستقبل .

فاغتنم فرصة وجود فرديناند فى زمرة القناصل العامة المحيطين بشخصه فى تلك الحفلة الرسمية التاريخية، وقال له على مسمع من الجميع : «إنى، يامسيو دى لسيبس لأرى نفسى غير جدير بالملك إذا لم أكن قناليا أكثر منك . وإنك ، لو كنت والى مصر، وأنت رئيس شركة القنال، لما فعلت فى مصلحتها ، بالأستانة ، أكثر مما فعلت أنا[1] .

فبدد، بذلك، سحابة الوهم التى كانت قد غشيت أفكارا كثيرة، وتمكن، بباكورة أعماله هذه التى سردنا تفاصيلها ، من بلوغ غايتين معا : (الأولى) المحافظة على وداد الرجعيين ومحبيهم؛ و(الثانية) اكتساب ثقة الأوروبيين وإعجابهم به .

أما شعبه فكان فرحا به، فرحا بتوليته، ولا فرح الصبى بيوم العيد .

---

(١) "أوائل ترعة السويس" لفرديناند دىلسيبس ص ٢١٤ و ٢١٥

الفصل الثانى

زيارة السلطان عبد العزيز للديار المصرية (١)

كانت زيارتكم هذى لنا أملًا * واليوم قد بلغ الآمالَ راجيها

وبينما الملأ فى القطر لا يزالون يتحدثون بسفر سمو الوالى الى القسطنطينية ، والحفاوة التى قوبل بها هناك ، والإكرام الذى ناله ؛ وبما اشتملت عليه الخطبة الرسمية من بدور سعد تسطع فى سماء البلاد ؛ وبينما الكل يشاهدون بدء تحقيق الخطة التى رسمها لنفسه فى ذلك الخطاب ، فيما أصدره من الأوامر إلى وزارة المالية بتخصيص مبلغ ستين ألف كيس (أى ماينوف قليلا على سبعة عشر مليونا ونصف من الفرنكات) بصفة مرتب سنوى له ، لن يتعدّاه ، وصرف كل مايزيد على ذلك فى مصالح البلاد — إذا بخبر دوى فى وادى النيل جعله يهتز طربا من أعلاه إلى أقصاه ، وجعل عيون عموم العالم الإسلامى تتجه إليه ، وتنظر نظرة إجلال وإعظام إلى العاهل الحاكم فيه . ذلك النبأ انما كان تحرّك الركاب السلطانية العثمانية الى زيارة الديار المصرية ، والبر بالوعد الذى وعد (عبد العزيز) تابعه به .

وانما كان لذلك النبأ ، ذلك الوقع العظيم ، لأنه منذ أن فتح السلطان سليم خان الأوّل القطر المصرى وأضافه الى ممالكه الشاسعة الأرجاء ، وبارحه بعد أن أقام فيه حكومته المملوكية المزدوجة ، التى كانت من أكبر أسباب فقره وتعاسته ، لم تطأه قدم سلطان عثمانى مطلقا ، ولا وقع فى خلد أحد أن خليفة الاسلام يأتى اليه ليزوره ،

(١) أهم مصادر هذا الفصل : "سفر السلطان عبد العزيز إلى مصر" لجارديه ، فتحسن مطالعته برمته .

بعد أن فارقت الخلافة العباسية ربوعه ؛ ولأنه ، منذ أن أغمض الموت جفون السلطان مراد خان الرابع فى سنة ١٦٣٠ . لم يروعن سلطان عثمانى مطلقا أنه فارق عاصمة ملكه ، لا لجهاد تقى ولا لتفقد أحوال رعيته ، ولا لزيارة غيره من عواهل الدنيا وملوكها .

فلم يكد العالم يصدّق ذلك النبأ ، لولا أنه رأى من تحقيقه ماقطع قول كل متكهن وبدّد الشك من جميع الصدور .

سفر السلطان

ففى يوم الجمعة ، ثالث أبريل سنة ١٨٦٣ — وكانت الجمعة المقدّسة عند الطوائف الغربية — ركب السلطان عبد العزيز ومعه ابنه الأمير يوسف عز الدين ، و وزيراه فؤاد باشا وزير الحربية ومحمد باشا وزير البحرية ، وغيرهما من كبار موظفى الدولة والمابين والخاصة السلطانية ، اليخت الفخم (فيض جهاد) ، بعد أن تبرك بدعاء والدته السلطانة المعظمة ؛ وركب كل من الأمراء الفخام مراد افندى وحميد افندى ورشاد افندى أولاد أخيه المرحوم عبد المجيد ، الفرقاطه (مجيدية) ؛ وركب وراءهم جمهور عديد من الياوران والضباط والموظفين والجنود سفنا عثمانية أخرى ؛ وأقلع الجميع من الأستانة الى مصر .

فمروا بغليبولى فى اليوم الرابع من أبريل — وكان يوم سبت النور — فأطلقت طوابى الشاطئ الأوربى وطوابى الشاطئ الأسيوى مائة مدفع ومدفعا ، إجلالا وتعظيما لاجتياز الباديشاه العثمانى وأمراء بيته السلطانى مياه الدردنيل .

وما بلغ اليوم السابع من أبريل ضحاه ، إلا ووصل الأسطول المجيد الى عرض بحر الأسكندرية . فتجلت لهم هذه المدينة ، وهم فى البعد ، كأنها العروس المنتظرة ساعة الزفاف .

فدنوا منها فى جهة مرفأ رأس التيـــن ، وأعين قاطنى السراى شاخصة اليهم ، وقلوبهم مختلجة سرورا ؛ وروح (اسماعيل) تستمرئ لذة المطمع المحقق .

فلما أضحوا من البوغاز ، بحيث يشرفون على جميع دائرته الشاسعة بأنظارهم ، رأوا السفن مكتظة فيه ، والأعلام العثمانية تخفق فوقها ، وترفرف فى جميع فضاء الساحل المنظور .

فما زالوا يتقدمون ، حتى اذا بلغوا أقرب نقطة فى البحر تستطيع السفن البخارية الرسو فيها ، أطلقوا مدافع أسطولهم تسليما على الأرض المصرية .

الوصول الى الاسكندرية

فدوت المدافع من الطوابى المحيطة بالمدينة ، إيجابا وإجلالا ؛ وملأ الفضاء صدح الموسيقات العديدة من عسكرية وغيرها المصطفة على الشاطئ . وارتفعت أصوات الجم الغفير المحتشد المزدحمة أقدامه على الساحل ، ضاجة . عاجة — وقد مزجت التحية السلطانيـــة بالتحية الأميرية — ، وصائحـــة : " بادشاهمز چوق يشـــا " و" أفندمز چوق يشا " معا .

ونزل (اسماعيل) ومعه عمه حليم باشا وغيره من أكابر رجاله ، فى زورقه الفخم تحيط به انبعاثات ذلك الفرح العمومى ، وسار قاصـــدا اليخت السـلطانى لتهنئة متبوعه الأعظم بسلامة الوصول ، وتقديم فروض الاحترام والاجلال له ، وللسلام على ضيوفه الكرام واستقبالهم .

فقبل يد السـلطان ، وصافح باحترام وانحناء أمراء البيت العثمانى ؛ ثم حمد وشكر ودعا دعاء صالحا .

فوجد من لدن عبد العزيز حفاوة فائقة ؛ وإكراما جديدا : فان مدافع الأسطول العثمانى أرسلت طلقاتها ، مرة أخرى ، إجلالا له ؛ وأقبل السلطان عليـــه ، وقلده

بيده سيفا مرصعا ، كأنه يريد تثبيت توليته الرسمية ، عسكريا . ثم أبقاه فى ضيافته ساعة وأكثر، أظهر له فى خلالها ما ضاعف سروره وزاد إخلاصه .

ثم سار الجميع الى الزوارق المعدّة لهم . فتخلى السلطان عن زورقه الخاص الى الأمراء حميد ورشاد وعز الدين . وركب هو زورق الوالى بمعية مراد و(اسماعيل).

ونزل الباقون فى الزوارق الأخرى ، والمدافع تدوى من البحر والبر، والموسيقات تصدح، والأصوات تضج، والدعوات تتعالى . وساروا قاصدين سراى رأس التين العامرة فى وسط مظاهر ذلك الاحتفاء العام المستمرّ .

وكان فى انتظارهم ، أمام باب السراى ، فرقة كاملة من الجنود المصرية مصطفة على الرصيف ، ومرتدية أفخر ملابسها العسكرية . فرفعت سلاحها حالما مست أقدامهم الأرض المصرية ، وقدّمت لهم تحيتها العسكرية ، ونادى جنودها بأعلى أصواتهم ، وسلاحهم يتصلصل : "بادشا همز چوق يشا" — وهى التحية التى كانت تدوى الآفاق بها فى ذلك اليوم .

وكانت سراى رأس التين قد أعدّت إعدادا فخما لنزول الركاب السلطانية فيها . فوجد عبد العزيز من زخرفها ورياشها والبذخ المنتشر فى جميع أثاثها ، ومن أسباب الراحة والهناء كلية كانت أم جزئية ، المتوفرة فى كل جهاتها ، ما أوجب إعجابه (باسماعيل) وضاعف تقديره للثروة المصرية .

وبعد أن استراح ، وتناول طعام الغداء — وكان شيئا فاخرا يفوق وصف كل واصف ، وقدّم باستمرار على مائدتين : إحداهما فى السلاملك، للسلطان وأمراء بيته ؛ والأخرى فى دار الحريم ، للحاشية والمعية والمابين ؛ ثم استراح ثانية — أخذ يحدّق

بنظره، من نوافذ السلاملك المفتوحة، بالأعمال المدهشة التى خلقتها ارادة (محمد على) الباشا العظيم، من العدم؛ و يعجب بها إعجابا عظيما . ثم طلب الى (اسماعيل باشا) أن يقص عليه كيف تمكن ذلك الجد الكبير من إتمام ما تم على يديه .

مسامرة بين السلطان واسماعيل

فقص عليه (اسماعيل) كيف أن (محمد على) — فى بلد كانت تعوزه كل الوسائل ما عدا يد الانسان، وكانت كل الآراء فيه مجمعة على معارضة آرائه؛ وسدول الجهل وشبح الهمجية مخيم على ربوعه — قد أنشأ كل تلك المعجزات فى أقل من ثمـان سنوات. كيف أنه — بعد ان أضاع أكثر من سنة، وأنفق مليونا ونيفا من النقود لايجاد الترسانة — اتضح له من الأدلة التى أقامها أمامه سريزى بك المهنـدس الفرنساوى (بالرغم من أنه قدم الى خدمتـه مصحوبا بتوصـية ضئيلة) أن جميع مجهودات شاكر افنـدى رئيس أعماله التركى، لن تجدى نفعا، لمخالفتها للأصول؛ فأوقف حالا سـير تقـدمها؛ وضرب صفحا عن المبالغ الطائلة التى صرفت سدى وشرع، بدون أدنى إبطاء، فى تنفيذ تصميمات ذلك الفرنساوى الحكيم . وكيف أنه — بالرغم من كل الصعوبات القائمة فى سبيله — حفر الحوض اللازم لترسانته؛ وأقام المخـازن والمعامل فيها وحولهـا؛ وبنى أسطوله العظيم المؤلف ممـا يزيد على خمس وثلاثين قطعة مشتملة على أكثر من ألف وخمسمائة مدفع بالرغم من عدم وجود الخشب والحديد لديه . وكيف أنه أوصل ماء النيل الى الاسكندرية، بحفر ترعة المحمودية التى يرى مصبهـا أمامه؛ وبحفره إياها بدون آلات ومعاول بل بمجـرد أيدى الفلاحين وأصابعهم، لعدم وجود تلك الآلات والمعاول فى البلاد . وكيف أنشأ سراى رأس التين والطوابى الحصينة التى تدرأ عنها وعن الساحل تعديات كل

عدو والتي وضع رسمها وقام بتنفيذها المسيو دى سريزى عينه . وكيف أقام المنارة الشاهقة ، هدى للسفن والجاريات ، لئلا ترتطم بالصخور القائمة عند مدخل البوغاز .

وقص عليه أيضا كيف تم فى عهد عباس ، وبالرغم من ارادته ، مدّ خط السكة الحديدية بين الاسكندرية ومصر على يد شركة انجليزية فكرت فى مدّه حالا بعد النجاز من مدّ السكة الحديدية بين لندن وليفر بول ، اذ لم يكن قد مدّ من ذلك شيء فى معظم البلاد الأوروبية الأكثر حضارة .

فارتاحت نفس عبد العزيز الى أحاديثه وتاقت الى استعادتها والتوسع فيها ، لاسيما فيما كان منها خاصا بالمحمودية والسكة الحديدية ؛ لتيقنه من أن الترع والسكك الحديدية ، بصفتها أهم طرق المواصلات بين البشر ، أهم مايستطيع حاكم بار برعاياه وملكه الإقبال على الإكثار منها فى دائرة بلاده .

جولة فى الاسكندرية

ولما غربت الشمس وهبطت حرارة النهار ، وانسدلت ظلال الغسق خرج البادشاه من سراى رأس التين ، فى أفخر عربات القصر المكشوفة ، تجرها أربعة جياد مطهمة ناصعة البياض ، ويتقدّمها ثمانية عداءون بملابسهم المزركشة بالذهب ، ونفر يسير من الحراس المرتدين ملابسهم الحمراء الساطعة ؛ واجتاز — و(اسماعيل) على يساره ، والعربات المقلة أمراء البيتين العثمانى والعلوى تتلو عربته الفاخرة — شارع رأس التين ، فشارع الميدان ، فشارع نوبار ، فالمنشية وباب رشيد . وقد اكتظت كلها بالمتفرجين وقوفا على جانبى الطريق ، وتزينت بالرايات والأعلام الخفاقة ، وازدانت بالأنوار المتألقة .

أما فى الشوارع الآهلة بالسكان الوطنيين، فان الرعايا كانوا واقفين على حافات حوانيتهم، المزينــة بالبيارق، وقفة الخاشعين، يهتفون بملء أصواتهم "بادشا همز چوق يشا" وإذا ما دنا منهم الموكب يكادون يسـجدون عبادة أمام جلالة الخليفة الفائت بينما أناس منهم ينثرون الورد والزهور فى طريق الموكب، أو ينشرون فى الهواء دخان البخور العطر و يحرقون العود والنـدّ . وجوقات موسيقية واقفة على بعـد مائة متر الواحدة من الأخرى، تصـدح بأطرب الأنغام فتشنف الأسماع وتشجى القلوب .

ولم يكن من نساء ولا أولاد إلا فى نوافذ البيوت وعلى أسطحة المنـازل، حيث كانت تزدحم الرؤوس البيضاء والرؤوس السوداء وتدوى الزغاريد والتهاليل .

وأما فى الشوارع الآهلة بالأجانب، ولا سيـما المنشية، فان القبعات كانت تلوح فى الهواء؛ وصيحات الابتهاج تملأ الفضاء؛ و يقتدى الأهالى بالغربيين فيصيحون معهم و يفوقونهم بأصواتهم، و يجتهدون فى أن يظهروا لسلطانهم بحركاتهم وأنظارهم، مقدار الحب والإخلاص اللذين تكنهما قلوبهم له؛ بينما السيدات ينثرن من النوافذ باقات الزهور والرياحين أو يرفرفن بمناديلهن فى الفضاء . وكانت الزينات يأخذ سناها بالأبصار، وعلى الأخص الزينة التى أقامها الكونت زيزينيا عند مدخل المنشية .

فلما فرغ السلطان من المرور عاد الى سراى رأس التين من الطريق التى أتى منها بين مظاهر الإجلال والتعظيم .

وما أستقرّ فى قاعة جلوسه إلا وتألق حوله البر والبحر بالأنوار المختلفة الألوان البهية الأشكال؛ ودوت فى الآفاق الألعاب النـارية المتنوعة الأوضاع . وأخذت

تتساقط، أمام نوافذه، بأشكال أهلة وبدور ونجوم، يأخذ سناها بالأبصار، واستمرت الحال كذلك حتى بعد منتصف الليل .

وفود المهنئين بسلامة الوصول

فلما كان اليوم التالى (يوم الأربعاء ثامن أبريل) حوالى الساعة العاشرة صباحاً، استقبل السلطان، وبجانبه (اسماعيل باشا) وفؤاد باشا، قناصل الدول العامة القادمين للتهنئة بسلامة الوصول؛ وألقى عليهم خطبة جميلة، أعرب لهم فيها عن سروره بما رآه من أسباب العمران فى القطر المصرى الذى هو إحدى ممالكه الشاهانية؛ وعن نياته الطيبة، البارّة برعاياه التى يرجو الله أن يمكنه من تحقيقها .

فترجم فؤاد باشا الخطبة لهم . فشكروا السلطان على ما تفضل به من مقابلتهم وخرجوا وألسنتهم تلهج بالثناء على مقاصده ونياته .

زيارة السراى نمرة ٣

ولما كانت ساعات العصر، خرج عبد العزيز و (اسماعيل) وأمراء البيتين العثمانى والعلوى و جميع رجال حاشيتهما للتفرج على قسم المدينة الغربى . وساروا بعد ذلك بجانب ترعة المحمودية . وبعد أن استراح السلطان فى بستان البرنس حليم (وهو الذى أيامنا، بسراى نمرة ٣ التى كانت مخصصة لسكنى الغازى أحمد مختار باشا قبل سنة ١٩١٤، اذ كان مندوبا ساميا للدولة العثمانية بالقطر المصرى) ولقى من احتفاء البرنس حليم بجلالته ما استوجب محظوظيته منه ثم عاد الى سراى رأس التين؛ وقضى ليلته فى راحة وهناء كما قضى الليلة السابقة، والمدينة كلها حوله أنوار وأفراح وتهاليل وزغاريد .

السفر الى مصر

وفى يوم الخميس (تاسع أبريل) اجتاز، بمركبته المفتوحة، المدينة مرة أخرى، فقابلته بما قابلته به المرة الأولى . وتوجه الى المحطة، حيث كان فى انتظاره القطار

المعدّ لركوبه ، ليقله الى مصر عاصمة الديار . ولم يكن قد رأى قبـل ذلك قطارا . فاستوقفت أنظاره آلاته وعدّته ، وأهاجت فيه عواطف حب الاستطلاع — وكانت قوية فى قلبه .

فأخذ يستفهم ويستفسر عن كل ما يرى ؛ فتقدّم اليه ناظر المحطة ومهندس القاطرة بكل بيان شاء وايضاح طلب والايضاحات التى سأل عنهـا . حتى اذا أتت الساعة الحادية عشرة ، صعد الى صالونه الخاص . وجلس (اسماعيل) وفؤاد باشا فى مقعد آخر مجاور ليكونا تحت طلبه . وركب باقى الأمراء العثمانيين والعلويين فى عربات القطار الأخرى ؛ وكذلك رجال الحاشيتين . فسار بهم القطار يقطع سهول الوجه البحرى . والراكبون يتحادثون بمـا توجبه المناظر الممتدّة أمامهم من مواضيع الحديث . حتى اذا بلغ بهم القطار كوبرى كفر الزيات الفخم ، أخذ الكل يعجبون ببنائه ، ويعظمون من شأنه ، ويبالغون فى تقدير نفقاته . واستفهم السلطان عنه من (اسماعيل) فقال انه بلغ ما يزيد على السبعة ملايين من الفرنكات . وأخذ البرنس حليم يقص على من معه فى المقعد حكاية نجاته من الموت فى حادثة سـقوط القطار فى النيل . منـذ خمس سنوات تقريبا .

ولمـا مروا على طنطا ، ورأوا ازدحام الأقدام على محطتها ، ونظروا مآذن الجامع الأحمدى تعلو فى آفاقها ؛ طلب عبد العزيز بعض إيضاحات عنها وعن أهميتها فأجابه (اسمـاعيل) الى طلبه ؛ وقص عليه ما يعمل فيهـا أيام المولدين الأحمديين الأصغر والأكبر .

حكاية نساء الريف وسعيد باشا

وحكى له على سبيل الفكاهة كيف أن نساء الريف المجاور — حينما جعل (محمد سعيد باشا) الخدمة إجبارية على الجميع — تجمهرن حول سرايه بطنطا وأخذن يصحن

ويصخبن وبلغ من بعضهن الحمق مبلغه . فأقبلن بعصىّ فى أيديهن على جدران مسجد مجاور يضربنها صائحات : "خذ ! هذا جزاؤك ، أيها الظالم ، الذى تريد انتزاع أولادنا منا !" بينما (سعيد باشا) — وكان مصابا برمد فى عينيه ، وقد استفهم عن سبب اللجاج والهرج الواصلين الى أذنه ، وعلمه — يقهقه ويكاد يستلقى على ظهره من كثرة الضحك ؛ وكيف أن إحدى تلك النساء لمحت ناظر المحطة الفرنجى واقفا على رصيفها القريب من القصر فنادت زميلاتها وأشارت اليه قائلة : "ها كنّ النصرانى الذى يسير أولادنا فى عربات النار . هلم لننتقم منه !" ؛ فتحوّل تيار سخطهنّ صوب ذلك المسكين وهجمن عليه كمجنونات ، غضابى ، وهنّ يصحن : "لنقتلنه ! لنقتلنه !" ؛ ففر الرجل من وجوههن ، هائما خائفا ؛ واقتفين أثره ، وركبن خلفه كأنه الصيد وهنّ السلوقية . وما زال يجرى وهنّ يطاردنه حتى وصل باب سراى الأمير ، فاقتحمه خائفا منذعرا . وبعد أن أوصده وراءه صعد وسقط على قدمى سعيد هاتفا : "أنقذنى يامولاى" وأخبره الخبر . فكاد سعيد يغشى عليه من الضحك ولم يعد يستطيع جمع أجزاء جسمه المترجرج [١] .

ولما بلغ القطار راكبيه كوبرى بنها ، ورأوا ، من خلال النوافذ ، السراى الفريدة التى أقامها عباس باشا ، عند أحد تعاريج النيل ، فى نقطة تجتلى عين الناظر منها مساحة من الأفق ، قلما يضارع جمال أىّ منظر فى العالم ، جمالها الطبيعى ، تمثلت أمام أعينهم الفاجعة الرهيبة التى قضت على حياة ذلك الوالى ، فى أعماق تلك السراى ، المهملة منذ ذلك الحين — فسرت فى أجسامهم قشعريرة كأنهم يرونها تمثل من جديد ؛ وتخيلوا الألفى بك ، محافظ مصر ، آتيا منها مرة أخرى ؛ داخلا ذلك القصر الدامى ؛ مخرجا

حكاية الألفى محافظ القاهرة ومقتل عباس

(١) أنظر : "مصر فى عهد سعيد باشا" لمريو ، ص ٣٠ و ٣١

منه الجثة الهامدة، مرتدية ملابس الجسم الحيّ : مجلسا لها فى صدر العربة — كأن عباسا لا يزال العاهل الحاكم ، وكأنه لم يمت — آمرا الحوذيّ، الذى كان يجهل كل شئ، أن يسير الى مصر، داخلا العاصمة، وهو جالس فى تلك العربة على يسار جثة الوالى القائمة — كأن الموت لم ينزل على عرش مصر منذ سويعات ؛ متخذا كل استعداد وحيطة لحرمان محمد سعيد باشا ولىّ العهد الحقيق من ميراثه وإقامة الهامى باشا الغائب فى الأستانة مكان عباس أبيه .

وقص (اسماعيل) على عبد العزيز كيف أن قناصل الدول عارضوا الألفى بك فيما أراد فعله واحتجوا عليه . فلم يتم له ما نوى . واستتب الأمر لمحمد سعيد . فبلغ من رعب ذلك الرجل ، بالرغم من تأكيدات الوالى الجديد الطيب القلب له ، بأنه قد صفح عنه وغفر له زلته، أنه، حالما دوت فى أفق مصر، أوّل طلقة من المدافع المؤذنة بتولية سعيد، وقع مغشيا عليه وفارق الحياة[1] .

وبينما القطار واقف بالمسافرين بنها، لحوا على أحد أرصفتها، القطار القائم الى الزقازيق .

فسأل السلطان (اسماعيل) عن الوجهة التى يقصدها ذلك القطار . فأجابه بايضاح واستطرد الحديث الى التكلم عن السويس وترعتها . واغتنمها فرصة ليبذر بذور أغراضه الخفية فى الأذن السلطانية . حتى اذا ما جاءت الأيام، التى يرى اظهار تلك الأغراض فيها، يكون السلطان مستعدّا لتعضيده فى إنجاحها :

(1) نصر : "مصر الخديوى" لأدون دى ليون ص ٨٧ و ٨٨ ، و "مصر فى عهد اسماعيل" ص ١١ لمباك كون ، و "اماطة اللثام عن أسرار مصر" لأولمب أدوار، ص ١٤٦ وما يليها .

وبعد ما فارقوا بنها وأخذوا يقتربون من مصر؛ وبدأت قمم الأهرام العظيمة تبدو فى البعد كأنها تناطح السحاب ، مجللة بثوب العثير الدقيق الذى تلحفها به الرياح الهابة على الصحراء حولها ، دارت الأحاديث على ماضى مصر المكنون وعلى الأعمال القديرة المعجزة ، التى تمت فيها على أيدى فراعنتها الأماجد . وأحس (اسماعيل) فى تلك اللحظة ، بأن هاجسا قام فى قلبه يحدّثه بأن ملكه معدّ ليعيد مجد العصور الفرعونية التى دالت ؛ ويسرّ له قائلا : "ان التاريخ سيقيمك فى مصاف أكبر أولئك الفراعنة مجدا وفخارا" .

ولما قارب القطار طوخ ، تحوّل الحديث الى القناطر الخيرية التى أنشأها الباشا العظيم على مفرقى النيل : فأجمع الكل على اعتبارها مضارعة ، فى العظمة ، لأعظم ما خلقته إرادة فراعنة القدم ؛ وزائدة ، فى الفائدة ، على كل ما أوجده أولئك القديرون . ولم يكن (مريت) و(بروجن) و(ماسبيرو) قد أماطوا ، بعد ، حجاب السر عن تاريخ الأسرة الثانية عشرة الرفيعة الشأن ، أسرة أزرتسن وأمنمحعت ، بانية اللابرنت ، ومحتفرة خزان ميريس .

وهكذا مرت على المسافرين الساعات ، وهم لا يشعرون بمرورها ، حتى وقف القطار بهم أخيرا بالقرب من قصر النيل .

فنزل السلطان ، واستراح هنيهة ، فى المحل الفخم المعتزله ؛ وكذلك أمراء بيته الكرام ؛ وأقام الجميع هناك إلى أن تجهزت المعدّات التى صدرت الأوامر بها . الوصول الى مصر

فلما سدل المساء سدوله ، سار الموكب السلطانى من قصر النيل الى سراى القلعة عن طريق شارع كوبرى قصر النيل ؛ فباب اللوق ؛ فحسن الأكبر ؛ فغيط العدّة ؛

فباب الخلق ، فتحت الربع ، فالدرب الأحمر — وهذه الشوارع بحاراتها ودروبها وسككها وعطفاتها مزينة بأبهى زينة ، متألقة بأجمل الأنوار ، مكتظة بأناس من مختلف الأمم والملل والنحل ، ممتزجين ، امتزاجا يقرّ العين ، ويشرح الصدر ، هاتفين بالتحية السلطانية — وكان قد تقرّر أن لا يهتف بغيرها ، إجلالا لصاحبها ، على طول الطريق ، ومظهرين من عواطف الولاء والاخلاص والعبودية ما تحار له العقول والألباب ، ناثرين الزهور ، حارقين البخور ، مكبرين ، مهللين ، وقد انتشرت بينهم الجوقات الموسيقية على أبعاد قليلة بعضها من بعض صادحة بالسلام السلطانى ، بينما النساء والأولاد قد انعقدت عناقيدهم فوق السطوح وفى النوافذ وعلى درجات الجوامع والمساجد والزوايا الخارجية وفى نوافذها . والجميع يدعون للسلطان كل بلسانه ، وكيفيته الخاصة وعلى طريقته المعتادة .

نزول السلطان فى سراى القلعة

وكان السلطان شيقا ، وكذلك من معه ، الى رؤية تلك القلعة الشهيرة ، وسرايها التاريخيـة ، لازدحام تذكارات التـاريخ حولها من أيام صـلاح الدين وبيبرس وقلاوون وبرقوق وقايتباى الى أيام سليم خان وبونابرت ومحمد على ، لا سيما ما كان من تلك التذكارات لا يزال حاضرا بالأذهان .

وكانت سراى القلعة قد أعدّت لنزول الضيوف الكرام فيها ، إعدادا شبيها بمـا يروى عن مثله فى كتاب ألف ليلة وليلة ، ممـا لم يكن يستطيع القيام به إلا سلاطين الجنّ .

ولما ارتاح السلطان فى مخادعه ، ومرت أمام عينى مخيلته ، أشخاص العظماء الذين سـبق وجودهم فى تلك الأماكن وجوده فيها ، ثم تناول طعام العشاء ، وكان أنخر ما تتلذذ به الاذواق ، وتستمرئه الألسـنة ، كثيرا وفيرا ، ممدودا على عدّة موائد

للآكلين ، إلا ودوت حوله الآفاق بالمدافع المؤذنة بصلاة العشاء — وكان (اسماعيل) قد أمر أن تضرب عند حلول كل وقت من مواقيت الصلاة، لكى يكون الشعور عاما بأن أيام اقامة الخليفة بمصر لأيام أعياد مباركة — وعلت ضجة المدينة العظيمة، حافلة بالدعوات الصالحات، عاجة بالهتاف: "باديشا همز چوق يشا" .

وما هى إلا لحظة، وتألقت الزينات ، وأشعلت ألعاب النار، وشقت السواريخ كبد السماء، وانتثرت الأهلة والنجوم منها متباينة الألوان فى الفضاء، وبرزت المدينة كلها تسطع فى جميع جهاتها بالأشعة المنبعثة اليها من كل صوب .

فتقدّم السلطان الى حيث استجلت أنظاره أرجاء القاهرة بأسرها ، هذه القاهرة الثملة فرحا بتشريفه أرضها ، فمتع عينيه بذلك المنظر الشائق — وكان الليل قد كساه ثوبا خياليا يلعب باللب ويسكره — وأحس فى صميمه بلذة سماع كل تلك الأصوات، المصعدة الى أذنيه الدعوات التى ترسلها الرعية المخلصة لسلطانها نحو قدمى العرش الإلهى .

ففاض صدره بالحبور المتدفق اليه من كل حدب وصوب؛ وأراد اظهار امتنانه ومحظوظيته (لاسماعيل) . فنزع وسام «المجيدية» المرصع المتدلى على صدره السلطانى ، وعلقه بيده على صدر (اسماعيل) ؛ وقال له : "انى لا أدرى كيف أشكرك على كل ما بذلته لتملأ نفسى سرورا" . فأجابه (اسماعيل) : "انما قدّمت لمولاى ما هو له" . فزاد هذا الجواب فى سروره .

وبعد أن استجلى من موقفه السامى جمال المناظر المبسوطة تحت قدميه ، دخل الى مخادعه ونام نوما هادئا هنيئا .

صلاة الجمعة في مسجد محمد علي بالقلعة

وكان الغد يوم جمعة. فتقرر أن يصلى الخليفة صلاته الجامعة فى مسجد (محمد على) بالقلعة عينها ، وأن يذهب اليه من السراى التى بات فيها راكبا على جواد مطهم فى موكب يكون كل من فيه فارسا .

فلما آذنت ساعة الصلاة ، امتطى عبد العزيز الحصان الذى قدّم له ، واقتدى به أمراء بيته السلطانى وأمراء البيت العلوى والوزراء العثمانيون والمصريون وكبار رجال المابين والمعية ، وكوكبة من الفرسان . وسار جمعهم فى موكبهم الحافل المهيب ، داخل القلعة ، من السراى الى الساحة الفسيحة الأرجاء المنبسطة أمام مسجد (محمد على) حيث كانت جميع الأعالى المحيطة ، المطلة على تلك الساحة ، غاصة بالمتفرّجين ، ودّاوية بدعائهم .

وبعد أن انقضت الصلاة ، توجه السلطان إلى زيارة قبر الباشا العظيم ، الراقد رقدته الأبدية ، فى ذلك الجامع المرمرىّ البناء ، المطل من علاه على القاهرة كلها ، كأنه روح (محمد على) تشرف على جسم القطر الذى أعادت إليه الحياة ، لتتعهده وترعاه .

فوقف إليه ، برهة ، خاشعا . ثم التفت إلى من حوله وقال على مسمع من الملإ : "لقد كان رجلا عظيما . وإن ذكره ليخلّد " .

استقبال وفود المهنئين بالقلعة

ثم عاد إلى سراى القلعة حيث استقبله وفود المهنئين من الأعاظم والعلماء والبطاركة والرؤساء الروحانيين ، والوجهاء والأعيان والتجار . ولكى يظهر لهم بجملة واحدة ، مقدار انشراحه من زيارته للقطر المصرى ، قال لهم : " إنى ضيف اسماعيل وضيفكم " .

فكان لقوله هذا وقع عظيم فى القلوب ، لأنه كان بمثابة إعلان رسمى لاستقلال مصر!

لذلك كانت الزينات، التى أقيمت فى مساء ذلك اليوم، أجمل بكثير من زينات الليلة السابقة . وكان أبدعها شكلا ماأقيم منها أمام قصرى (اسماعيل باشا) وحليم باشا وسراى عابدين . وبلغ من تفنن صانعى الألعاب النارية ومن إعجاب السلطان بها أنه طلب بعضهم من (اسماعيل) ليأخذهم معه إلى القسطنطينية .

مقابلة وفد العلماء للسلطان

ومما يحسن ذكره فى مقابلة السلطان للعلماء، اللطيفة الآتية وهى : أن (اسماعيل) كان يعتقد فى علماء الأزهر الأجلاء عدم خبرة ودراية بواجبات الرسميات فى موقف كهذا — وكان هذا هو الواقع — فحسن لديه أن يختار أربعة منهم فقط ليتشرفوا بالمثول بين يدى الحضرة السلطانية، وهم : السيد مصطفى العروسى شيخ الجامع الأزهر، والشيخ السقاء، والشيخ عليش، والشيخ العدوى من كبار علمائه . وأولهم وثانيهم من دواهى الرجال وأوسعهم صدرا ؛ وثالثهم من المتصوفين ؛ وأما الرابع فكان من الورع والتوكل على الله، بحيث لا تهمه ولا ترهبه العظمات البشرية .

ثم وكل إلى قاضى القضاة التركى أمر تعليمهم آداب المثول بين يدى الخليفة . فأفهمهم فضيلته أن المقابلة ستكون فى قاعة يقف السلطان فى صدرها، على منصة مرتفعة عن الأرض قليلا، بينها و بين باقى القاعة حاجز، مفتوح من وسطه ؛ وأنه ينبغى لهم إذا ما بلغوا الباب ووقعت أعينهم على جلالته أن ينحنوا انحناء عظيما، و يسلموا بكلتا اليدين، حتى تمسا الأرض ؛ ثم يتقدم كل منهم نحو فتحة الحاجز، بخطوات موزونة حتى إذا ما صار أمامها، كرر الانحناء والتسليم، ووقف أو يرد السلطان عليه تحيته . فيعيد ؛ حينئذ الانحناء والتسليم مرة أخرى ، ثم يرجع متقهقرا ووجهه إلى السلطان إلى أن يبلغ باب الدخول ؛ فيكرر الانحناء والتسليم عينهما ؛ ثم ينصرف مثل ما دخل، حتى يتوارى عن نظر السلطان .

فاستغرب العلماء أن تنحصر المقابلة فى تلك الصور من الانحناء والاحترام . ولكن قاضى القضاة أكد لهم أن الأمر لكذلك . فقالوا : "قد فهمنا" .

فلما جاء دورهم فى المقابلات ، دخل الشيخ العروسى أولا ، فالشيخ السقاء بعده ، فالشيخ عليش . وفعل كل منهم ما علمه القاضى أن يفعل .

وكان (اسماعيل) واقفا وراء السلطان بمسافة ، وعينه تراقب كل حركاتهم . فأعجب من إتقانهم الدرس الذى ألقى عليهم إتقانا محكما .

لطيفة للشيخ العدوى

فلما أتى دور الشيخ العدوى ، دخل هـذا الأستاذ الفاضل ، وانحنى عند الباب كزملائه ، ثم أسرع ، بعد ذلك ، نحو السلطان بمشيته الاعتيادية ، ولم يعاود الانحناء ولا التسليم فبدأ قلب (اسماعيل) يخفق — ثم تقدّم بقدم ثابتة حتى وصل إلى الحاجز ، وجاوزه ، وصعد إلى المنصة ، التى كان السلطان واقفا عليها — وقلب (اسماعيل) يجف — ونظر إليه بعين ثابتة وقال : "السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله" . فوثب قلب (اسماعيل) فى صدره . ولولا مهابة السلطان لركل الرجل وأخرجه .

ولكن السلطان ابتسم ابتسامة لطيفة ، وردّ على الشيخ العدوى تحيته وأحسن منها ، وانحنى أمامه انحناء خفيفا .

فخاطبه الشيخ فيما يجب على السلطان نحو رعاياه ، بصفته كبير الحكام ؛ لأن الحكام خلفاء الأنبياء فى الناس ؛ وفيما يجب على أمير المؤمنين ، بصفته خليفة الرسول ، نحو المؤمنين ؛ وهوّل فى المسؤولية الملقاة على عبد العزيز ؛ وأكد له أن ثوابه عنـد الله سيكون بمقدار ثقل المسؤولية ، وحسن نفاذه فيها ؛ كما أن عقابه عند الله تعالى سيكون على قدر إهماله واجباتها .

فامتقع لون (اسماعيل) ، ولعن الساعة التى اختار فيها ذلك الشيخ الأبله ، ومن أشار عليه به ، وأخذ يحسب لغضب السلطان ألف حساب .

ولكنه لم ير على وجه السلطان علامات للغضب مطلقا . بل وجد ملامح عبدالعزيز مرتاحة إلى كلام ذلك الأستاذ، لا سيما أنه لم يفهم منه شيئا لجهله اللغة العربية .

أمّا العدوى فلما فرغ من خطبته ، ختمها بالسلام الذى بدأها به ثم انحنى أمام السلطان، وأقفل خارجا بوجهه لا بظهره كسابقيه . وسبحته بيده فوجد هؤلاء فى انتظاره على الباب يلومونه على فعلته التى كانت على زعمهم «قذى فى العيون» .

فقال لهم : "أما أنا فقد قابلت أمير المؤمنين . وأما أنتم فكأنكم قابلتم صنما ، وكأنكم عبدتم وثنا" .

ثم سأل السلطان عبد العزيز (اسماعيل) : "من الشيخ ؟" فأجابه : "هذا شيخ من أفاضل العلماء ، ولكنه مجذوب . وأستميح جلالتكم عفوا عن سقطته" . فقال السلطان "كلا . بل إنى لم أنشرح لمقابلة أحد انشراحى الى مقابلته" وأمر للشيخ العدوى بخلعة سنية وألف جنيه[1] .

حفلة المحمل

وكان يوم السبت التالى حادى عشر إبريل ، يوم تشييع المحمل المصرى الى الأقطار الحجازية . فتقرّر أن يرأس جلالة السلطان نفسه الحفلة السنوية المعتادة . واتخذت جميع الوسائل لكى تكون ، بسبب وجوده على رأسها ، يتيمة الحفلات التى من نوعها . لأنه لم يسبق لسلطان عثمانى أن ترأس مثلها منذ الفتح السليمى . ولم يكن أحد يتوقع أن تجود الأيام بزيارة سلطانية أخرى فى العصر ذاته .

(١) قص علىّ هذه اللطيفة سبط ولد الشيخ العدوى صديقى ، السيد محمد عاشور الصدفى القاضى بالمحاكم الشرعية ومن أفاضل الأدباء .

فلما كانت الساعة العاشرة ، نزل السلطان من القلعة ، وسار نحو الكشك الذى أقامه محمد على خصيصا لذلك تحت السور الى جنوب باب العزب ، وهو قريب من المكان الذى يروى أن الأمير المملوك أمين بك وثب منه وثبته المشهورة فى حادثة ذبح المماليك .

فلفت بعض الحضور نظر السلطان الى ذلك . فرغب عبد العزيز فى أن تلقى على مسامعه الرواية ، بينما تتم حوله مراسم الاحتفال .

حكاية المملوك الذى نجا من مجزرة أول مارس سنة ١٨١١

وكانت تفاصيل تلك الرواية مختلفا فيها . فما حكى للسلطان منها هو أن أمين بك ، لما قذف بحصانه من فوق السور ، وانكسرت أرجل الجواد حينما مست الأرض ، فسقط ميتا ، وقع هو أيضا عن صهوته وأصيب برضوض أفقدته رشده ، فبصر به بعض البدو ، فأسرعوا اليه واحتزوا ثلاثة أرباع عنقه ، لكى يسرقوا سلاحه ونقوده ؛ غير أنه لم يمت . وتمكن — وحده ، على قول بعضهم ؛ وبمساعدة بعض ذوى الرحمة ، على قول آخرين — من النهوض والاختفاء فى مكان أمين تعالج فيه الى أن شفى واستطاع الالتجاء الى سوريا .

وبعد الفراغ من حفلة المحمل ، توجه السلطان للتنزه فى المدينة . فزار مساجد آل البيت الكرام وغيرها وكان الناس من السوقة والعامة ، كلما مر بجموعهم المحتشدة ، صاحوا : "الفاتحة لمولانا السلطان !" فينظر اليهم كأنه يحييهم . وهو إنما يستغرب لذلك ، ويقارن فى سره بينه وبين خشوع الأستانة وسكوتها ، وإطراق العيون فيها الى الأرض حينما يمر فى شوارعها ذاهبا الى صلاة الجمعة[1] .

(١) أنظر : "الكافى" لشاروبيم بك ج ٤ ص ١٣٨ طبعة بولاق الأميرية سنة ١٩٠٠

ثم عاد من طوافه، فتناول طعام الغداء فى سراى الجزيرة . ولما كان الأصيل، أبدى رغبته فى رؤية أنجال (اسماعيل) . فأرسل (اسماعيل) من أحضرهم من قصرهم بالمنيل فى جزيرة الروضة ، حيث كانوا منقطعين الى علومهم تحت عناية المسيو چاكليه؛ بعيدين عن كل المؤثرات الخارجية، لاسيما مؤثرات الحريم . فأعجب السلطان بهم و بنباهتهم وذكائهم؛ وشجعهم بأقوال حكيمة على الاستمرار فى دروسهم بنشاط وهمة و رغبة صادقة، ليكونوا قرة عين أبيهم الكريم، ونخر مصر، وخير أحفاد للرجلين العظيمين (ابراهيم باشا) و(محمد على) .

ثم عاد الى القلعة . ولما أسدل الغسق ظلاله، بدت مصر، مرة ثالثة، فى حلل زينتها البهية ؛ وأخذت نجوم الألعاب النارية وأهلتها تبارى مرة أخرى نجوم السماء ، وبدورها فى السطوع واللألأة والجمال .

فأظهر عبد العزيز (لاسماعيل) نيته فى الإقامة بمصر عدة أيام ؛ ورجاه الاكتفاء بما عمل من الزينات والألعاب، والامتناع عنها فى الليالى التالية؛ حبا براحة القائمين بها، وراحة السكان معا .

وكان قد أرسل من الإسكندرية باخرة تحمل البريد الى القسطنطينية . فأوفد اليها، أيضا، فى تلك الليلة، المصاحب عبد الكريم أغا، ليبلغ جلالة السلطانة والدته، أنباء صحته الجيدة؛ ويحمل الى بابه العالى، الأوراق الدولية الخاصة بالإدارة اليومية .

ثم كلف رامز أغا، أحد خصيانه، بالذهاب ببطاقة زيارته الى أربعة عشر «حريما» بمصر، ليبلغ «تحياته وتسليماته السلطانية» الى أرامل محمد على باشا وابراهيم باشا، وعباس باشا، ومحمد سعيد باشا وغيرهن .

وفى يوم الأحد ثانى عشر إبريل — وكان عيد الفصح عند الطوائف الشرقية — ذهب لزيارة قصر النزهة، فى طريق شبرا؛ وكان (لاسماعيل) ، وهو الوحيـد الذى تفننت الهندسة المعمارية فى تجميله وتزيينه، على صغر حجمه . فأعجب به أيّما إعجاب، وأمر بعض الرسامين الذين بمعيته أن يأخذوا رسمه — ولكنه لم يمكث فيه طويلا وغادره الى قصر شبرا ذاتها — وكان لحليم باشا، الذى أراد السلطان أن ينزل فى ذلك اليوم ضيفا عليه .

زيارة السلطان لشبرا

فاســتقبله حليم باشا فى تلك الروضة الغناء، التى أنشأها لوالده ، أبدع الخيالات الشعرية . وكانت مزدهية بالزهور والرياحين ، المغروســة على أبدع نظام وأجمل تنسيق ؛ حافلة بالطيور المغـرّدة المختلفة الأجناس والأنواع والأشكال — وكانت الزهور والطيور أحب المخلوقات الى قلب عبد العزيز، وأعز ما ترتاح اليه نفسه بعد ربات الخدور .

فقضى بقية نهاره ، وبعض مسائه فى تلك الجنة الأرضية ، متجوّلا بين رياحينها وأزاهرها طورا ، وطورا جالسا أمام بحيرتها ، المحيطة بها ، المظلة الرخامية البـديعة الصنع ، العديمة المثيل فى العالم بأسيره . أو جالسا فى القاعة العظمى الكائنة فى الزاوية على يمين الداخل ، والتى قلما بذلت فى تشييد سواها الأموال التى بذلت فى تشييدها ؛ وقلما آزدهت غيرها ، بالصنعة الدقيقة المواد الثمينة التى آزدهت ، هى ، بها : كأنّ (محمد على) أراد أن يجعلها قصرا من قصور الجنان ، بجانب تلك المظال الرخامية ، المتتابعة صفوفها على شكل دائرة بيضاوية حول تلك البحيرة المعدّة لسباحة جواريه فيهـا . وقد أقيم فى وسطها بناء مرمرى على شاكلة باقة أزهار ، تجلت الدقة كلها فى صنعه وتكوينه . وأعدّ لجلوسـه ، هو ، على أريكة حريرية فيـه لكى يتسنى له

فى شيخوخته — والمياه تجرى من تحته، والجوارى يسبحن حوله، ويتداعبن أمامه، والروائح العطرية تتأرج من الأزاهير النابتـة فى كل مكان، وداخل كل مظلة من هاتيك المظال، والمتدلية الى حافة البحيرة بشكل من أبدع الأشكال — أن يتخيـل أنه انتقل الى جنة الفردوس التى أعدّها ربه للصالحين والمحسنين من عباده، وأن يتمتع، وهو حىّ فى هذه الدار، ببعض لذات لذائذ الدار الأخرى التى بات منها على أدنى من قاب قوسين (١) .

أسفا على تلك !

آهٍ لتلك الروضة الفيحاء الغناء! كيف عبثت بهـا أيدى الإهمال . وكيف جرّدها من محاسنها الفريدة تغيب أيدى الصيانة عنها !

وأسفا على ذلك !

وآه ثم آه! لذلك الايوان البديع الأكبر المكوّن من مجموع هاتيك المظال الصغيرة الكلية الجمال، المزرية الواحدة منها بجمـال ايوان كسرى المشهور ! كيف تناولتها أيدى الدمار : فأتلفت رخامها البـديع، وذهبت ببهجة صنعها المدهش، وباتت تهدّدها بخراب عاجل !

وقضى عبد العزيز وقته فيها يتحادث مع حليم باشا وفؤاد باشا عن زراعة البساتين والزراعة على العموم، ثم عن القناطر الخـيرية — وكان الأمير مراد افندى، ولىّ العهـد، قد ذهب فى ذلك اليوم عينه لزيارتها فى مركب بخارية والتفرج عليها . وأرسلت هناك أورطتان مصريتان للقيام بفروض استقباله . ولكنه لم يفارق المركب،

(١) أنظر : ''مصر مرحلة مرحلة'' لروونيه ص ١٦٥، وانظر : ''مصر الخديوى'' لأدون دى ليون ص ٧٥

وتفقده، وهو فيها ، القناطر : الأمر الذى لم يتح له ضباط تينك الأورطتين والذى لم يمكنهم من التفرّج على القلعة السعيدية — وهى حصن أنفق محمد سعيد باشا على إقامته عند نقطة انقسام فرعى النيل ، مبلغا طائلا من المــال، بدون جدوى ، كان الأجدر به إنفاقه على إتمــام عمل القناطر الخيرية الضخم ، الجليل ، الذى أقبل عليه أبوه ، الباشا العظيم ، بضع سنوات فقط قبل أن يوافيه الأجل المحتوم .

ولمــا توغل المساء فى الليل ، عاد السلطان الى القلعة فلم يفارقه الانشراح من شبرا وبستانها وايوانها !

زيارة للتحف المصرى يوم "شم النسيم"

وفى يوم الاثنين ثالث عشر إبريل — ووافق وقوع عيــد شم النسيم ، احتفلت القاهرة به احتفالها المعهود ولكن زاده بهجة وجود السلطان — قصد عبد العزيز المتحف المصرى — وكان مديره حينذاك مرييت بك ، الاجيبتولوچى الشهير — فتفقد جميع غرفه ومحتوياته ، واستفسر عن كل ما رآه فيــه ، وارتاح الى البيانات التى استطاع مرييت أن يبديها له .

ثم ذهب من هناك لزيارة معامل القطن والحرير ببولاق — وكانت أعمالها ناجحة تبشر بفلاح باهر فى المستقبل ، لم يحقق ، وا أسفاه المستقبل شيئا منه — فسرّه ما رآه فيهــا من حسن الترتيب والنظام وانشرح صدره لعلامات النجابة والذكاء ، البادية على وجوه الشبان المشتغلين فيها .

ولمــا كانت المحادثة بالأمس عن القناطر الخيرية قد شوّقته الى رؤيتها ، ركب زورقا بخاريا من زوارق (اسماعيل باشا) ، أعدّ خصيصا لذلك الغرض ، وتوجه فيه من بولاق اليها . فتفقدها بعناية ، وأعجب بها إعجابا عظيما : وأكبر من إقدام

وهمة الباشا العظيم الذى باشر انشاءها بالرغم من طعنه فى الشيخوخة . وحكم بأنها لمن أجل أعمال الدنيا فائدة ، وأن محمد على قد استحق ببنائها شكر الأرض المصرية الى الأبد .

ثم عاد الى قصر النيل وتناول طعام الغداء فيه .

زيارة للأهرام

وفى يوم الثلاثاء ، رابع عشر إبريل ، ذهب الى زيارة الأهرام ، ومعه أمراء البيت العثمانى ، وأمراء البيت العلوى ، وجمهور كبار رجال البلاطين .

وبعد أن عبروا النيل الى شاطئه الغربى ، عند الجيزة ، ركب السلطان عربة مفتوحة تجرّها أربعة جياد ، وركب وراءه (اسماعيل باشا) و (فؤاد باشا) فى عربة أخرى يجرّها جوادان فقط ، وامتطى الباقون خيولا .

ولما تكن الطريق الى الأهرام قد مهدت بعد . فكثيرا ما كانت تجتاز حقولا مزروعة أو تمر فى أرض تربة ، ترفع حوافر الخيول الواقعة عليها ، سحابات عثير كثيف منها تملأ بها الفضاء .

وكانت عربة السلطان سائرة فى طليعة الموكب اتقاء للغبار ، وخيولها القوية العفيّة تتخطى بها المنحدرات الى المرتفعات . ولأنها كانت أربعة صافنات ، تمكنت من الاستمرار مقلة راكبها الكريم ، حتى مدخل الصيوان الذى أعدّ له فى ظل الهرم الأكبر ، وعند قاعدته .

وأما عربة (اسماعيل باشا) وفؤاد باشا ، فان الجوادين فيها أجهدا تعبا ، أدّى بهما الى التوقف عن المسير ، بالرغم من كل حث وتحريض . فاضطر الراكبان الكريمان أن ينزلا منها ويمتطيا جوادين آخرين .

وهكذا سار الموكب ، والعثير وراءه يتناول عنان السماء ، حتى بلغ الأهرام ، حيث كانت موائد الطعام قد مدّت فى الصواوين المعدّة لذلك كأنها فى أكبر القصور اشتمالا على معدّاتها .

فاستراح القوم ثم أكلوا . وبعد ذلك أقبل عبد العزيز يسرّح الطرف ويستفهم متخطيا من جوار هرم خوفو ، الى الرابية البارز من قمتها أبو الهول ، والمعبد المصرى القديم الذى بجواره ، ومقبرته . وامتطى جوادا الى هرم منقورا الذى كان لا يزال معظم جزئه الأعلى مكسوّا بطلائه العجيب ، فالى هرم نيتوكريس الأحمر الجميل !

ألا ليت شعرى ! من ينبئنى بما جال فى مخيلة سلالة سلاطين آل عثمان ، وهم يتجوّلون حول آثار الفراعنة الخالدة ، الدالة على عظمتهم الزائلة ، والقائمة على مدخل الصحراء الشاسعة ، معالم ماض كان قصيا ، وقتما خط التاريخ أوّل صفحاته ! من ينبئنى بما قالت لهم ، لا سيما لعبد الحميد ، عينا أبى الهول السّريتان الشاخصتان بصفاء أبدىّ أمامهما ، كأنهما تريدان أن تحجبا مكنونات الأيام وراءه ، وتشعران الحاضر ، مهما كان نخما عظيما ، بضآلته ، تجاه مجموعة المفاخر البشرية ، التى حركتها القرون بالتتابع (من خوفو الى أوزورتسن ، وآمنحهت ؛ ومن أحمس الى توطمس وآمن هوتبْ ؛ ومن راع مسيس الى نيخاؤ وبتامتك ؛ ومن كمبيز الى اسكندر الأعظم والبطالسة الأماجد ؛ ومن قيصر الأكبر الى هدريان وديوكليسيان ؛ ومن عمرو بن العاص الى أحمد بن طولون والمعز لدين الله ؛ ومن صلاح الدين الى بيبرس وقلاوون وبرقوق وبرسباى وقايتباى ؛ ومن سليم الرهيب الى بونابرت العجيب) كسينماتوغراف أمام تينك العينين ، ثم وارتها فى طيات الدهور ! ! !

ولما مالت الشمس الى الغروب عاد الموكب السلطاني الى الجيزة وتناول الجميع طعام العشاء في سرايها البديعة — ولم يكن (اسماعيل) قد أجرى فيها التحسينات التي صيرتها فيما بعد لؤلؤة قصوره ، ودرة منتزهاته الخصوصية . ثم رجع السلطان الى القلعة وما استقر فيها برهة إلا وحانت صلاة العشاء . فقام ينادى بها ، بعد اطلاق المدافع ، خمسة عشر مؤذنا اختيروا اختيارا دقيقا لجمال أصواتهم وأخذوا يتبارون في التلحين والإنشاد مباراة حملت كل من سمعهم على الظن بأنهم بلابل الفضاء برزت من خلواتها تشجى بأنغامها المطربة ، في ذلك المساء المجلوة سماؤه ، ضيوف مصر وواليها .

وكان الغد يوم الأربعاء ، خامس عشر أبريل ، فجعل يوم راحة عامة وخصص لتجهيز معدّات السفر الى الاسكندرية .

العود إلى الاسكندرية

فلما بزغت شمس يوم الخميس ، سادس عشر أبريل ، ازدحمت شوارع العاصمة وساحاتها وظهور منازلها ودرجات سلالم جوامعها ، بجماهير الناس على اختلاف مللهم ونحلهم وأجناسهم ، انتظارا لمرور السلطان وموكبه العظيم — وحالما وافت الساعة التاسعة صباحا ، أخذت المدافع ترمى طلقاتها بين كل دقيقة وأخرى إيذانا بالرحيل ، لغاية الساعة العاشرة . حتى اذا دقت هذه ، نزل السلطان من القلعة بموكب فخم ، مهيب ؛ فمرّ على تلك الجماهير محييا مسلما . وأمر بأن توزع مبالغ طائلة من المال على فقراء العاصمة وخدمة مساجدها .

فانطلقت ألسن تلك الجماهير بالدعاء لجلالته ؛ وذرفت عيون كثيرة دموعا سخينة في توديعه . وما زالت أصوات الدعاء ترتفع من كل فم ، الى أن بلغ الموكب القطار المعدّ له ، فأقله . فشخصت اليه الأبصار ، وشيعته القلوب حتى توارى .

وكان السلطان قد أبدى عزمه على زيارة المقام الأحمدى بطنطا . فأقيم له صيوان فخم بجوار محطتها . ولكنه رجع عن عزمه فى آخر لحظة ، واكتفى بايقاف القطار قليلا قبالة ذلك الصيوان ، لكى تتمكن الجماهير الغفيرة ، المزدحمة هناك ، من استجلاء منظر وجهه البهىّ ، والقيام بفروض الدعاء له .

ثم سار الى الاسكندرية ونزل فى سلاملك رأس التين الذى كان قد أقام فيه .

وفى اليوم التالى ، وكان يوم الجمعة سابع عشر أبريل ، صلى السلطان الصلاة الجامعة ، بأبهة وجلال عظيمين ، خارجا اليها وراجعا منها ، ممتطيا فرسا ضليعا أصيلا ، فى موكب تحف به فخامة وعظمة ، يزيد فى كمال مظهرهما ما فى لباس عبد العزيز من البساطة . وكان عبارة عن كسوة إفرنجية تزين صدرها أنسجة حمراء فقط ؛ وليس على طربوشه أية علامة تميزه عن غيره ؛ بينما ملابس أمراء بيته ووزرائه وكبار رجال حاشيته موشاة بالمذهبات الساطعة ؛ محلاة بالنياشين اللامعة .

وبعد الفراغ من صلاة الجمعة ، والإحسان بجانب عظيم من النقود على فقراء الاسكندرية ، وخدمة مساجدها ، عاد عبد العزيز الى سراى رأس التين ، وتناول طعام الغداء . ثم استراح قليلا ، ريثما انتصفت الساعة الثالثة بعد الظهر .

القيام الى الأستانة

حينذاك نزل هو وأمراء بيته وكبار دولته ورجال ما بينه ، يرافقهم (اسماعيل باشا) وأمراء بيته وكبار دولته ، فى الزوارق المعدّة لهم . فذهبت بهم الى اليخت السلطانى "فيض جهاد" وسفن الأسطول المرافقة له ، بينما كانت الطوابى والبواخر الراسية فى البوغاز (ومن ضمنها المركب الايطالية المسماة ڤيكتور عمانويل ، المرسلة من قبل ملك ايطاليا الملقب بالملك الحلو الشمائل ، لتشترك فى تعظيم الخاقان العثمانى) وقلاع

الساحل لغاية المكس والعجمى من جهة ؛ ولغاية سيدى بشر وأبى قير من الجهة الأخرى ، تطلق مدافعها تحية وإجلالا ؛ وبينما الجماهير يكتظ بها الشاطئ وهى هاتفة مهللة ! فصعد السلطان الى يخته يصحبه (اسماعيل) وصعد باقى الأمراء الى سفنهم ؛ وأخذت المراكب تستعدّ للرحيل .

فتقدّم (اسماعيل) الى توديع عبد العزيز . فقال له السلطان : "إنى أعيد لك تشكراتى القلبية على ضيافتك البهية لى ولال بيتى ؛ وأؤكد لك أنى لن أنسى زيارتى لهذه الديار ماحييت ؛ وأؤمل أن الشعب المصرى ، بفضل عنايتك واهتمامك وغيرتك على مصالحه ، سيزداد رخاء وسعادة . وإنى فى كل سانحة سأشمله بتعطفاتى هو وأميره الجدير بها" .

فانحنى (اسماعيل) وشكر وأثنى . ثم أذن له السلطان بالانصراف . فنزل الى زورقه ، وأخذت السفن العثمانية تبتعد رويدا رويدا عن الأرض المصرية ، والأرض المصرية ترتج ارتجاجا فى توديعها ، حتى توارت عن الأبصار !

هكذا انقضت الزيارة السلطانيـة للقطر المصرى ! وهكذا مرت أيامها العشرة البهية ! ولم يبق أثر منها فى البلاد ، بعد ذكراها ، سوى اسم (عبد العزيز) الذى أطلق على أحد شوارع العاصمة ، إحياء لتلك الذكرى ؛ وسوى النياشين ؛ والألقاب والرتب التى فاضت بها التعطفات السلطانية على كبار الموظفين المصريين !

هواجس وعبر

أسفا ! هل كان يدور فى خلد الأمراء ، عاشى تلك الأيام وأعيادها ، أن الأقدار ستنسج ، لكل منهم ، خيوط مأساة سوداء : فلا تمضى أربع عشرة سنة إلا ويتدهور عبد العزيز عن عرشه الرفيع الى سجن ضيق ، لا تلبث أيدى الاثم ،

أياما ، إلا وتسلبه الحياة فيـه ، بقص شرايين ذراعيه واستصفاء دمه — ولا يرفع مراد على الأكف سلطانا ، إلا ازيج به فى حبس انفرادى ، يوافيه الموت الخفى فيه بعد ثلاثين سنة ، وليس بين الرفع والسقوط إلا ما يوشك أن يكون طرفة عين ! — ثم لا تمضى ست عشرة سنة وبضعة أشهر إلا و يصدر أمر عبد الحميد بخلع الخديو الأول (اسماعيل) عن عرش مصر السنى ، فيخرجه الى منفى ، مر مذاقه ؛ وحياة معكرة أيامها ، بعد الاقامة على أوج العز الأقعس ، و فى نعيم الحكم المطلق ، والرخاء غير المحدود ! — ولا تمضى خمس وأربعون سنة إلا وتثل ثورة عسكرية عرش عبد الحميد عينه وتخرجه بدوره ليذوق حرقة السجن ومرارة المنفى ، وألم التسيير ، قسرا ، من حبس الى حبس ؛ ومن اعتقال سرى الى اعتقال سرى ؛ و يموت ، أخيرا ، موت صعلوك ، لا يكاد أحد يلتفت اليه ، كأنه لم يكن السلطان الرهيب ، الذى لبثت ترتعد الفرائص ، ثلاثة وثلاثين عاما ، لدى ذكر اسمه ! — ولا تمضى إحدى وخمسون سنة إلا و يرى رشاد نفســه — وقد كان سجنه أخوه عبد الحميد ثلاثا وثلاثين ســنة ، بعيــدا عن كل مظاهر العالم ، لا يدرى ما فيه ، حتى اذا جاءت الثورة العسكرية ، وجدته شيخا هرما ؛ فأخرجته من حبسه وهو لا يكاد يصدق ؛ وأجلسته على عرش أجداده ، وهو كأنه فى منام ، أميرا للؤمنين — مدخلا رغم أنفه فى الحرب العالمية العظمى بعد أن داهمته ، مرغما أيضا ، الحرب الطرابلسية وحرب البلقان : فيرى أنه لم يرتق عرش أجداده إلا وقد جرد هذا العرش من كل ديباج وخز ؛ وأصبح سريرا خشبيا ، كله شظايا تجرح الجسم : وأشواك هموم واخزة تحيط بالجالس عليه ، بدلا من أزهار اللذات السالفة ! — ولا تمضى اثنتان وخمسون سنة إلا وتقتل يد أثيمة ، صبرا وغدرا ، يوسف عز الدين ، ذلك الذى كان فى تلك الأيام شابا فى مقتبل ربيع

حياته ، وكانت الدنيا تبتسم له ابتساماتها كلها فى ظل سلطة أبيه العليا ومقامه الأرفع ! ؟ . . .

ألا أفٍّ للدنيا ! ما أكذب مظاهرها ! وما أقصر حياة سرورها ولذاتها ! !

على أن (اسماعيل) لم يدع فرصة تلك الزيارة السلطانية تمرّ ، دون أن يحاول الانتفاع منها لتقديم أمنياته فى سبيل تحقيقها :

فاستهواء لنفس عبد العزيز وحملا لها على مساعدته فى المستقبل ، كل المساعدة الممكن توقعها ، لم يكتف بما بذله له بسخاء فائق ، من مسببات الارتياح والسرور ، و بأخذه على نفقات جيبه الخاص ، كل المصاريف التى عنّ لضيوفه صرفها ، وهم فى ضيافته ؛ بل بالغ فى تقديم الهدايا والتحف الفاخرة وتنويعها ، حتى ملأ بها سفينة برمتها ، لعبد العزيز عينه ، ولأمراء بيته السلطانى ، وكبار رجال دولته . وزوّد فؤاد باشا ، الصدر الأعظم ، وقت فراقه ، بمبلغ ستين ألف جنيه ليجعله عونا له ، وطوع بنانه .

فسافر السلطان من مصر ، وهو فى حال نفسية تجعله مستعدّا لقبول أىّ طلب يقدّمه (اسماعيل) إليه ، إذا كان مشفوعا بما يجعل الطلبات كلها مقبولة فى الأستانة . ومثل (اسماعيل) لم يكن ليجهل الوسيلة .

فما أقلع الأسطول العثمانى من ثغر الاسكندرية ، وعاد الوالى إلى عاصمة دياره ، إلا وأقبل بكل مافى وسعه على تحقيق الخطة التى رسمها لنفسه .

الجزء الثالث

رابعـــة النهـار

العمل على تحقيق الخطة المرسومة

الباب الأول[1]

تحقيق الشطر الأول منها

إجمال

فليدخل مصر بصراحة فى مضمار المدنية الحديثة ، ويسير بها ، بعزم ثابت وقدم راسخة ، فى طريقها ، وفى جميع تشعبات هذا الطريق ، أوجد فى أعمال القطر ، على اختلاف أنواعها ، روحا جديدة ، أصلحت إدارته ، وكيفتها تكييفا ، من شأنه ضمانة دوام تطور البلاد الاجتماعى — ووسعت نطاق الزراعة بتوسيع نطاق الرى ، وتنظيمه ، وتكثير طرق المواصلات ، وترتيبها وتوزيع الضرائب توزيعا عادلا — وفتحت أبواب

(١) أهم مصادر هذا الباب هى : "مصر كما هى" لماك كون ، و"مصر فى عهد اسماعيل" للمؤلف عينه ، و"مصر فى سنة ١٨٤٥" لشلشر ، و"بيان أهم الأشغال التى تمت فى القطر المصرى منذ الأيام القديمة لغاية يومنا هذا" للينان دى بلفون ، و"مصر فى حكم اسماعيل" لمريو ، و"مصر تحت حكم محمد على" للبرنس بكلر مسكاو ، و"مصر تحت حكم محمد على" لهامون ، و"مصر تحت حكم محمد على" لكلوت بك ، و"مصر تحت حكم محمد على" لمانجين ، و"تاريخ محمد على" لموريه ، و"اسماعيل باشا" لراقيس ، و"مصر مرحلة مرحلة" لرونيه ، و"رسائل من مصر" لليدى جوردن كرف ، و"حياة البلاط" لبتلر ، و"رسائل محررة من مصر" لسنت هيلير ، و"مصر" لمالورتى الخ الخ .

التجارة والصناعة والعمل واسعة، أمام مجهودات الجميع : فأحيت، بذلك كله، مالية البلاد ؛ وضاعفت إيراداتها وصادراتها — وأنعشت التعليم بعد مواته ؛ وعممته ؛ ونوّعته ؛ ورقته ، حتى جعلته كفيلا بأن يكون التطوّر الاجتماعى المستمرّ ، متجهًا على الدوام ، نحو الحسن والمفيد، بالرغم من كل عقبة تعترضه وعثرة تعتور سبيله — وأدخلت ، فى نهاية الأمر، على الحياة الاجتماعية المصرية، تغييرات أساسية، جعلت بقاءها على جمودها القديم أمرا فى منتهى التعذر، وأوجبت تحركها من عقالاتها القرنية نحو بيئات جديدة وعقلية حديثة .

و بما أن هذا الاجمال قد يقع لدى جاهلى تاريخ (اسماعيل) ولدى المتحاملين عليه تحاملا مبنيا على مجرّد ماسمعوا عنه من أفواه قادحيه ، موقع الاستنكار ، إن لم نقل موقع السخرية، فانا لانرى بدّا من تفصيل ما أجملنا تفصيلا تاما، إظهارا للحقائق.

الفصـــل الاوّل (١)

إصلاح الادارة

"مصر بلد، إذا حسنت الإدارة فيه، أكل العامر الصحراء،
و إذا ساءت الإدارة فيه، أكلت الصحراء الأرض العامرة!".
« نابوليون الأوّل »

تقسيمات مصر الادارية سابقا

كانت مصر، فى مدّة المماليك الأخيرة، تنقسم إلى خمسة عشر إقليما : تسعة منها فى الوجه البحرى وهى : البحيرة، ورشـيد، والغربيـة، ومنوف، ودميـاط، والمنصورة، والشرقيـة، وقليوب، والجيزة، وثلاثة فى مصر الوسـطى وهى : إطفيح، والفيوم، و بنى سو يف، وثلاثة فى مصر العليا وهى : أسيوط، وجرجا، وقوص (طيبة) .

وكان على رأس كل اقليم أمير مملوك يقال له الكاشف . ومرجع الكل إلى الأمير المملوك المدعو "شـيخ البلد" المقيم فى القاهرة . والذى كان حاكم القطر الحقيقى، بالرغم من وجود وال عثمانى بالقلعة، يرسـل من لدن القسطنطينية كلما عنّ لرجال الحكم هناك أن يعزلوا سـلفه، أوكلما أرسل "شيخ البلد" اليه رسوله، المعروف عند أهل مصر بلقب "أبى طبق" لينذره بعزله بأن يقول له : "آنزل يا باشا" .

(١) أهم مصادر هذا الفصل هى : "مصر كما هى" لمـاك كون، و"لمحة عامة على مصر" لكلوت بك، و "مصر فى عهد سعيد باشـا" لمريو، و"مصر فى عهد اسماعيل" لمـاك كون، و" تاريخ مصر الحديث" لجورجى زيدان، و" مصر منـذ الفتح العربى لغاية الحملة الفرنساوية" لمرسيل، و"وصف مصر" لعلماء الحملة الفرنساوية .

وقد حافظ بونابرت على هذا التقسيم .

فلما استتب الأمر لمحمد على عدّله . وروى كلوت بك أن القطر المصرى كان فى سنة ١٨٤٠ منقسما إلى سبع مديريات فقط؛ منها أربع فى الوجه البحرى وهى : البحيرة، والمنوفية، والدقهلية، والشرقية، علاوة على محافظتى الاسكندرية ومصر؛ وواحدة فى مصر الوسطى وهى : بنى سويف والفيوم معا؛ واثنتان فى الصعيد وهما : المنيا، وإسنا .

وقسم (محمد على) كل مديرية إلى عدّة مراكز . وكل مركز إلى عدّة أقسام . وكل قسم إلى عدّة نواحٍ . فبلغ عدد المراكز فى تلك السنة أربعة وستين . وعدد الأقسام ثلاثمائة ونيفا . وعدد النواحى ثلاثة آلاف وخمسمائة .

وأغرب ما فى التقسيم، الذى قال عنه كلوت بك أن الجيزة كانت جزءا من البحيرة؛ والغربية جزءا من المنوفية؛ وأن العريش كان تابعا للدقهلية؛ والقليوبية تابعة لمصر .

و(محمد على) أوّل من سمى رئيس المديرية "مديرا"، ورئيس المركز "مأمورا" ورئيس القسم "ناظرا" . وأما رئيس الناحية فما فتئ اسمه "شيخ بلد" منذ القدم .

وأوجد فى كل ناحية، بجانب شيخها، مستخدما سماه "الخولى" وظيفته مراقبة الزراعة ومسح الطين؛ وآخر يقال له "صرّاف" لجمع الأموال وتوريدها للمأمور؛ وثالثا يقال له "الشاهد" وهو المأذون من قبل القاضى للحكم فى قضايا الأحوال الشخصية، وتحرير عقود الزوجية وغيرها .

وكان مرجع شيخ البلد إلى الناظر؛ ومرجع الناظر إلى المأمور؛ ومرجع المأمور إلى المدير؛ ومرجع المدير إلى ديوان الداخلية . على أن كل مأمور كان مكلفا ككل

مدير برفع تقرير أسبوعي عن أعمـاله و إجراءاته إلى ذلك الديوان عينه ليقف هـذا على ماجريات الأمور .

أما المديرون فكانوا كلهم أتراكا أو مماليك من مماليك الباشا العظيم . وأما المأمورون فقد اجتهد (محمد على) فى جعل معظمهم من أبناء مصر دون أن يبالى بكونهم مسلمين أو أقباطا . وكذلك نظار الأقسام .

لكن التجربة لم تفلح، لسببين :

(الأول) هو أن المصريين ، فى تلك الأيام ، بالنسبة لوجود معايب الشعوب المستعبدة زمنا طويلا ، ونقائصها فيهم، لم تكن لهم ذاتية ، ولم يكونوا أكفاء للإمرة ، فكان المقلد منهم سلطة يستبدّ بمن كانوا اخوانه بالأمس استبدادا فاحشا ، مع خنوعه أمام رؤسائه خنوعا شائنا .

و(الثـانى) هو أن هيبـة الأتراك ، بالرغم من أن الجيش المصرى كسر أولئك العتاة الذين آستعبدوا المصريين أجيـالا وقرونا ، كانت لا تزال متأصلة فى نفوسهم تأصلا عظيما : فكان مأمور المركز، أو ناظر القسم المصرى يقف محتشما أمام قوّاصه التركى ذاته احتشاما فائقا ، فمـا بالك فى حضرة ملتزم من الملتزمين الأتراك ، أو حضرة ذى حيثية من رجال ذلك العنصر القاهر ؟

وكان (محمد على) عينه ، بالرغم من كل مجهوداته لرفع درجة العنصر الفلاح المصرى الى مستوى درجة العنصر التركى ، لايستطيع — لأن تربيته الأصلية تركية وشعوره تركى محض — أن يحمل نفسه على تقدير فلاحى مصر أكثر من الأتراك . والركون اليهم فى المهمات أكثر من ركونه الى أبناء جنسه . ولا أدل على استمرار الشـعور

التركى حيا فيه حياة قوية ، بالرغم من تعشقه مصر وامتلاء قلبه بحبها ، وبالرغم من اشتباكه مع تركيا فى حرب كان يلعب فيها بعرشه ، بل بذات حياته وحياة أولاده ، من الجواب الذى أجاب به ذات يوم وجيها من الغربيين أقبل يهنئه بالانتصارات التى أحرزها جيشه المصرى على الجيوش التركية ، ويكيل الثناء جزافا لأبناء مصر البواسل ، المقاتلين بفوز مستمر ، فوق ربوع الشام وبطاح الأناضول . فان (محمد على) قطع عليه كلامه قائلا : "لا تنس ، يا صديقى . أن الذين يفوزون فى المعارك انما هم الضباط لا الجنود . وأن ضباط الجيش المصرى كلهم أتراك"(١).

وأما مشايخ البلاد فكانوا من الفلاحين ، طبعا . وكذلك الخوليون . والصيارفة — وهؤلاء كانوا كلهم أقباطا — والشهاد .

وكان الكل مأجورين ، تتناسب مرتباتهم مع أهمية وظائفهم . ويرتدون ملابس عليها شارات تلك الوظائف . فشيوخ البلاد كانوا يتقلدون وساما من فضة . ونظار الأقسام وساما ذهبيا . والمأمورون وساما من ماس . وأما المديرون فكانوا بكوات أو باشاوات من أصحاب الرتب العسكرية السامية يتقلد كل منهم كسوة رتبته .

وجعل (محمد على) ، على رأس الادارة ، عدة دواوين للنظر فى شؤونها المختلفة ، كديوان الداخلية وديوان الحربيـة ، وديوان البحرية ، وديوان الخارجية ، وديوان

(١) بخلاف شعور ابراهيم ابنـه . فانه مع تمادى الأيام ، بات مصريا أكثر منه تركيا . ولا أدل على ذلك مما قاله ، مرة ، للبرنس البروسيانى پكلرمسكاو ، وهو يصف حصار عكا له ، وهو : "ليس فى العـالم جنود يفوقون أجنادى فى حماستهم وشجاعتهم فى القتال ، مهما فاقوهم فى النظام ومعرفة فنون الحرب والطعان . ولئن بدا من بعضهم ، أحيانا ، تردد أو جبن . فانما بدا ذلك من جانب الضباط الأتراك . ولست أذكر أن شيئا من ذلك بدا من أولاد العرب" . أنظر پكلرمسكاو : "سياحات وحوادث بمصر" ص ٣٣٢ ج ١

التجارة، وديوان المعارف العمومية، وديوان الزراعة، وديوان الصحة، وهلمّ جرّا . وجعل فوقها كلها المجلس الخاص ، الذى كان هو نفسه يرأســه ، تعرض عليه كل الأمور، صغيرها وكبيرها ، ليطلع عليها ويبدى رأيه فيها . وكان يدعى "ديوان المعونة" للدلالة على ماهيته .

وكان، اذا أراد الإقدام على أعمال كبرى فى الزراعة ، أو على أشغال ذات منفعة عمومية هامّة ، يجمع المديرين فى أحد تلك الدواوين و يعرض المشروع عليهم و يأخذ رأيهم فيــه . فاذا وافقت أغلبيتهم عليه نفذه ؛ و إلا انتدب مخصصين يعيدون بحثه ، و يستصفون خلاصته .

فلما آلت الأحكام الى عباس باشا ، أغمض عينيه عن سير الادارة فى الطريق الذى اختطه (محمد على) لها ؛ ورأى ، مع تجرده عن الرغبة فى فحص الأمور بنفسه ، أن يحل هواه محل نظر الدواوين : ففتح أمام الجاسوسية مجالا تطرّق منه الخلل الى العمل ؛ وأدى ، بعد زمن قليل ، الى تعطيله ، واستتباب استبداد الحكام ، لا سيما كبارهم ، بالرعية استبدادا فاحشا .

فهال الأمر محمد سعيد باشا ، بعد توليته بقليل ؛ وكبر عليه شقاء الأهلين ! ولكنه لم ير إصلاحا يقدم عليه ، خيرا من إلغاء وظائف المديرين — لأنهم كانوا ، فى نظره ، جرثومة ذلك الاستبداد وقرومته — وجعل ديوان الداخلية يشرف رأسا على أعمال المأمورين ونظار الأقسام : فزاد الطين بذلك بلة . وأضرّ ، بالرغم من حسن نياته ، من حيث أراد أن يفيد .

الاصلاحات التى أدخلها اسماعيل على الادارة

فلما استلم (اسماعيل) زمام الأمور ، وتجلى أمام ذكائه الاختلال الشائن الذى أوجدته فى نظام الادارة روح عباس الظنانة شرا و روح سعيد المتطلبة خيرا من غير

تبصر، رأى أنه لا بد له من اصلاح عام يدخله على ذلك النظام سريعا، ليكون قاعدة لكل اصلاح تال .

فقسم القطر الى ثلاثة أقسام كبرى : البحرى، والمتوسط، والصعيد . وقسم هذه الأقسام الثلاثة الى أربع عشرة مديرية وثمان محافظات (١) .

فمن المديريات سبع فى الوجه البحرى وهى : الجيزة، والبحيرة، والقليوبية، والشرقية، والمنوفية، والغربية، والدقهلية . وثلاث فى الاقليم المتوسط وهى : بنى سويف، والفيوم، والمنيا . وخمس فى الصعيد وهى : أسيوط، وجرجا، وقنا، والقصير، وإسنا .

أما المحافظات الثمان فهى : العاصمة، والاسكندرية، ودمياط، ورشيد، والعريش، وبورسعيد، والسويس، وسواكن .

وحافظ على تقسيم المديريات الى مراكز، والمراكز الى أقسام، والأقسام الى نواحٍ . وقسم محافظتى العاصمة والاسكندرية الى أقسام، جعل كل قسم منها يضاهى مركزا فى المديريات . وأنشأ وظائف مفتشين ورؤساء مفتشين للأقاليم، كان، فيما بعد، أعظمهم شهرة وأكبرهم شأنا اسماعيل باشا الذى عرف "بالصغير" و"المفتش"، وسلطان باشا، وعمر باشا لطفى .

وعهد برياسة النواحى الى عمد بدلا منها الى مشايخ . وجعل هؤلاء مساعدين لأولئك فى أعمالهم . وفوّض الى أهالى كل ناحية أمر انتخاب عمدتها ومشايخها . وأبقى الصيارفة والمأذونين . ولكنه ألغى وظائف الخوليين : لأنه لم يعد من سبب

(١) لهذا ولجميع التقسيم الذى يليه، أنظر : ماك كون "مصر كما هى" ص ١١٤ وما يليها .

لوجودها، بعد أن منح محمد سعيد باشا حق امتلاك أتربة الأطيان ، وحق زراعتها كما يشاءون . وأبقى مرجع الادارة كلها الى وزارة الداخلية .

وكان محمد سعيد باشا قد حوّل بعض دواوين أبيه كالداخلية والمالية والحربية الى وزارات؛ وعهد فى الأولى الى الأمير أحمد باشا رأفت؛ وفى الثانية الى مصطفى باشا فاضل؛ وفى الثالثة الى الأمير حليم باشا . فحوّل (اسماعيل) باقى الدواوين الكبرى — كالبحرية ، والخارجية ، والأشغال، والمعارف — الى وزارات كذلك .

إنشاء وزارة زراعة

وأنشأ فى أوائل سنة ١٨٦٥ وزارة جديدة دعاها "وزارة الزراعة" ضمها الى وزارة الأشغال ، وعهد فيهما ، معا ، الى نوبار باشا، مكافأة له على فوزه فى مسألة قناة السويس التى سيأتى الكلام عنها .

إدخال نظام هيئات نيابية على المديريات

غير أن أعظم تحسين أدخله على الادارة انشاؤه هيئات نيابية فى المراكز والمديريات قصد منها أن يعلم الأمة، باشراك وجوهها ونوابغها مع حكامها فى أعمالهم الادارية، كيفية الوصول الى حكم نفسها بنفسها .

فأقام، لهذا الغرض، فى كل مركز، مجلسا اداريا يستشير المأمور أعضاءه فى إنجاز الأعمال المركزية ؛ وأقام ، حول كل مدير، مجلسا محليا ينتخب الأهلون أعضاءه ليكونوا أعين المدير ومستشاريه ، وليضربوا على تجاوزات مشايخ البلاد وعمدها (١) .

تعيين مديرين من أبناء البلاد

وكان قد اضطر ، فى بادئ الأمر، الى اتخاذ المديرين كلهم من العنصر التركى، لعدم وجود أكفاء من أولاد العرب للقيام بمهام تلك الوظائف الخطيرة . ولكنه — مع تقادم أيام ملكه، وإخراج المدارس المصرية وسلوك الادارة رجالا يعتمد عليهم من أبناء البلاد، وبما أن الحوادث التى تلت أظهرت عدم كفاءة الأتراك للادارة،

(١) أنظر : ماك كون "مصر كما هى" ص ١٣٦

بالرغم من كفاءتهم غير المنكورة للإمرة والحكم — أخذ يستبدل المديرين الأتراك بمديرين من المصريين الصميميين ، رويدا رويدا ، حتى أصبحت معظم مديريات القطر مرؤوسة فى سنة ١٨٧٧ بمديرين من أبناء البلاد ، بالرغم من أن هيبة الأتراك ، من جهة ، كانت لا تزال كبيرة فى نفوسهم ؛ وأنه كان يخشى أن تحملهم هذه الهيبة فى معاملاتهم الادارية مع كبار رجال العنصر التركى الخاضع لحكمهم ، على خور فى العزائم ، قد تنجم عنه مضار للصلحة العامة ؛ وبالرغم من أن هيبة الحاكم المصرى ، من جهة أخرى ، لم يكن لها أصل فى نفوس إخوانه المصريين ، لا سيما أهله وذويه وبلدييه ؛ وكان يخشى أن تحمله ألفتهم به على تهاون فى واجباته ، يخل إخلالا بالغا فى تلك المصلحة العامة عينها .

حكاية جابر بك مدير بنى سويف وقواصه التركى

ويروى ، للدلالة على هذين الأمرين معا ، أن وجيها من وجهاء الصعيد عين مديرا للمديرية التى فيها بلده ؛ فوجد من ملازمة أهله ومعارفه له وجلوسهم معه ، بدون أقل تكلف ، فى حجرته الرسمية الخاصة به ، وتضييعهم وقته عليه فى محادثات لا طائل تحتها ، أولا تهم سواهم من الناس ، ما رأى ، معه ، مهابته مفقودة فى أعين مرؤوسيه والأهالى معا ، وما غصت به روحه . ولكنه لم يجد من نفسه القوة الأدبية الكافية لايقافهم عند حدهم . فأوعز الى قواصه التركى — وكان ألبانيا ، عالى القامة ضخم الجثة ، ذا شاربين كشاربى عنترة وأبى زيد فى صورتيهما المتداولتين بين أيدى الناس — أن يدخل يوما ، بغتة ، على أولئك الأهل والمعارف ، عند ما يراهم جالسين فى حجرته الخاصة ، ويزجرهم ويطردهم من حضرته ، عساهم يرتدعون .

فامتثل القواص للأمر من الغد ؛ ودخل على جمع بلديى المدير الملازمين له فى غرفته ، وقد فتل شاربيه الكثيفين حتى مس طرفاهما أذنيه ، وحملق عينيه حملقة

مروعة . وهجم عليهم صارخا بصوت مخيف : "يلا! سكتر! كرتا! فلاح أدپسيز!" فذعر الجمع وارتعدت فرائصهم . وماهى إلا لحظة وقد أخلوا المكان مهرولين يتسابقون و يتدافعون الى الباب ؛ ولكن المدير كان أوّلهم هروبا ، لشدّة ما وقع فى نفسه من هيبة قوّاصه وهول منظره وصورته (١) .

وتوج (اسماعيل) اصلاحه الادارى باقدامه على اشراك الأمة المصرية معه فى الحكم وتحقيقه ، فى انشاء مجلس نيابى ، الفكرة التى دارت فى خلد جدّه ، الباشا العظيم ، ولم تمكنه الأيام من اخراجها الى حيز العمل (٢) .

فبسط فى أواخر سنة ١٨٦٤ ، رغبته فى استدعاء أكابر التجار والأعيان والمزارعين الى جمعية عمومية ، تطلع على حال البلد المالية ، ويناط بها أمر المناقشة فى الضرائب وتحديدها وتقريرها ثم توزيعها توزيعا عادلا .

انشاء مجلس نيابى

وفى أوائل سنة ١٨٦٦ نفذ تلك الرغبة ، ومنح القطر هيئة نيابية ، ووضع لها قانون انتخاب فى منتهى الحكمة والسماحة ؛ حتى لقد قال فيه بعض كتّاب الفرنج « انه يصلح لأن يكون نموذجا وقدوة لعموم الأقطار بلا استثناء ؛ وانه لخليق بأن يحسد العالم المتمدين مصر عليه » . وجعل اختصاصات تلك الهيئة واسعة ؛ ومداولاتها

---

(١) سمعت هذه الرواية من كثيرين ممن عاصروا الحادثة . وسمعتها أيضا من صديق الشيخ مرسى محمود المحامى بالإسكندرية ، نقلا عن لسان بعض بلديى ذلك المدير . والأستاذ يرويها بكيفية نكتية فى منتهى الظرف .

(٢) أنظر : ماك كون "مصر فى عهد اسماعيل" ص ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ وانظر : "تاريخ المالية المصرية" ، و"رسائل عن مصر المعاصرة" لجابيون دنجلار ، ص ١٤٢ و ١٤٤ على أن هـذا الكاتب ينظر الى الأمور من وراء نظارة سوداء ، وما لورنى : "مصر" ص ١١٧ وما يليها .

نافذة فى الأمور المالية والادارية ؛ واستشارية ، خليقة بالعمل بها ، متى كانت صائبة ، فى الأمور التشريعية .

وفى ٢٥ نوفمبر من السنة عينها افتتح أوّل جلساتها بحفلة شائقة ، تلا فيها بنفسه خطابا وجيزا فصيحا ، أظهر فيه للنواب الغرض من اجتماعهم ؛ وطلب اليهم مساعدة حكومته على تنفيذ الأشغال العمومية المفيدة الجارية فى البلاد ؛ وتحديد مواعيد سنوية لجباية الأموال ؛ وأحاطهم علما بما تم ، فى ذلك العام ، من تعديل نظام ارث العرش المصرى ، والموجبات التى ألزمته ، والنفقات والتعهدات التى استلزمها وسيأتى بيان كل ذلك فى حينه .

فكان — مع أنه شرقى — أوّل عاهل ، بعد كارلو البرتو دى ساڤويا ، ملك سردينيا ، روى التاريخ عنه ، أنه تنازل ، عن طيبة خاطر وبمجرد ارادته ، عن جزء من سلطته المطلقة ، ومن ميزات تاجه الملكى ؛ وأوّل عاهل أعاد الى أمته جانبا من السلطة التشريعية المستمدّة ، فى الحقيقة ، منها . فسبق ، فى هذا المضمار ، موتسو هيتو ، ميكادو اليابان المجيد الطائر الصيت ؛ ومظفر الدين خان ، شاه العجم الممدوح الذكر !

وانا ، اذا وعينا تماما أن انجلترا نفسها ، العريقة فى الأحكام الدستورية ، لم تنل مزية هذه الأحكام إلا بعد أن قاتلت عليها ، مدة ملكها (يوحنا العديم الأرض) ، أخا ريكاردوس قلب الأسد ؛ وأنها أضرمت ، لاستعادتها والمحافظة عليها ، نيران ثورتين ؛ وثلت عرشين ، أغرقت قوائم أوّلها فى دم تشارلز الأوّل الستيورتى الجالس عليه ؛ وأنه ما من أمة فى أوروبا ، إلا وكابدت فى سبيل الحصول على تلك المزية أجسم المشاق ، وأهرقت أزكى دماء نبلاء الشعور والأفهام من أولادها ؛ وأن

الصحافة العالمية استنفدت كل كلمات الشـكر والثناء، فى تحبيذ عمل ميكادو اليابان وشاه العجم المذكورين حينما تم، أدركنا مقدار ما يستحق عمل (اسماعيل) من إعجاب، وما هو خليق به من مدح جزيل !

ولا يضـيره ما أخذه عليه بعض الكتّاب من أن الهيئة النيابية التى جاد بهـا على بلاده لم تكن، لجهل معظم أعضائها المطبق، واثقل ظلم ستين قرنا على عواتقهم، تستطيع تقدير المنحة المجود بهـا حق قدرها؛ ولا استخدام الآلة الموضوعة بين يديها استخداما حسنا؛ وأنها اعتقدت من واجباتها أن ترى أنها ملتئمة للتصديق، فقط، على رغائب "ولى النعم".

فانه اذا صدقت الرواية الزاعمة أن النوّاب — حينما أفهمهم شريف باشا وزير الداخلية فى تلك السنة، أن المجالس النيابية الأوروبية منقسمة دائمـا الى حزبين : حزب يعضد الحكومة، وحزب يعارضها ويقاومها؛ وأنه يجدر بهم، والحالة هذه، أن ينقسموا هم أيضا الى حزبين : حزب مع الحكومة، وحزب عليها؛ فيجلس رجال حزب الحكومة على مقاعد اليمين، ورجال حزب المعارضين لها على مقاعد اليسار— تسابقوا جميعهم الى مقاعد اليمين، هاتفين : "إنا كلنا عبيد أفندينا. فكيف نكون مقاومين لحكومته؟"[1].

واذا صح ما تزعمه الليـدى (دف جوردون) فى مراسلاتها من أن أحد المنتخبين قال لهـا : «إنا، معشر النوّاب، إنمـا نحن ذاهبون الى مصر، وقلوبنا فى جزمنا؛ لأنه، اذا كان أحدنا لا يستطيع أن يجاوب المدير، على أىّ أمر يصدره اليه، مهما

(١) أنظر على الأخص : ماك كون "مصر كما هى" ص ١١٨ (الحاشـية)، و"مصر تحت حكم اسماعيل" ص ٤٥ (الحاشية).

كان جائرا، سوى بعبارة "حاضر! على عيني و رأسي!"؛ أفتريدين أن نجسر على مقاومة ارادة أفندينا، الذي يملك أعناقنا؛ وحق التصرف في أعمارنا؛ ويستطيع في أيّ وقت يشاء أن يخسف الأرض تحت أقدامنا، ويقطع خبرنا في أقاصي الفازوغلي[1]؟»؛

واذا صح أن خوف الأهلين من المديرين ومن معاداتهم جعلهم يفرّون من الانتخابات؛ وأن هذه — بالرغم من القانون الجميل الموضوع لها — لم تجر إلا بالقوة القاهرة، وطبقا لرغائب أولئك الحكام؛

واذا صح أخيرا أن النوّاب كانوا، في أوّل جلوسهم على كراسيهم، متهيبين لا يدرون ما هي واجباتهم؛

فانه يجب أن لا يغيب عن الأذهان ثلاثة امور :

الأوّل : أن (اسماعيل) كان يعلم حق العلم أن هناك أقلاما أوقفها أعداؤه على تسوئة سمعته وتسويد صحيفة أعماله؛ وإظهار كل الاصلاحات التي يقدم عليها كأنها مجراة لا لرغبـة حقيقية فيها، وابتغاء للفائدة التي تعود منها على البـلاد؛ ولكن لذرّ الرماد في أعين الدول الغربية؛ وحمل العالم المتمدين، على الاغترار بالطلاء واعتباره مجرى تلك الاصلاحات من أعاظم رجال القرون و «أكبر حاكم وجد على رأس مصر الاسلامية منذ الفتح العربي»؛ كما كان يقول محبوه والمغمورون بأفضاله من أصحاب الجرائد الفرنساوية والانجليزية والايطالية الكبرى في بلادهم . وكان يعلم أيضا أن الواقفين على نوع عقلية الأمة المصرية وماهيتها، في تلك الأيام، قد يسخرون بمنحته،

(١) أنظر: "رسائل ليدى جوردن . دف" ج ٢ ص ٨٦ ، و"مصر" لمالورتي ص ١٢١

ويستنكرونها ، حتى فيما لو اعتبروها صادرة عن إخلاص حقيقىّ فى حب البـلاد ، ورغبة صادقة فى رقيها ؛ وأنه ، مع ذلك ، لم يخف طعن الطاعنين المتحاملين ؛ ولم يخش استهزاء المستهزئين ، فى سبيل السير بأمته فى معارج المدنية الحديثة ، والنهوض بها الى مستواها بأية وسيلة يراها مجدية نفعا .

الثانى : أن أىّ عمل انسانىّ كان يراه الوقت الحاضر سخيفا هزأة ، قد لا يلبث ، مع مرور الأيام عليه وهو قائم ، أن يكسبه الزمان حلة من الكمال ، ويحوطه بهالة من الجلال ، لا تجعلانه كبيرا فى العيون ، فقط ، بل مثمرا ثمرا شهيا . وأن خير معبر عن هذه الحقيقة ، ما قاله ذلك النبيل الفرنساوى الذى منحه نابليون الثالث لقب شرف كان لأعرق الأسرات الفرنساوية قدما ، واندثر باندثارها ، وهو : «إنه ليخجلنى ، حقا ، أن يلقبنى عارفىّ بالدوق دى مونمورانسى : لأنهم يعلمون أنى لست من هـذه الأسرة . ولكنى متأكد أنه لن تمضى خمسون سنة إلا ويكون الملأ قد نسى من منح بيتى هـذا اللقب ومتى منحه ؛ فيعتبرونه ، فى أحفادى ، إرثا عن أسرته القديمة ؛ ويصبح مصدر فخار لهم : لأن الزمان يقدّس كل شئ» [(١)] .

ومن يعلم أن شريف باشا ذاته — الذى رأى النوّاب الأوّلين يتسابقون الى مقاعد اليمين ، لكيلا يعتبروا من حزب المعارضين للحكومة — أصبح ، فيما بعد ، من أشدّ الناس تمسكا بالهيئة النيابية بمصر ، ومن أكبر أنصار الحكم الدستورى ، حتى إنه فضـل اعتزال الأحكام فى أوائل حكم توفيق على توليها ، ولا هيئة نيابية فيهـا [(١)] من يراجع ، بعد ذلك ، تاريخ الحركة الفكرية النيابية بالقطر المصرى فى نصف القرن الذى

(١) أنظر : مالورتى ''مصر'' ص ١٢٢

تلا افتتاح أوّل مجلس نيابى فيه ، ويقف على مقدار تطوّر العقلية فيها ، يدرك إدراكا تامًا مقدار الحكمة المستكنة فى قول ذلك النبيل الفرنساوى ؛ ويتمكن من الوقوف على التطوّر الاجتماعى الذى أوجبته ، على ممرّ الأيام ، منحة (اسماعيل) : فيقدّرها تقديرها الحق ، ولا يبخل على صاحبها بالثناء والشكر اللذين يستحقهما .

الثالث : أنه لم يمض على تشكيل ذلك المجلس بضعة أعوام ، إلا وأنجب نوابا عن مصالح الأمة حقيقين بهذا الاسم ؛ ولو أن عددهم لم يتجاوز أصابع اليد الواحدة ؛ نوابا لم يروا أن مهمتهم تنحصر كلها فى التصديق على أعمال الحكومة وتحبيذها . لم يخافوا التصدّى لمعارضتها ومناقشتها الحساب ؛ بالرغم من علمهم أنها انما تنطق بلسان الأمير وتعبر عن إرادته . ومع ذلك ، فان التاريخ لا يذكر أنهم أصيبوا بسوء بسبب حرية ضمائرهم وألسنتهم . ولو أن بعض ذوى الأمر امتعضوا منها ، وهدّدوا أصحابها بضرّ إن لم يصمتوا .

الفصل الثانى[1]

توسيع نطاق الزراعة والرى والمواصلات

"الزراعة حياة مصر، والرىّ روح الزراعة؛
والمواصلات من البلد كالشرايين من الجسد"
« كهنوت مصرى قديم »

صيرورة الأرض المصرية برمتها الى محمد على

من المعلوم أن (محمد على)، فى أوائل سنى ملكه، أى ما بين سنة ١٨٠٨ وسنة ١٨١٤، مقابل ترتيبه إيراد سنوى، لحاملى حجج الأطيان المصرية، يوازى إيرادها السنوى المعتاد، استولى على جميع هذه الأطيان، بما فيها أطيان ديوان الأوقاف ورزق المساجد — ما عدا "الوسيات" — وهى أطيان تخلفت للنواحى عن فلاحين ماتوا بدون وريث، أو تنازل عنها أصحابها الفقراء، لعدمهم، الى ملتزم الناحية مقابل مبلغ يسير من النقود؛ فأصبح الملتزم يزرعها لحسابه، نظير دفعه مالا سنويا للميرى، ليمكنه من القيام ببعض نفقات فى المصلحة العامة كتطهير الترع وصيانة السواقى. وما لبث الملتزم، بعد عهد قليل، أن امتنع عن دفع ذلك المال، مع احتفاظه بالوسية؛ كما فعل البطريقيون "بالأجر العام" فى جمهورية روما القديمة. فحقق (محمد على)، بذلك التملك، الحلم الذى رآه فى صباه، وهو فى قوله، إذ نظر نفسه يشرب كل ماء النيل، ليروى ظمأ اعتراه، ولا يرتوى.

(١) أهم مصادر هذا الفصل هى: مؤلفات كلوت بك وهامون ومانجين وموريه البادى ذكرها، و"تاريخ مصر الحديث" لجورجى بك زيدان، و"مصر فى عهد محمد على" لبكرمسكار، و"مصر المعاصرة" لماريئو، و"مصر" للبارون مالورتى، و"مصر" لستانلى لين بول.

ومن المفهوم ، بداهة ، أنه انما استولى على جميع أطيان القطر. لا لطمع أو جشع فى أملاك الغير؛ ولكن لسببين : الأول ، رغبته فى إدخال أصناف مزروعات جديدة على الزراعة المصرية المعاصرة له (كالقطن ، والكتان ، والأفيون ، والنيلة والتوت الخ) ، من شأنها زيادة الثروة العمومية ، وإنماء رخاء البلاد ؛ وعلمه أن جمود الفلاحين المصريين فى الاقتصار على أنواع المحصولات القديمة يحول دون تحقيق رغبته : والثانى تصميمه على احتكار تجارة القطر عامة ، ظنا منه أن فى ذلك مصلحة البلاد ؛ لاعتقاده أنه يدرى من أساليب التجارة وضروبها ما لا يدريه الفلاحون ؛ وارادته ، والحالة هذه ، أن يتمكن من زرع ما يشاء ، أنى يشاء ، وبأية كمية يشاء .

فأدخل ، الأصناف الجديدة ، التى كان راغبا فيها ، على زراعة البلاد ؛ وتصرّف فى زرعها التصرف الذى رآه مناسبا لمصلحته ومفيدا لتجارة القطر . فأكثر ، مثلا ، من زراعة أصناف المستعمرات (كالقطن وأمثاله) فى الوجه البحرى ، حتى كاد يجعل زراعة هذا الاقليم كلها قاصرة عليها . وخص الصعيد بزراعة الغلال والحبوب .

وكيلا تحرم مصر الاستفادة حتى من الأطيان البائرة ، أنعم بعد سنة ١٨٣٠ بأكثر من مائتى ألف فدان منها على كبار أتراكه ؛ وأعفاهم من دفع ضريبة مّا عليها مدّة تتراوح بين ست وعشر سنين ؛ على شرط أن يحيوها ويزرعوها . وقد عرفت هذه الأطيان باسم "الأبعاديات" أو "الأباعد" . وأكثر (محمد على) فيما بعد من الإنعام بها على المخلصين فى خدمته من رجاله الأمناء ، بصفة مكافآت لهم على أعمالهم التى أحرزوا بها رضاه ؛ ورغبة منه فى إنماء المساحة الصالحة للزرع فى القطر المصرى .

اصلاحات ابراهيم باشا الزراعية

وقد اقتدى به فى الاعتناء بالزراعة ، بل فاقه تفننا فى أساليبها ، ابنه ابراهيم باشا : فانه ، على كونه جنديا أكثر منه رجل زراعة ، ماكاد يقتني الأطيان الشاسعة بالقطر

إلا وأدرك، أكثر من كل مزارع، مقدار الخيرات التى يمكن للأرض المصرية أن تدرّها، اذا بوشرت زراعتها على حسب الأصول الفنية .

فأقبل يشتغل بمنتهى الذكاء والتفنن؛ وأدخل تحسينات جمة على الطرق الزراعية القديمة المتبعة؛ واستنبط طرقا أخرى؛ و باشر زراعة نباتات غير النباتات المعروفة (كشجر الزيتون) مثلا : فانه غرس منه ما ينيف على ثمانين ألفا . ثم أصلح جملة أطيان بائرة، وحوّلها الى أطيان زراعية فى غاية الجودة . ناهيك بالاصلاحات التى أدخلها على فن اقامة الحدائق والبساتين، وتحويله جزيرة الروضة الى اسم على مسمى حقا . وقد قال عنه البرنس پكلرمسكاو فى كتابه المعنون "مصر تحت حكم محمد على" : «ان ابراهيم باشا معجب به فى مصر كمحسن عظيم . فما هو بالغرّاس والمزارع على مقياس شاسع، فحسب؛ بل انه قد مدّ ظل اصلاحاته فوق أرجاء الصحراء الشرقية التى ما وراء القاهرة، والمسلم أمر تحويلها الى جنة غناء للمسيو بونفور، وهو رجل لا يعرف الملل و يشغل تحت ادارته عشرة آلاف عامل بأجرة تتراوح ما بين قرش ونصف الى ثلاثة قروش يوميا تدفع، لهم كل يوم جمعة بانتظام مستمر»[1] .

ولم يكن ليغيب عن ذهن (محمد على) أن روح الزراعة بمصر إنما هى حسن توزيع مياه الرى وأن توسيع نطاق الفلاحة فيها لن يدرك إلا بتوسيع نطاق الرى عينه، ونطاق طرق المواصلات؛ وأن خير ضمان لاستمرار الفلاحين مقدمين بنشاط وحب على الزراعة إنما هو استفادتهم وإثراؤهم منها ورؤيتهم أنفسهم غير مرهقين بالضرائب وطرق تحصيلها .

(١) أنظر : پكلرمسكاو "مصر تحت حكم محمد على" ص ٩٨

الاعتناء بوسائل الرى فى عهد محمد على

فما وضع يده على الأرض المصرية، للغرضين اللذين قلنا عنهما، إلا وأقبل بهمته الفائقة على الاعتناء بذلك جميعه :

فلم يترك جزءا من الأطيان التى كان يمكن ريها بالوسائل الموجودة منذ زمن المماليك، إلا وضمن له وصول المياه إليه بكيفية ثابتة . وربما كانت رغبة تمكنه من القيام بهذا العمل سببا ثالثا فى إقدامه على نزع الأطيان من أيدى أصحابها ؛ لأن هؤلاء كانوا لا يفترون يتنازعون على الرى . يقاتل أهالى الجهة أحيانا جيرانهم أهالى الجهة الأخرى على فتح ترعة أو سدها . مثال ذلك ما كان يقع دائما من المنازعات بسبب ترعة الفرعونية . هذه الترعة كانت تصل بين فرعى النيل، وبين عين شمس ونضير، مارّة بمنوف . وبما أنها كانت تحوّل جانبا عظيما من مياه فرع دمياط إلى فرع رشيد ، فتسبب — لا سيما فى أيام التحاريق — شرقا جسيما لمزروعات الأرز فى شمال الدلتا والدقهلية، من المنصورة إلى دمياط ؛ كان المزارعون الذين فى جوار فرسكور وبعض جهات الدلتا الشمالية ، والمزارعون الذين على فرع رشيد فى نزاع مستمرّ بعضهم مع بعض : أولئك يرغبون فى سدّ الترعة ومنع تحويل مياه فرع دمياط إلى فرع رشيد؛ وهؤلاء يرغبون بالعكس فى فتحها وتحويل المياه إلى فرعهم . وقد رفع كلا الطرفين شكوى فى هذا الشأن الى الجنرال بونابرت فى سنة ١٧٩٩ فكان أحد الأوامر الأخيرة التى أصدرها ذلك الرجل العظيم وهو بمصر خاصا بإجراء تحقيق فى المسألة أمام لجنة من المهندسين المرافقين لحملته . ثم حدث، بعد ذلك بسنوات، أن مياه النيل، إما بفعلها الطبيعى وإما بفعل بعض ذوى المصلحة ، ذهبت بالجسر السادّ للفرعونية، وأحيت المنازعات القديمة بين أولئك المزارعين، فرأى (محمد على) أن يفض الخلاف بينهم فضا نهائيا : فسدّ الفرعونية بحاجز من البناء الثابت المتين؛

وعوّض على أهل مديرية البحيرة والجانب من الدلتا، الذين كانوا يطالبون بفتح تلك الترعة، خسائرهم الناجمة عن ذلك السدّ بإنشاء عدّة ترع فى فرع رشيد أفادتهم أكثر مما كانوا يستفيدون من ترعة الفرعونية[1] .

ولكن وسائل الرى المخلفة عن المماليك كانت قليلة . ولم يكن فى القطر من ترع هامة سوى بحر يوسف، وبحر مويس، وبحر شبين الكوم، والجعفرية . فرأى (محمد على) أنه، رغم كل اعتناء يبذله فى الانتفاع بكل ما يمكن الانتفاع به من مياه هذه الترع، فان جانبا عظيما من الأطيان ذات التربة الخصبة يستمرّ بورا لعدم وصول مياه النيل إليه .

فعلى الرغم من اشتباكه فى حروب عظمى — اضطر الى الدخول فيها إمّا لحفظ الأمن فى البلاد؛ وإمّا امتثالا لأوامر سلطان تركيا؛ أو لرغبة فى التوسع وفى إحياء شأن الأمّة العربية — أقبل على إنشاء وسائل رى، يعتبرها التاريخ أسطع ماسة فى تاج مجده، وخير وسام على ثوب فخره . أهمها : ترعتا المحمودية والخطاطبة فى البحيرة؛ ومدّ ترعة الجعفرية؛ وترعتا مسدّ الخضراء، والبقيدى فى الغربيـة؛ والنعناعيـة، والسرساوية، والباجورية فى المنوفية؛ والبوهية، والمنصورية، وترعة دوده، والشرقاوية فى الدقهلية — وقد أنشأ هذه الترعة الأخيرة، لأن مزارعى الأطيان التى على الفرع الدمياطى، على الرغم من سدّ الفرعونية، لم يفتروا يشتكون من قلة المياه وعدم كفايتها لمقـاومة دخول البحر الملح فى النيل بالقرب من المنصورة . وأنشأها فى جهة أعلى بكثير من النقطة التى يصل عندها امتزاج المـاء العذب بالمـاء الملح: فجعل مزارع الأرز ضامنة الحصول على المـاء الجيـد طوال العام — ومصرف بلبيس، وترعة

(١) أنظر : لينان دى بلفون "بيان أهم الأعمال بمصر" ص ٣٤٢ وما يليها .

الوادى فى الشرقيــة ؛ والزعفرانية ، والباسوسية ، والشرقاوة فى القليوبية ؛ وبضـع جداول أخرى فى الصعيد ، لا نأتى على ذكرها ، لأن الوجه القبلى مافتئ قليل الرى وغير منتظمه لغاية أيام (اسماعيل) .

ولم يقتصر (محمد على) على انشاء هذه الترع ؛ ولكنه أقام على معظمها قناطر حاجزة ، مسهلة للرى : لأنها بحفظها المياه فى مستوى موافق من العلو تمكن من تسريبها إلى الأرض بمجرد قطع يعمل فى هذه ؛ أو من توصيلها اليها بواسطة آلات رافعة كالسواقى والتوابيت والشـواديف . وقد أنشأ (محمد على) منهـا فى القطر عامة ما يزيد على خمسين ألفا . وبعض تلك القناطر على جانب عظيم من الأهمية .

وتوج كل ما عمله فى هذا الباب المفيد بشروعه فى إنشاء القناطر الخيرية الجليلة ، الشاسعة الأطراف ، البديعة الصنعة الهندسـية ، على فرعى النيل ، فى الموضع الذى أشار نابليون الأول فى مذكراته بوجوب إقامتها عنده .

توسيع نطاق المواصلات فى عهد محمد على

ولم يهمل فى الوقت عينه ، توسيع نطاق المواصلات ؛ لعلمه أنه إذا تعـذر نقل حاصلات الزراعة الى حيث يسهل بيعها بأثمـان موافقة ، فإنها لا تلبث أن تتلف أو تباع بأثمان بخسة : فلا يعود الاشتغال فى إنمائها يجدى ؛ وتبور الفلاحة مع تمادى الأيام ، ولو بلغت وسائل الرى درجة الكمال ، واتسع نطاقه الى أقصى ما يتصوره الفكر ؛ اللهم إلا إذا كانت تلك الوسائل طرق مواصلات أيضا .

فاجتهد أولا فى جعل معظم ترع القطر الكبرى صالحة للملاحة كالنيـل بتطهير مجراها بين حين وحين . ثم زاد عدد المراكب الماخرة فيها زيادة مطردة : فبينما كان الموجود منها على النيل ، فى أيام الاحتلال الفرنساوى ، سبعمائة من أسوان الى القاهرة ؛ وتسعمائة من القاهرة الى البحر الأبيض المتوسط ، أصبح فى سنة ١٨٣٩

ثلاثة آلاف وثلاثمائة؛ منها ثمانمائة للحكومة خاصة . وذلك غير مراكب الصيد التى كانت تمخر فى بحيرات البرلس والمنزلة وإدكو ومريوط .

ولما انتشر اختراع فلتن الأمريكى ، وبنيت السفن البخارية أسرع (محمد على) وبنى لنفسه واحدة منها كلها من حديد؛ ظنها الأهالى ، أول ما رأوها ، حيوانا بحريا ضخما ولد فى مياه النيل حديثا . ولكنه لم يستطع تعميم استعمال ذلك الاختراع فى النيل لعدم وجود مناجم فحم حجرى فى القطر .

ولم يكن ، قبله ، طرق فى البلاد ، بالرغم من أن جسور الترع كانت تصلح لهذا الغرض ، لو خصت بشئ من العناية . ولكن حكام مصر الذين سبقوه على سدّتها ، كانوا ، كلهم ، من رأى ذلك التركى القائل بضرر إنشاء الطرق السلطانية ؛ ووجوب تعطيل الموجود منها . لأنها بتسهيلها نقل المدافع من مكان الى مكان ، تمكن الأجانب من غزو البلاد . وأما عدمها ، فيحول دون توغل أى جيش فاتح فيها[1] .

فجعل (محمد على) جسر ترعة المحمودية التى أنشأها ، طريقا للمرور ، واختط عدّة طرق سلطانية أخرى ، أهمها السكة التى بين مصر وقصره فى شبرا ، وهى من أجمل ما يكون ، تظلل الأشجار الباسقة جانبيها . وفائدتها ، لنقل حاصلات الأطيان المجاورة لها الى العاصمة ، لا تنكر .

على أن أهم طريق للمواصلات أوجدت فى أيام الباشا العظيم ، هى الطريق التى أنشأها الملازم الانجليزى (واجهورن) ما بين الغرب والشرق الأقصى ، وعرفت باسم "ذى أوفر لاندروت" ؛ وكانت ، ما بين السويس والقاهرة والاسكندرية ،

(١) أنظر : "مصر" للبارون دى مالورتى ص ١٢٤ (الحاشية الثانية) ، نقلا عن «جرتجهم» فى كتابه "الى القسطنطينية ومنها" ص ٢٤٩

ذات محطات ونظام وأدوات جعلتها مصلحة تامة المعنى ، أطلق عليها اسم مصلحة "الترانزيت" . وكانت فى بادئ أمرها انجليزية محضة ، وكل عمالها من الانجليز. ولكن (محمد على) تربص حتى تذرع بغلطة ارتكبها مديرها : فدفع تعويضات كافية لعمالها ، وصرفهم ، وأحل محلهم عمالا من لدنه . فصير المصلحة مصرية سنة ١٨٤٥

وكانت انجلترا منذ سنة ١٨٣٧ ، أى حالما فرغ من مدّ الخط الحديدى بين لندن وليڤربول — وهو أول خطوط العالم الحديدية — وقبل أن تمدّ غيره البلاد البريطانية عينها ، قد فاتحته فى أمر إنشاء سكة حديدية بين مصر والسويس ؛ وراق المشروع فى عينه . فبعث من استحضر من أوربا الأدوات والمواد اللازمة له ، وهب الى نفاذه . ولكن فرنسا خافت أن يؤول الأمر ، اذا ما تم على يد شركة انجليزية ، الى استيلاء بريطانيا العظمى على القطر المصرى . فعارضت فى المشروع — ولم يكن (محمد على) فى تلك الأيام يعتمد فى الملمات إلا عليها — فأبى اغضابها ؛ ورأى ، من جهة أخرى ، أن نفقات تلك السكة قد تربو على خمسة وعشرين مليونا من الفرنكات . بين أن ايراداتها قد لا تأتى بأرباح مطلقا ، لاقتصار منافع الخط المرغوب فى انشائه على المواصلات مع الهند ، وعدم استفادة الزراعة منه بشئ . فأهمل المشروع وطرحه فى زوايا النسيان .

أما أمر إثراء الفلاحين من زراعتهم وعدم ارهاقهم بالضرائب وطرق جبايتها ، فان الأيام السوداء التى آل فيها عرش مصر اليه ، والمصاعب الكبيرة الجمة ، من كل نوع ، التى أحاقت به ، لم تمكنه من تحقيقهما ، على كثرة رغبته فى ذلك — ولا أدل على هذه الرغبة من ارساله شبانا كثيرين الى أوروبا ليتلقوا علم الزراعة الفنى ؛ ومن ابتنائه فى شبرا عزبة أحب أن تكون نموذجا للمعيشة الفلاحية السعيدة — فمات

وفى نفسه من ذلك غصة : (أولا) لشعوره بحقيقة قول الشاعر الفرنساوى : "إنى أريد . ولكن، يا للشقاء الأكبر ! فانى لا أصــنع الخير الذى أحب، وأعمل الشر الذى أكره ! "[1]؛ و(ثانيــا) لعلمه بأن أعداء اسمه ومجده سيجدون، فى عدم تحقيقه ذينك الأمرين، متسعا للطعن عليه، وتشويه وجه شمس حياته الساطعة !

أول سكة حديدية بمصر

ربمــا ان المشهور عن عباس الأول، هو أنه عامل القطر المصرى كأنه بلد فتحه بحــدّ السيف ، فمن البديهى أنه لم يكن ينتظر منــه الالتفات الى ما يعود على أهله وساكنيه بالرفاهية والخير .

فاستمر الفلاح المصرى ، اذا ، مقيما على أطيان لا يملك منها شيئا . واستمر يزرع وينمى ما لا نصيب له فى اختياره ؛ ويجنى محصولا لا يستطيع التصرف فيه . ولمــا رأى أن الحكومة أصبح يعوزها شئ كثير من الحكمة والرأفة النسبيتين اللتين امتازت بهما أيام الباشا العظيم وابراهيم الهمام؛ وأن عباسا لا يهمه من أمره إلا أن يملأ خزائنه بالنقود التى يعصر جسمه للحصول عليها؛ وأنه، فيما عدا لذاته، غير مشتغل فى شأن من الشؤون العــامة ، اللهم إلا فى إحلال الجنود الألبانيين وغيرهم من الأتراك محل الجنود المصريين، وتسليحهم بمسدسات أميريكية — كأن الشر المندلع من طبنجاتهم لا يكفى لإلقاء الرعب فى القلوب — ورأى أن مشروع مدّ سكة حديدية بين الاسكندرية ومصر لم ينفذ إلا رغم ارادة ذلك الوالى، أخذت عنايته بالحقول تقل، واهتمامه بريها، ودفع طوارئ الحدثان عنها، وتطهير الترع الصغرى الموكول أمر صيانتها الى القرى، يزول . وبات الخراب يهدّد الزراعة المصرية بأسرها .

---

(١) أنظر : "أسرة فرنساوية : الى دى لسبس" لبر بديه ص ٣٤٠ .

إصلاحات سعيد الاجرائية

فلما آل زمام الحكم الى (سعيد) هاله الأمر، وكبر عليه أن تصبح معظم نواحى القطر، بسبب إهمال الرى والمواصلات ورزوح الفلاحين تحت ثقل الضرائب الفادحة وغلظة طرق جبايتها الوحشية، قاعا صفصفا وقفرا بلقعا . وأدرك أن ما كان صالحا ومفيدا فى أول عهد أبيه، لم يعد له فى عهده من موجب؛ بل إن ضرره الفاحش بات يرى بالعين ويلمس باليد .(١)

فأصدر أمرا بتوزيع الأطيان، فى كل ناحيــة، على القائمين بزراعتها ليتصرفوا فى زرعها كما يشاءون . وأمر بتقييد ذلك التوزيع فى سجلات خاصة، تكون بمثابة حجج ملكية لأولئك المزارعين . ولئن لم يمنحهم حق امتلاك الأرض بالمعنى الذى يفهم من هــذا التعبير (لأن ذلك لم يكن ممكنا بسبب الاعتقاد السائد من أن ملكية الأرض حق من حقوق السلطان دون غيره)، فإنه أباح لهم حق التصرف فيها بيعا ورهنا، على أن تكون "أثريتها" — كما كانوا واستمروا يسمونها لغاية عهــد غير بعيد — لا هى بعينها، موضوع ذلك التصرف . فأنعش بذلك الزراعة المصرية وجعلها تترعرع وتشتد .

وتوصلا الى استئصال كل الأشواك من سبيلها دفعة واحدة، أقبل على الضرائب، وعدل طريقتى ربطها وجبايتها : فأبطل النظام التضامنى الذى كان قاعدتها؛ وهو نظام — بمــا كان يوجبه من التضامن فى دفع الأموال، بين أهل الناحية الواحدة، وأهل نواحى القسم الواحد، وأهل أقسام المركز الواحد، وأهــل مراكز المديرية الواحدة — كان يلزم العامل النجيب النشيط بسد العجز الناجم عن كسل رفاقه،

(١) لكل ما يروى عن سعيد فى هذا الفصل، أنظر على الأخص : كتاب "مصر المعاصرة سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٥٧" لمريثو .

وتهاونهم، أو جهلهم؛ والعجز الناتج عن الفراغ الذى يحدثه الموت، أو أى طارئ كان فى عدد سكان الناحيـة أو القسم أو المركز أو المديرية : وفى ذلك من الغبن والظلم ما لا يسلم به عقل .

إسقاط المتأخرات

ثم أسقط، جملة واحدة، كل المتأخرات التى كانت على النواحى — وكانت تبلغ ثمانين مليونا من القروش، أى سدس الأموال جميعها فى عهد (محمد على) أبيه — والمتأخرات نتيجة طبيعية لسوء ربط الضرائب وسوء جبايتها .

وتنازل أخيرا عن الاحتكار التجارى الذى كان لأسلافه . فعدل، باذنه عن أخذ الضرائب فعلا : وأطلق الحرية للزارعين فى بيع محصولاتهم، أنى يشاءون ولمن يشاءون، وطالبهم بدفع الأموال الأميرية نقدا .

ورغبة منـه فى تسهيل الانتقال عليهم من طور الى طور وجعله أمين العواقب، قسط تلك الأموال على اثنى عشر قسطا شهريا؛ ونظم طريقة تحصيلها، طبقا لما كان متبعا فى فرنسا حينذاك . ومنح مهلا للدفع، ريثما يتاح لدى المزارعين مال كاف . وتجاوز، فى بعض الأحيان ولبعض النواحى المشتدة عضة الفقر على ساعدها عن ضرائب سنة برمتها .

ثم أضاف الى جميع هذه النعم نعمة أخرى وهى : رفع الضرائب سنويا، عن كل أرض لا تبلغها مياه النيـل، إما لقلة فى الفيضان، أو لأى سبب كان — مقتفيا فى ذلك أثر أسلافه من عواهل مصر الصالحين : كأحمد بن طولون، والمعز لدين الله، والعزيز بالله، وصلاح الدين .

وتوج كل ما فعل فى هـذا الباب، بانشاء قرية للفلاحين على نظام قرى الغرب الريفية؛ جعل فيها جميع أسباب النظافة والراحة متوفرة، لتكون نموذجا يبنى فلاحو

القطر قراهم على مثاله ؛ ولكن الفلاحين أبوا إلا البقاء على معيشتهم القذرة . ولم تمض مدّة يسيرة حتى أهمل ساكنو القرية الأنموذجية منازلها الجميلة ، وابتنوا لأنفسهم عششا كالتى اعتادوا ، من صغرهم ، سكناها . فاندثرت قرية سعيد .(١)

غير أن إصلاحاته لم تكن لتجدى الزراعة النفع المرغوب فيه ، لو لم تقترن باعتناء تام بوسائل الرى وطرق المواصلات .

فأقبل عليهما . ولكنه ما ألقى نظره على الواجب عليه عمله فى شأن الرى ، حتى هالته جسامته وذلك لأن الأوحال كادت تطمر الترع التى أنشأها أبوه ، بما فيها المحمودية ؛ لقلة الاعتناء بها وقلة صيانتها ؛ ولأن أمر تطهيرها ، فقط — ناهيك بحفر ترع غيرها — كان من شأنه استنفاد همة رجل مقدام فى عدّة سنوات ، فأحجم .

ولكنه — حينما أفهمه موچيل بك أن المحمودية التى كلفت أموالا وأعمارا ثمينة ، والتى تستق الاسكندرية منها ماءها ، ان لم نتدارك حالا بالتطهير ، انطمرت بعد قليل ، وباتت غير صالحة للملاحة بتاتا ، حتى ولا للشرب — شمر عن ساعد الجدّ والنشاط ، وأصدر الى المديريات الأوامر بتسيير العدد اللازم من الأنفار الى ضفاف تلك الترعة ليشتغلوا فى تطهيرها . فأرسلت النواحى مائة وخمسة عشر ألف عامل ؛ وخصص لكل منهم عمل يؤديه ؛ ووعد وعدا صريحا بتسريحه حالما ينجزه . فجدّوا ، وتباروا ؛ و بالرغم من أنه لم يعط إلا فأسا واحدة لكل خمسة منهم ، أتموا العمل على ما يرام فى ظرف اثنين وعشرين يوما فقط ؛ دون أن يموت أحد منهم ، بل دون أن يمرض أكثر من خمسة فى كل ألف ، بفضل الاحتياطات والوقايات الصحية التى اتخذت . تطهير المحمودية

(١) أنظر : أدون دى ليون ''مصر الخديوى'' ص ١٢٦

فاذا تذكرنا أن أكثر من اثنى عشر ألف عامل من الذين حفروا المحمـودية فى سـنة ١٨١٨ ماتوا فى خلال عشرة شهور، ودفنوا تحت أتربة الجسرين المقامين على ضفتيها، أدركنا مقدار تقدّم الأيام نحو الأحسن فى غضون بضع وأربعين سنة من وجود مصر تحت أحكام الأسرة العلوية (١).

إنشاء الخط الحديدى ما بين القاهرة والسويس

غير أن إقدام سعيد على تتميم مدّ السكة الحديدية بين الاسكندرية ومصر — وهى سكة افتتحها فى أوّل يناير سنة ١٨٥٦ — وإنشاء خط آخر بين القاهرة والسويس؛ وانشغال فكره فى الاصلاحات التى عزم على ادخالها فى حكومة السودان؛ وفى الامتياز الذى منحه المسيو دى لسبس لأجل حفر ترعة السويس؛ ثم فى عقد القرض الذى أورث خلفه عباه؛ ومداهمة المرض له، على أثر ذلك، مداهمة هدمت بناء جسمه الشديد؛ كل ذلك حال دون مثابرته على عمل تطهير الترع التى أنشأها والده، ودون التفكير فى انشاء غيرها.

فلما مات ترك الزراعة فى أزمة، كان لا بد لحلها من همة شمـاء، ونشاط فائق، يبذلان بسخاء فى سبيل ذلك.

تلك الهمة وذلك النشاط وجدا، لحسن حظ مصر، فى (اسماعيل) خليفته. فانه وقد رأيناه وهو أمير، وولى عهد فقط، يقبل على تحسين مزروعاته الخاصة تحسينا ضاعف محصولها — صمم أن يعمل للقطر، بشكل كبير واسـع، ما عمل فى أملاكه بشكل صغير ذى دائرة ضيقة.

إنماء اسماعيل مساحة الأطيان المنزرعة قطنا

فأقدم، أوّلا، على إنماء مساحة الأطيان المنزرعة قطنا بمصر، لا سيما فى الصعيد، إنماء كبيرا. وذلك لأن الحرب الأهلية بالولايات المتحدة كانت حينذاك فى أشدّ

(١) أنظر: "مصر المعاصرة سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٥٧" لمرثيو (الفصل الثانى، ترعة المحمودية).

استعارها . ونشأ عنها بوار مزارع أميركا القطنية بوارا عظيما . فتحولت أنظار المعامل النسجية البريطانية وغيرها الى القطن المصرى ، وأخذت تقبل على ابتياعه أيما إقبال ، بأثمان عالية علوا لم يكن يحلم أحد به .

فلكى ينال غرضه سريعا أعلن فى عموم مديريات مصر العليا على ألسنة كبار موظفى الادارة والعمد والمشايخ عن استعداده لاعطاء المزارعين ، مجانا ، كل البذرة التى يحتاجون اليها ، مهما بلغت مقاديرها وقيمتها . فبينما كانت مساحة الأطيان المنزرعة قطنا فى الصعيد تقرب من أربعة آلاف فدان فقط ، اذا بها قد أصبحت ، بفضل سعيه ودأبه ، مائة ألف فدان فى نهاية سنة ١٨٦٤ أى بعد مرور أقل من سنتين على تبوئه سدة الإمارة .

تمليك الفلاحين الأطيان البائرة التى كانوا يزرعونها

وكان كثيرون من الفلاحين يزرعون أطيانا ، وجدوها مهملة ، فوضعوا أيديهم عليها واستغلوها ، دون أن يكون عندهم حجج ملكية بها ؛ فيحدث كثيرا أن أهواء أصحاب الأمر أو الجاه فى نواحيهم ، تغتنم ذلك لتنزعها من بين أيديهم متذرعين بأية وسيلة كانت أو ترهقهم فى مطالبات مالية عليها ، تحملهم على تركها والاقلاع عن زراعتها ؛ فتعود بورا . فتنقص بذلك المساحة المنزرعة فى القطر ، وتضيع على المالية الضرائب التى كانت تلك الأطيان تدفعها . فخول (اسماعيل) لأولئك الفلاحين حق استخراج حجج ملكية لتلك الأطيان ، على أن يدفعوا جانبا يسيرا من النقود بصفة رسوم عليها . فتهافتوا على الانتفاع بالحق المخول لهم ؛ وأصبحت الأطيان التى كانوا يزرعونها وهم متخوفون ، ملكا حرا لهم ، لا يستطيع أحد منازعتهم فيه . وباتت فلاحتها مضمونة ؛ والأموال المربوطة عليها ، كذلك ؛ بعد أن كان تحصيلها موكولا إمكانه الى طوارئ الحدثان .

على أن إنماء (اسماعيل) كمية الأطيان المزروعة فى القطر إنماء كبيرا لم يكن إلا باكورة أعماله فى مضمار، كان يهمه أن يجرى شوطا بعيدا فيه، بقدر ماتهمه الفائدة التى تعود عليه منه، بصفته أكبر مزارع فى القطر.

استقدام آلات رافعة

فانه ما لبث أن استقدم من أوروبا عددا عظيما من ماكينات الرى البخارية — وكان استعمالها قد شاع هناك، وحل محل معظم الآلات الرافعة — وأقامها فى أطيانه الخاصة. فاقتدى به كبار الملاك وصغارهم، من الباشا والبك، الى العمدة والشيخ. واستوردوا من تلك الماكينات ما كاد يجعل، بسبب الدخان المنبعث عنها والمخيم فى الأفق، ضفاف النيل شبيهة بضفاف التيمس.

تطهير الترع

وتسهيلا لمهمة هذه الماكينات من جهة، ولكى يزيل من جهة أخرى الخطر الذى كان يهدد زراعة البلاد كلها بسبب انطمار ترع القطر بالطمى المتراكم فى قاعها، أقبل، بكل همة ونشاط، على تطهير الكبرى من تلك الترع — وكان أمر تطهيرها منوطا بالحكومة رأسا — وأصدر الأوامر الى المديريات بإلزام النواحى والكفور بتطهير صغرياتها المارة بها والملقى أمر صيانتها اليها. وشدد فى تلك الأوامر تشديدا كفل نفاذها. وما فتئ كل سنة يكلف المديرين بالاسراع، أيام التحاريق، فى إنجاز

حفظ الجسور

الأشغال اللازمة لحفظ جسور النيل، حفظا فعالا، حتى تكون على أتم ما يرام، فى أوان الفيضان — لأنه كان قد علم بنفسه، وهو أمير، أن الهيئات الحاكمة، كثيرا ما تهمل تلك الأشغال، أو لا توفيها حقها من العناية؛ فتصاب الزراعة والقرى بمضار جسيمة، حتى فى السنوات التى يكون فيضان النيل فيها عاديا.

إنشاء مجالس زراعية

وما كاد يمضى على تبوئه العرش ثلاثون شهرا حتى أنشأ، للدلالة على مقدار اهتمامه بالزراعة، خمسة مجالس زراعية: اثنين منها فى الوجه البحرى، وثلاثة فى مصر الوسطى

والصعيد ؛ شكل كل منها من رئيس ومهندس تعينهما الحكومة ، وأعضاء على قدر عدد المراكز فى كل مديرية تنتخبهم المجالس المحلية من الأعيان[1] .

وجعل اختصاص تلك المجالس : (أولا) الاطلاع على مشاريع كل ترميم تقتضيه الأشغال العمومية الجارية ؛ (ثانيا) درس كل مشروع خاص بانشاء أشغال جديدة تستلزمها المنفعة العامة . فاذا وافق الأعضاء على شئ من ذلك ، وزعت الأموال اللازمة لنفاذه على الجهات بنسبة مقدار استفادتها منه ومقدار نصيبها فى اجرائه ؛ (ثالثا) وعلى الأخص الاهتمام فى تحسين الشؤون الزراعية سواء أكان ذلك بالنصائح والارشادات والتعليمات التى تلقيها على الفلاحين ، أم بتشجيع كل ما من شأنه أن يوجد رقيا فى أصناف المزروعات ويزيدها جودة . فأدّى ذلك الاهتمام الى اكتشاف أحد اليونانيين نوع القطن المدعو "يوانوفيتش" ورواجه فى القطر : وهو صنف قطن كان له ، فى أيامه ، الشأن الذى بلغه فى أيامنا الصنف المعروف باسم "ساكلاريدس" ، ومكتشفه ؛ وأدى ، فى سنة ١٨٧٣ ، الى اكتشاف أحد الأقباط ، بالقرب من بركة السبع ، شجيرة قطن دعاها "قطن البامية" لمشابهتها لشجيرة الباميا ؛ وأنتت ، إذ اعتنى بزراعتها ، بثلاثة أضعاف محصول شجيرات القطن العادية . وبيع إردب بذرتها بثمن تراوح بين خمسة وعشرين وثلاثين جنيها ؛ بينما أن إردب البذرة الأخرى لم يكن يباع إلا بجنيه فقط .

وأنشأ فوق تلك المجالس ، وزارة الزراعة التى أشرنا اليها ؛ وعهد بها الى أكفأ رجاله وهو نوبار باشا ، ليكون مرجع تلك المجالس اليها : فتجد من حكمة الوزير الذى على رأسها خير مسدّد لآرائها وأعمالها . إنشاء وزارة زراعة

(١) أنظر : ماك كون "مصر كما هي" ص ١١٦

ولكن إنمـاء عدد الأطيان الزراعية، واحضار ماكينات بخـارية، بمصاريف كثيرة، من البلاد الأوروبية، وادارتها بمصاريف تكاد لا تقل عن جملة أثمانهـا الأصلية، وتوسيع نطاق الادارة الزراعية؛ كل ذلك كان يوجد لكى ينطبق الكنه على المظهر ويكون الصـيد فى جوف الفرا حقا، ألا يكتفى بتطهير الترع القديمة وصيانتها، والاعتناء بوسائل المواصلات الموجودة وحفظها، بل أن يوجه الجهد الى الاستفادة من مخترعات العصر، لانشاء ترع جديدة، ووسائل مواصلات حديثة، تكون وافية بالحاجة .

ولم يكن (اسماعيل) الرجل الذى يفوته ذلك، لا سيما وانه — مذ جعل لنفسه مرتبا سنويا، وفصل، بذلك، بين ماله الخاص ومال الخزينة المصرية — أقبل إقبالا عظيما على إنمـاء ثروته العقارية؛ وأخذ نظار مزارعه ومفتشوها — لا سيما اسماعيل المعروف "بالمفتش" — فى جميع أنحاء القطر، يبذلون من المجهود، وتفتيق الذهن، والتفنن فى حمل الفلاحين على بيـع أطيانهم الى سموه، ما صير، فى أقل من ثلاث سنوات، خمس أطيان القطر الجيدة ملكا له .

التوسع فى تعميم وسائل الرى

ولمـا كان معظم تلك الأطيان فى مصر العليا، وكان هذا الجزء من القطر قد أعوزه جانب عظيم من العناية التى أحاط (محمد على) الوجه البحرى بهـا — وان يكن قد عهد، فى أواخر سنى حياته الى لينان بك رئيس مهندسى ديوان أشغاله، أمر تحسين وسائل الرى فيـه — فما فتىء أهلوه ومزارعوه متألمين من قلة تلك الوسائل، فان (اسماعيل) بدأ فى الصعيد بتنفيذ الخطة التى وضعها لنفسه بخصوص الاكثار من حفر ترع وجداول جديدة فى القطر . وأنشأ، غربى النيل، الترعة العظمى التى سماها

ترعة الابراهيمية

"الابراهيمية" إكراما لذكر أبيه : وهى ترعة تخرج من النيل بالقرب من أسيوط،

وعرضها، من مبدأها لغاية ثلث مجراها، ثلاثمائة قدم؛ وأما عرض الثلثين الباقيين نخمسون قدما . فتسير ما بين ديروط وما فوق الواسطة بقليل، أى مسافة تسعين ميلا، على موازاة بحر يوسف، راوية مديريتى أسيوط والمنيا، وجميع الأطيان ما بين البهنسة والسلسلة العربية . ثم تستمر متجهة نحو الشمال حتى تصب فى فرع رشيد.

ولما كان الحكم، الذى أصدره نابليون الثالث فى مسألة الخلاف القائم بين الحكومة المصرية وشركة ترعة السويس، قضى بتخلى هذه الشركة للحكومة المصرية عن كل حق فى مد الترعة ذات الماء العذب من مصر الى السويس وبور سعيد، التى كانت الشركة مباشرة حفرها؛ والزام الحكومة المصرية بمدها، هم (اسماعيل) فى الوقت عينه، بنفاذ ذلك الحكم؛ لا سيما أنه كان شديد الرغبة فى إحياء ما يستطيع إحياءه من أرجاء الصحراء العربية الشمالية : فلم يمض إلا زمن يسير وسارت مياه النيل تتهادى فى مجرى الترعة، المحفورة ما بين بولاق والسويس، والمدعوة بالاسماعيلية اكراما لمنشئها . وأصبحت الملاحة ميسورة فيها حتى للسفن التى ترعة الاسماعيلية
حمولتها أربعمائة طن فانتعشت أرجاء شاسعة من الصحراء العربية ما بين مصر والسويس؛ وعلى الأخص ما عرف منها، فيما بعد، باسم "تفتيش الوادى" — وهو أرض «جسان» التى أقطعها يوسف بنى اسرائيل، على ما جاء فى التوراة . وبوصول ماء النيل العذب باستمرار الى مدينة السويس، لأول مرة منذ نشأتها، أمكن هذا الثغر أن يكبر بسرعة عجيبة ويزداد سكانا وأهمية تجارية .

وكانت القناطر الخيرية أوشكت أن تتخرب؛ تلك القناطر التى أنفق الباشا العظيم على تشييدها بمعرفة لينان بك أولا، وموچيل بك بعده، أموالا طائلة وزمنا مديدا؛ وحدثته نفسه، يوما، لتشهيل بنائها، بهدم الاهرام الأبدية واستخدام حجارتها

الضخمة فيــه[1] بل أصدر أمره بذلك مُعلا الى لينان بك؛ وصمم على نفاذه؛ لولا أن هــذا المهندس أقنعه بالأرقام، بأن ثمن المتر المكعب من الحجر الذى يستخرج من هدم تلك الآثار الفرعونية، يكلف عشرة قروش ونصفا، بين أن المتر المكعب المستخرج من المحاجر، لا يكلف أكثر من ثمــانية قروش وخمسة وسبعين فضة[2]؛ تلك القناطر، التى مات ذلك الباشا العظيم، وهى بعيدة عن التمام؛ وما زال موچيل بك، بعــده، يلح على عباس خليفتــه بنجازها، لادراك فائدتها، وكيلا تضيع ثمرة الأموال الكثيرة التى أنفقت والمتاعب الجسيمة التى كوبدت، حتى أعيا صبره وحمله على أن يقول له ذات يوم، هو أيضا، وهو يشــير الى الأهرام: « إنى لا أدرى ما الفائدة من وجود تلك الجبــال من الصخور المرصوصة فوق بعضها . فاذهب واهدمها واستخدم حجارتها فى تتميم عمل القناطر! » فاضطر موچيل — لكى يتخلص من تنفيذ أمر، كان مجرد التصوّر أنه المنفذ له، وأن اسمه سيمر، اذا، الى العصور التالية، ونعت ”هادم الأهرام“ مقرون به، يوقف شــعر رأسه رعبا — الى اعادة عمل لينان، وعرض تقرير تفصيلى بالنفقات اللازمة على ذلك الوالى الظنان . ولمــا لم يكن عباس يدرى من الأرقام شيئا، افتكرها خدعة من المهندس الغربى، قصد بهــا إلفرار من تنفيذ أمره : فألقى نظره شزرا، على ذلك التقرير؛ وقال لموچيل : « ما هذا؟ » فأفهمه موچيل مضمونه بدقة، حتى حمله على الاقتناع بأن هدم الأهرام

(١) أنظر : رونيه ”مصر مرحلة مرحلة“ ص ٣٨٩؛ وانظر : لينان دى بلفون نفســه فى مؤلفه المعنون ”بيان أهم الأعمال التى تمت بمصر منذ عهد الفراعنة الى الآن“ .

(٢) وانظر : لينان دى بلفون ”بيان الأعمال التى تمت بمصر منذ القدم الى الآن“؛ وانظر : ”حوادث ووقائع بمصر“ لسيبيون مارين ص ١١٠ وما يليها .

يكلف أكثر من استخراج الحجارة من محاجرها بكثير ، فقال له عباس حينئذ : « دعني ، اذا ، من شأن تتميم قناطرك[1] ! » .

تلك القناطر ، التي كان أول ما فيها من فائدة اغناؤها عن خمسة وعشرين ألف ساقية وشادوف ، وري أربعة ملايين من الأفدنة ، فكيف بها ، وهي ، بمنعها استمرار انصراف مياه فرع دمياط الى فرع رشيد ، لانخفاض مجرى هذا عن مجرى ذاك ، تمنع الشرق عن كل الأطيان الواقعة شرقي ذلك الفرع ؟

تلك القناطر ، التي بالحال التي هي عليها ، و بالرغم من نقصها ، كانت محط الإعجاب وموضع الفخار الأبدي .

هذه بالنسبة لمرور كل حكم عباس وسعيد عليها دون أن تنجز أو ترم ، كانت قد أخذت تؤول الى السقوط ، وكما قلنا ، فاستدعى (اسماعيل) المسترفولر ، أكبر مهندسيه ، وكلفه باتمام عملها ، حتى يبلغ درجة الكمال ، وألا يألو في ذلك جهدا حتى يفرغ منه ، مهما كلفه من نفقات ، أو استدعى من عمال .

إنجاز القناطر الخيرية

فاشتغل المسترفولر في ذلك العمل ثلاث سنوات ، حتى تمكن من إنهائه . وأبرز في سنة ١٨٧٨ القناطر الخيرية في حلتها القشيبة التي كان (محمد علي) يود أن يراها فيها لتقر بها عيناه .

فقلد (اسماعيل) بذلك ، الوجه البحري عامة ، منة ليس بعدها منة ، وأولى البلاد خيرا لو لم يولها غيره ، لكفى !

إنشاء ترع عديدة

ولكنه لم يقف في عمله عند ذلك الحد . بل ما فتئ يفحر مجاري ترع وينشئ جداول ، حتى إنه لم تنقض أيام ملكه إلا وقد خدد منها في الأرض المصرية أكثر

(١) أنظر : "مصر الخديوي" لأدون دي ليون ص ٢٦٣

من مائتين استدعت حفرا زاد ٦٥ ./ على ما أوجبته ترعة السويس، على قول المستر فولر؛ وبلغت نفقاتها ما يقرب من ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات؛ وطولها ما يزيد على ثمانية آلاف وأربعمائة ميل؛ كما أثبت المستر ملهل فى "الكنتمبوررى رڤيو" (أكتوبر سنة ١٨٨٢)؛ وبلغت مساحتها المائية مائة ألف ميل مربع .

ازدياد الآلات الرافعة ازديادا عظيما

ناهيك بزيادة الآلات الرافعة عما كانت عليه فى أيام (محمد على) زيادة هائلة؛ حتى بلغ عدد السواقى فى سنة ١٨٧٧ ثلاثين ألفا وأربعا وثمانين؛ والشواديف سبعين ألفا ومائة وثمانية وخمسين؛ والتوابيت ستة آلاف وتسعمائة وستة وعشرين؛ والماكينات البخارية أربعمائة وستا وسبعين؛ واشتغل فيها أكثر من ستين ألف حيوان، ومائة وثمانية وخمسين ألف رجل كل مائة وثمانين يوما .

إنشاء الكبارى

وناهيك بالكبارى التى أقامها على تلك الترع وعددها أربعمائة وستة وعشرون كبريا : منها مائة وخمسون فى مصر العليا، ومائتان وستة وسبعون فى الوجه البحرى؛ علاوة على ثمانية كبارى ضخمة أهمها كوبرى قصر النيل الفخم، الذى قلما كان له مثيل فى تلك الأيام، فى العالمين الغربى والشرقى معا؛ وعدّ من أفخر أعمال العالم الهندسية . وقد بلغ ما أنفق على تشييدها كلها مليونين ومائة وخمسين ألف جنيه !

زيادة الأطيان الصالحة للزراعة

فأدى هذا جميعه الى زيادة ما يقرب من مليون ونصف مليون من الأفدنة، على مساحة الأرض المزروعة فى القطر، يربو ايرادها السنوى على أحد عشر مليونا من الجنيهات، ثمن محصولات؛ وتزيد ايجاراتها، فى ذلك الوقت، على مليونين .

تحسين طرق المواصلات

ولعلمه أن تحسين طرق المواصلات يجب أن يقترن دائما بتحسين وسائل الرى، مهد أكثر من ستة آلاف ميل من السكك الزراعية، فى القطر عامة، ولا سيما

فى الوجه البحرى . ولمناسبة زيارة الامبراطورة أوچينى للبلاد المصرية فى سنة ١٨٦٩ أنشأ ، فى أقل من ثلاثة أسابيع ، السكة الجميلة الموصلة من بر الجيزة المقابل مصر الى الاهرام ، والمغروسة ، على جانبيها ، بالأشجار الباسقة التى جعلتها أهم متنزهات سكان القاهرة وأبهاها .

ولما كانت السكك الحديدية والتلغرافات أكبر وسائل للمواصلات أوجدها العلم الحديث ، كان من البديهى أن يخصها (اسماعيل) بأكبر جانب من عنايته فى سبيل احياء الزراعة من مواتها .

فلما ارتقى العرش المصرى ، لم يكن فى القطر كله سوى الخط الحديدى الواصل ما بين الاسكندرية ومصر وطوله مائة وثلاثون ميلا ، والخط الواصل ما بين بنها والزقازيق وطوله أربعة وعشرون ميلا ، والخط الواصل ما بين مصر والسويس عن طريق بلبيس وطوله تسعون ميلا ، أى ما كان مجموعه مائتين وأربعة وأربعين ميلا .

تعميم السكك الحديدية فى القطر

فزاد ، هو ، على ذلك أكثر من ألف ومائة ميل . فانه هو الذى أنشأ الخطوط : من بولاق الى اتياى البارود ، ومن الاسكندرية الى رشيد ، ومن طنطا الى دسوق ، والى زفتى ، والى دمياط ، والى شبين الكوم ، ومن الزقازيق الى المنصورة ، ومن بنها الى ميت بره ، ومن قليوب الى القناطر ، ومن الزقازيق الى الاسماعيلية والسويس على محاذاة الترعة البحرية ، ومن أبوكبير الى الصالحية ، ومن مصر الى حلوان ، والى المرج ، ومن بولاق الدكرور الى أسيوط ، ومن الواسطى الى الفيوم ، ومن أسوان الى الشلال الأول ، علاوة على ستين ميلا تحويلات . واذا عرفنا أن النفقات اللازمة لمدّ ميل واحد من هذه السكك كانت تبلغ ، عادة ، نيفا وأحد عشر ألف جنيه ، فانا لن

نستغرب أن يكون ما صرف على انشاء جميع هذه الخطوط قد تجاوز الثلاثة عشر مليونا من الجنيهات .

إصلاح ادارة السكك الحديدية

على أن ما هو أهم من أمر انشاء السكك الحديدية ، أمر اصلاح ادارتها ؛ فقد كانت فى أيام عباس ، بل فى أيام سعيد عينها ، فوضى لا ضوابط لها : يركب المسافر فى قطاراتها ، وهو غير متأكد من صدق مواعيـد قيامها ، ولا من بلوغه المكان الذى يقصده ، لكثرة ما يعتور القيام والطريق من عراقيل وموانع . فقد يكون القطار على أهبة السفر من محطة الاسكندرية مثلا ، فيأتى ناظر المحطة رسـول من قبل قنصل من القناصل العامة ، أو خصىّ من لدن أحد الباشاوات ، أو البيكوات الأتراك ، ويأمره بتأجيل ميعاد قيام القطار ريثما يأتى القنصل أو الباشا أو البيك ، أو حرم أحدهما . فيؤجل الناظر الميعاد ، ويقيم المسافرون على أحر من الجمر فى انتظار مجىء حضرة القنصل أو سعادة السرى التركى وحرمه ؛ وربما طال انتظارهم ساعات . وقد يكون القطار مسافرا ، فتتعطل عدّته ؛ أو يخرج عن الخط لجهـل السوّاق ؛ أو يصادفه مانع آخر ، كارسال أحد باشاوات الريف رسـولا الى احدى المحطات ينبئها بحجز القطار لحين تشريفه ، فيقف فى الطريق ساعات وساعات ؛ وأحيانا ، أياما ، ريثما يزول أو يزال ذلك المـانع .

حكاية ناظر محطة طنطا والمسافرين الانجليز

ويحكى ، فى هذا الموضوع ، أن القطار تعطل مرة فى محطة طنطا وفيه تجار من الانجليز قادمون من الهند وذاهبون ببضائعهم الى الاسكندرية ؛ فبعد أن عيل صبرهم من طول الانتظار ، ذهبوا ليبثوا شـكواهم من التأخير الى ناظر المحطة ، وكان انجليزيا ؛ ولكنه تزيا بزى البـلاد وتقمص فى عوائدها ؛ وتظاهر بعدم معرفة غير التركية والعربية فرارا من شكاوى الأجانب — لا سيما من بنى جنسه — الكثيرة ؛

وابتغاء للتمتع بقلة الاهتمام بالأمور وعدم المبالاة بتضييع الوقت، الخصيصتين بنا، معشر الشرقيين، فى تلك الأيام؛ واتخذ لنفسه مترجما بينه و بين الغربيين — فوجدوه فى حجرته ، جالسا على أريكة، يدخن شيشة عجمية ، ولا يعنيه من الدنيا إلا التلذذ بها والنظر الى الدخان المتصاعد منها فى الفضاء ، على هيأة أنصاف دوائر . فأفرغوا جعبة تشكياتهم أمامه بالانجليزية ؛ ومترجمه المصرى يترجمها له بالعربيـة . وهو لا يبالى بها ولا يزداد إلا تدخينا ، كأنه لا يفهم الانجليزية ولا العربيـة ؛ أو كأن الحديث غير موجه إليه . فاحتدم غيظ أولئك التجار، وقالوا للترجم : «قل لشيخك هذا الأبله أن يبطل جعل نفسه مدخنة، و يلتفت الى ما نحن فيه ؛ والا، شكوناه الى قنصلنا العام بالاسكندرية، ورجوناه أن يطلب من سمو الوالى ، أن يركله من وظيفته ركلا ! » فضحك الناظر، بين أسنانه ، لما سمع ذلك؛ ولكنه استمر متظاهرا بعدم فهمه الانجليزية ، واستمر على عدم مبالاته بقولهم، بعد أن ترجمه مترجمه له . ولم يتنازل الى إجابتهم عن لسانه إلا بعد مدة ، ليقول لهم : « على رسلكم ! تمهلوا فالأمور مرهونة بأوقاتها ! » وأضاف، لكى يثبت لهم أنه شرقى تماما، التعبير الشرقى المتداول، عادة، على الألسن، لحمل قليـل صبر على الصبر؛ وهو : « إن الله خلق العالم فى ستة أيام ! » فخرجوا من حضرته وهم يلعنونه ويحرقون الأرّم .

وكان (سعيد) ، بعد إعراضه عن نو بار مدّة ثم إقباله عليه، قد عهد إلى ذلك الرجل الحازم — ولم يكن ، حينذاك ، إلا بيكا — أمر ادخال الإصلاح فى تلك الإدارة المختلفة[1] . فبذل نو بار جهده . ولكن الخلل كان متأصلا أيما تأصل . فلم يستطع تلافيه تماما، لا سيما أن السكك الحديدية كانت ملكا للوالى . وكان تقلب

(١) أنظر : "نو بار باشا" .

أهواء (سعيد) السريع ، من جهة ؛ وميله ، من جهة أخرى ، الى إرضاء ذوى الدالة من التجار الغربيين ، والذوات ، ومهزاريه ، والقناصــل العامّة خاصــة . ولا سيّما ساباتييه ، القنصل الفرنساوى الذى كان سعيد يقول عنه ، هو نفسه ، انه لم يكن يستطيع مقابلته إلا و يشعر بوجف غريب فى قلبه وتهيب يحمله على الرضوخ لطلباته ، أية كانت[1] — يحولان دون استتباب قدمى إصلاح قطعى عام .

واستمرّت الحال كذلك فى أيام (اسمـاعيل) الأولى : لأن مفتشى مزارعه وكبار مستخدمى دائرته الخاصة ، لعلمهم أن السكك الحديدية ، بالرغم من كونهـا مصلحة عامّة ، ملك خاص به ، كثيرا ما كانوا يتجاوزون حدود الاعتدال فى تصرفاتهم مع إدارتها ، لا سيما فى مواسم القطن . فيحتكرون القطارات ، و يعطلون سفر بضائع التجار عامّة ، حتى يفرغوا من شحن بضائع مولاهم الخاصة وتسفيرها ؛ فيصيب التجار ، من جرّاء ذلك ، خسائر جسيمة . لتأخرهم الاضطرارى عن تسليم بضائعهم فى الأوقات المحدّدة لتسليمها . ويحمل الغيظ بعضهم أحيانا ، على ارتكاب أعمال حقة ، يعضدهم قناصلهم فيما بعد ، على الخروج منها بدون أذى . مثال ذلك ما فعله أحد تجار اليونان . فانه ، لمـا أيقن أنه ، بسكوته على تصرفات أولئك المفتشين والمستخدمين ، وتأخره عن تسليم الأقطان التى اشتراها إلى المحلات التجارية التى باعها لها ، قد تصيبه خسائر فادحة ربمـا ذهبت بكل ثروته ، استأجر عدّة أشخاص من بنى جنسه ، وأقامهم على المحطة المكدسة أكياسه فيها ؛ ولمـا وصل قطار البضاعة المحمل أقطان سموّ الوالى ، أوقفه ، بواسطتهم عنوة ؛ وأفرغ مشحونه ؛ وشحن أقطانه فيــه بدله ؛ وأجبر سوّاق القطار ، إرهابا ، على السير بها إلى الاسكندرية .

حكاية التاجر اليونانى الوقح

[1] أنظر : ''مصر'' لمـاورتى .

على أنه ما تقدّمت الأيام بملك (اسماعيل) ، إلا وقد تناول ظل الإصلاح جميع فروع إدارة السكك الحديدية ؛ لا سيما بعد أن اتخذ (اسماعيل) سوّاقا لقاطراته الخاصة السوّاق الذى كان لنابليون الثالث ؛ وسمع ثناء جميلا على محافظة ذلك العاهل على مواعيد أسفاره بدقة[1] ؛ ووقف بنفسه ، عقب رحلاته الأوروبية ، على نظام السكك الحديدية فى أوروبا . فترتبت مواعيد سفر القطارات ووصولها ، ترتيبا ، لم تدخل عليه الأعوام التاليات إلا تعديلات طفيفة ؛ وانتظمت انتظاما لم يعد للخلل إليه من سبيل إلا نادرا .

الاقدام على انشاء سكك حديدية فى السودان

حينذاك أخذ (اسماعيل) يفكر فى إنشاء سكك حديدية فى السودان ، ترويجا للزراعة فيه ، وللتجارة بينه وبين القطر المصرى .

فكلف المستر فولر بدرس الموضوع درسا دقيقا وتقديم تقرير واف عنه — وكانت طبيعة الأرض بين أسوان والخرطوم قد درست قبل ذلك فى سنة ١٨٦٥ درسا حسنا — فذهب ذلك المهندس الإنجليزى إلى وادى حلفا ، وقضى عدّة أسابيع ، متجوّلا فى ربوع النوبة والسودان الشرقى وبطاحهما ، يقيس ، ويبحث ، ويحسب ويفحص مباحث أسلافه . ثم عاد وقدّم تقريره إلى الأمير ، مشيرا بعمل سكة حديدية من وادى حلفا الى المتمة — وطولها خمسمائة وخمسون ميلا — وأخرى من شندى الى كسلا ، فمصوّع — وطولها خمسمائة ميل — وقدّر نفقات الأولى بأربعة ملايين من الجنيهات ، منها مليونان ونصف ، أجرة المهندسين والعمال من الفرنج وثمن الأدوات اللازمة ؛ والباقى أجرة العمال المحليين وثمن المبانى الواجب إقامتها . وقدّر

(١) أنظر : ليك ''مصر الأخيرة'' ص ٧ و ٨

نفقات السكة الثانية بأربعة ملايين مثلها، ولو أنها أقصر طولا من الأولى، لزيادة الابتعاد عن مصادر الأدوات، ووعورة المسالك(١).

فاعتمد (اسماعيل) تقريره وبدئ فى العمل سنة ١٨٧٣ وبعد أن سير فيه أكثر من ثلاث سنوات؛ وأنفق عليه ما يزيد على أربعمائة ألف جنيه؛ وأخذت بشائر الخير العميم تبدو من خلال الخطوط الموضوعة؛ اضطر الدائنون الأجانب الحكومة المصرية الى توقيفه وإبطاله ضنا منهم بالنقود. فلم يقضوا، بذلك، على مصلحة تجارية وزراعية عظيمة، فحسب، بل على حياة السودان عينها، مدّة تنيف على ربع قرن؛ ومكنوا الثورة المهدية من الانتشار، فيما بعد، فوق ربوعه وتخريبها، ونشر ظل الموت عليها: لأنه لا يختلف اثنان فى أنه، لو كانت السكة الحديدية مجتازة جهات السودان، بعد قيام المهدى محمد أحمد، لتمكنت الحكومة المصرية من القضاء على دعوته، ولما نسجت الأيام أكفان حملة هكس باشا، ولا ذهبت روح جوردون ضحية تباطؤ الحكومة الإنجليزية فى إرسال النجدات إليه، وتباطؤ (ولسلى) الاضطرارى فى السير بتلك النجدات الى الخرطوم لانقاذه(٢).

إقامة الأسلاك البرقية وإنشاء مكاتب لها

وتلا انتشار السكك الحديدية، انتشارها العظيم، تشعب مدّ الأسلاك البرقية فى البلاد.

(فمحمد على) كان قد أنشأ ما يقوم مقامها، على ما هى عليه الآن، أبنية مرتفعة ممتدّة على خط واحد بين المدن الكبيرة. وبين البناء والبناء من المسافة ما لا يحجب نظر قمة كل منهما من قمة الآخر. وأقام على كل بناء آلة على طريقة (شاپ) تلغرافى

(١) أنظر: ماك كون "مصر كما هى" ص ٢٣٩ والمؤلف عينه فى "مصر تحت حكم اسماعيل" ص ١٣٥

(٢) أنظر: مالورتى "مصر" ص ١٤٧

حكومة الكنفنسيون الفرنساوية الرهيبة ، ترسل الأنباء الى آلة البناء التالى ؛ وهذه توصلها الى التى بعدها ، وهلم جرا[1] .

فلما انتشر فى أميركا وأوروبا اختراع المستر ساموبل مورس الأمريكى — وهو التلغراف الحالى — أدخله (سعيد) الى القطر ولكنه لم يمد من أسلاكه إلا شيئا يسيرا .

فلما استلم (اسماعيل) زمام الحكم بيده القديرة ، أقبل على هذا الفرع أيضا من طرق المواصلات العمومية ، ونفخ فيه من روحه : فتشعبت الأسلاك التلغرافية فى البلاد تشعبا مدهشا فى مدّة وجيزة حتى بلغ طولها خمسة آلاف وخمسمائة ميل ؛ فيها من السلوك ما طوله عشرة آلاف وخمسمائة ميل ، موزعة كالآتى :

من مصر الى الاسكندرية...	١٤٢	ميلا على سبعة أسلاك .
« « « ضواحيها...	٣٢	« « سلكين .
« « « حلوان	١٨	« « سلك واحد .
« « « قليوب والقناطر...	١٧	« « سلكين .
« « « اتياى البارود	٧١	« « سلك واحد .
« « « السويس عن طريق بلبيس	١٥٤	« « « «
« « « المنصورة عن طريق قليوب	٩٦	« « سلكين .
« أبى كبير للصالحية	٢٥	« « «
« بنها الى ميت بره...	٩	أميال « «
« « « الزقازيق والسويس	١٢٣	ميلا « «

(١) أنظر : مانجين "تاريخ مصر فى عهد محمد على" ص ٢٤١

من طنطا الى طلخا ودمياط ... ... ٧٣ ميلا على سلكين .

« « « زفتى ... ... ٣٣ « « «

« « « دسوق .... ٤٧ « « «

« « « شبين الكوم... ... ... ١٩ « « «

« نشرت « كفر الشيخ ... ... ١٠ أميال « «

« الاسكندرية الى ضواحيها ... ... ١٢ ميلا « «

« « « رشيد ... ... ٤٦ « « «

« دمنهـور الى العطف ورشيد ... ... ٥٠ « « «

« بورسعيد « السويس ... ... ٩٦ « « سلك واحد .

« « « القنطرة ... ... ٢٦ « « «

« مصر الى غزة عن طريق بنها ... ... ٢٨٨ « « سلكين .

« « « أسيوط ... ... ٢٣٩ « « ثلاثة أسلاك .

« الواسطى الى الفيوم ... ... ٢٥ « « سلكين .

« ببا الى الروضة ... ... ٩١ « « «

« أسيوط الى أبى تيج ... ... ٥ أميال « «

« « « أسوان... ... ... ٣٠٠ ميل « «

« قنـــا « القصير... ... ... ١٦٤ « « «

« أسوان « الخرطوم ... ... ١٠١٢ « « «

« بربر الى كسلا ... ... ٤٠٧ أميال « سلك واحد .

« كسلا الى مصوع ... ... ٤٤٧ ميلا « «

من كسلا الى سواكن... ... ... ٣٠٠ ميل على سلك واحد .

« الخرطوم الى الأبيض ... ... ٤٠٧ أميال « « «

« « « المسلمية وسنار ... ... ١٦٢ ميلا « « «

وأنشأ مكاتب لهذه الأسلاك البرقية فى كل مدينة وبندر وناحية كبيرة على طول مسافات امتدادها، وقسمها الى ثمانية أقسام، وهى :

(١) محطات الوجه البحرى ؛ (٢) مابين مصر وأسيوط ؛ (٣) مابين أسيوط واسنا ؛ (٤) مابين اسنا ووادى حلفا ودنقلا ؛ (٥) مابين دنقلا وبربر ؛ (٦) ما بين بربر والخرطوم ؛ (٧) ما بين الخرطوم ومصوع ؛ (٨) ما بين مصر وسوريا . وجعل ثمن الاشارة البرقية ذات العشرين كلمة علاوة على العنوان عشرة قروش صحيحة فى كل قسم . وجعل لغة التراسل : جنوبى مصر، عربية؛ وشماليها، عربية أو فرنساوية أو انجليزية أو تليانية أو تركية . وأقام على إدارتها المستر چورچ الانجليزى وأناط أمر هندستها بالمسترهوز بورن الذى أنشأ أسلاك السودان .

وفى عهده، وبتصريح منه، أنشأت الشركة الانجليزية الشرقية خطا بين الاسكندرية والسويس وما وراء البحر الأحمر، وآخر عن طريق صحراء شبه جزيرة سينا الى سوريا والأناضول . وأنشأت شركة ترعة السويس خطا خاصا بها على طول الترعة ما بين بورسعيد والسويس . وأصبح الاتصال بأوربا والقارات الأخرى ميسورا إما عن طريق غزة وإما بواسطة الشركة الانجليزية الشرقية كالآتى :

من الاسكندرية الى الأستانة عن طريق كريت ورودس وأزمير .

« « « أوترنتو « « وزانتى .

من الاسكندرية الى ايطاليا عن طريق مالطة وسقاليا .
» » » انجلترا » » » وجبل طارق واشبونه .
» » » فرنسا » » » وبونا ومرسيليا .

أما الاتصال بين القطر المصرى والشرق الأقصى وأستراليا ونيوز يلانده فعن طريق البحر الأحمر (١) .

وبلغت نفقات إنشاء كل هذه الخطوط مايقرب من مليون من الجنيهات .

ومن ألطف ما يروى فى شأن ربط القطر المصرى، بالأسلاك التلغرافية، بالأستانة أن موظفى الحكومة المصرية لم يكونوا ليصدّقوا فى بادئ الأمر أن الكلام ممكن بين القاهرة ودار السعادة بواسطة تلك الأسلاك ؛ فأقبلوا يتخاطبون مع رجال الباب العالى ، ولا غاية لهم إلا التحقق من صحة الزعم . فلما تيقنوا من صحته ، ذاقوا من التكلم لذة فائقة ؛ فقضوا أكثر من ثلاث ساعات وهم يخاطبون الأستانة ، بكلام لا طائل تحته ويسألون أسئلة عن صحة رجالها وعن حال الطقس فيها حتى أفقدوا الخزينة المصرية مايزيد على خمسين ألف جنيه ثمن كلام فارغ .

المواصلات البريدية

وبما أننا فى سياق الكلام عن طرق المواصلات على أنواعها ، فيجدر بنا التكلم هنا عن المواصلات البريدية أيضا ؛ ولو أن علاقتها بتحسين الزراعة قليلة لا سيما فى ذلك العهد ؛ وانهـا الى موضوع ترقية الشؤون التجارية والاجتماعية أقرب منها الى غيره من المواضيع .

(فمحمد على) كان قد رتب بريدا رسميا يحمل على أيدى السعاة برا وفى السفن بحرا . واقتفى خلفاؤه (ابراهيم وعباس وسعيد) به : فلم يزيدوا عليه شيئا . ولولا إقدام الدول

(١) أنظر : ماك كون ''مصر كما هى'' ص ٢٥٨ و ٢٥٩ و ٢٦٠

الأجنبية وبعض أفراد من الجاليات الغربية على إنشاء مكاتب بريدية فى الاسكندرية ومصر وغيرهما، لاستمرت البلاد المصرية محرومة من التواصل البريدى كما كانت فى عهد المماليك .

وأشهر أولئك الأفراد السنيور موتسى الايطالى — وكان، لغاية سنة ١٨٦٥ ، قائما لحسابه الخاص بأعمال بريدية عامة فى العاصمتين ؛ يساعده جملة مستخدمين بأجور يدفعها اليهم على استلام الخطابات والمراسلات حتى الرسمية منها وتصديرها الى جهاتها وتسليمها الى أربابها .

شراء مصلحة البريد

فرأى (اسماعيل) أن استمرار وسيلة مهمة كهذه من وسائل المواصلات فى يد ادارة فردية، مع احتياج الحكومة نفسها اليها، لأمر يشين الحكومة المصرية كثيرا لأنه ينم عن تأخرها فى المضمار الجارية فيه الدول المتمدينة . فاشترى مصلحة البريد من ذلك الايطالى النشيط بمبلغ ستة وأربعين ألف جنيه؛ وأنعم عليه بلقب بك ، وأبقاه مديرا لها ؛ وخصص له ، فى ميزانية حكومته ، مبلغا وفيرا لينفقه على تحسين نظامها وترقية شؤونها .

فأبقى موتسى بك مستخدميه القدماء فيها — وكان معظمهم من الايطاليين، و باقيهم خليطا من السوريين والفرنسيين والجريك والنمساويين والروس والمصريين — واجتهد فى إنماء عدد المكاتب وحركة التراسل، بجملة إصلاحات أدخلها على مصلحته تباعا .

كليار باشا

وفى سنة ١٨٧٦ طلب اقالته منها . فمنحه (اسماعيل) مكافأة سنية ؛ وعين خلفا له انجليزيا يقال له المستر كليار (وهو الذى أصبح فيما بعد ، كليار باشا ؛ وعين مديرا عاما للجمارك المصرية ؛ وترك لنفسه أثرا جميلا فى قلوب المصريين) ولما رأى المدير

الجديد أن عدد المستخدمين أكثر مما يستدعيه العمل ؛ وأن معظمهم لا موجب لوجودهم فى المصلحة إلا دالتهم على بعض كبار موظفيها ، صرف ربعهم وأبدل بكثيرين من الباقين غيرهم من الأكفاء ، وبالخليط ، أولاد عرب بالتدريج .

وبعد أن نظم أقلام الادارة العامة ، أقبل ينشئ مكاتب جديدة فى القطر حتى أبلغ عددها الى مائتى مكتب وعشرة ، فيها ثمانمائة وثلاثون مستخدما ، عدا عن ثلاثمائة واثنين وأربعين جمالا وبربريا . وجعل توزيع المراسلات يوميا بين مصر والاسكندرية وجميع الجهات المهمة ، بعد أن كان أسبوعيا أولا ؛ فمرتين ، ثم ثلاثا فى الأسبوع . وما فتئ يحسن فيه حتى صيره الى ثلاثة وأربعة وخمسة توزيعات فى النهار على محطات السكك الحديدية الكبرى . ولما كان عدم انتظام الشوارع وعدم تمييز المنازل فى المدن والبنادر يحولان دون توزيع المراسلات على أبواب البيوت ، ويوجبان حصرها فى شبابيك المكاتب ، أنشأ فى العاصمتين صناديق خاصة لمراسلات من شاء الاشتراك فيها من التجار والأعيان .

فبلغ عدد المراسلات فى سنة ١٨٧٨ مليونين ونصفا ، معظمها تجارى . وبلغت قيمة النقود التى تصدرت ، صرا ، من عموم المكاتب ، عشرة ملايين من الجنيهات . وما من شئ أبلغ من هـذه الأرقام فى بيان مقدار الخدمات الجليلة التى قامت بهـا مصلحة البريد بعد أن جعلها (اسماعيل) مصرية .

على أننا ، اذا علمنا أنها قامت بها ، ومصالح بريد أوروبية بجانبها فى الاسكندرية ومصر والسويس ، تزاحمها فى أعمالها ، وتستدعى الى نفسها ، طبعا ، لا سيما فى أوائل قيام المصلحة المصرية ، ثقـة التراسلين الغربى والشرقى على السواء ؛ واذا علمنا أن

البريد لم يكن يستطيع السفر بين أسيوط وأسوان، وبين أسوان والسودان، إلا كل خمسة عشر يوما على سفن تجارية ، ازداد فى أعيننا قدر تلك الخدمات وازددنا ثناء على مسديها .

تعديل طريقتى ربط الضرائب وتوزيعها

بقى علينا أن نرى ما الذى عمله (اسماعيل) فى آخر سبيل من سبل توسيع نطاق الزراعة، وأعنى به كيفية ربط الضرائب على الأطيان وتوزيعها توزيعا حسنا .

فلا مشاحة فى أن القاعدة التى يجب لكل حكومة أن تقيم عليها أمر فرض الأموال على العقارات، انما هى ثمن هذه الحقيق، ومقدار ما يجنى منها من ثمار؛ ولا خلاف فى أن أثمان الأطيان المصرية ارتفعت فى أوائل عهد (اسماعيل) ارتفاعا عظيما؛ وبيعت حاصلاتها، لاسيما القطنية، بأثمان تكاد تكون نامية : وذلك بسبب الحرب الأمريكية الأهلية، وبوار زراعة الولايات المتحدة ومزارعها .

وليس من ينكر أن اتساع نطاق الرى وطرق المواصلات، الاتساع الذى بيناه ، كان من شأنه أن يجعل ارتفاع أثمان الأطيان، وزيادة حاصلاتها، مطردين .

فلا غرابة، والحالة هذه، فى أن تكون الضرائب فى عهد (اسماعيل) قد زادت على ما كانت عليه فى عهد سلفه؛ وأن يكون قد أدخل على فئاتها شئ من التعديل، فى مصلحة "الميرى" .

ولكن (اسماعيل)، قبل زيادة أى شئ فيها أو تعديله ، رأى أن يعيد فك زمام القطر كله، ويروكه روكا جديدا ؛ لكيلا يقع على أحد حيف بسبب ربط الضرائب الجديدة . لأنه كان يحدث كثيرا ، فى تلك الأيام ، أن ذوى الجشع من القابضين على القوة الادارية، وسواهم من ذوى الجاه كانوا يغتصبون أملاك صغار المزارعين،

و يضعون ايديهم عليها ، ولكن بدون نقل تكليفها الى أسمائهم : فيستمتعون بغلاتها ، و يستمرّ الفلاحون ، أصحابها الأصليون ، يطالبون بأموالها ويجبرون على دفعها .

فصدرت الأوامر ، اذا ، الى مشايخ البلاد وعمدها ، بالاجتماع فى المراكز ، وتعيين مندوبين من قبلهم يكلفون بتقديم بيان واف الى المديرين عن زمام الأطيان التابعة لدائرة نواحيهم ، وكشف بأسماء ملاكها الحقيقيين ، لكى تتمكن الحكومة من ربط الضرائب عليها ، على نسبة ما هى عليه من الجودة ، وتحصيلها ممن هو ملزم بدفعها فى الواقع .

وكانت الأطيان المزروعة كلها تنقسم الى قسمين : "خراجية" و "عشورية" .

أما "الخراجية" ، فهى التى آلت ملكيتها الى أصحابها بموجب الأمر الذى قلنا أن (سعيد باشا) أصدره بأن تكلف الأطيان على أسماء المشتغلين فيها .

وأما "العشورية" ، فهى الأطيان المعروفة بالأباعد والوسيات ، وهى التى انعم بها على أصحابها ليفلحوها فى مقابل إعفائهم من دفع أموال عليها ، مدّة معينة ؛ ومقابل ربط أموال يسيرة عليها ، بعد انقضاء تلك المدّة — وكان المنعمون بها يشترطون ، فى بادئ الأمر ، نظير هذا الاعفاء ، عودتها الى الحكومة عند موت من وهبت اليهم . ولكن هذا الشرط أهمل فيما بعد ، وأصبحت الأطيان العشورية تورث كالأطيان الخراجية . وقد بلغ مقدارها فى أواخر أيام (اسماعيل) مليونا ومائتين وخمسين ألف فدان .

فلما تم روك البلاد ، جعل متوسط ما ربط على الفدان من الطين الخراجى مائة قرش وعشرة ؛ ومتوسط ما ربط على الفدان من الطين العشورى خمسة وثلاثين قرشا ؛ علاوة على ريال أضيف الى مال كلا الصنفين من الأطيان للقيام بأعمال الرى وحفظ الترع والجسور .

فلا نزاع فى أن هذه الفئات لم تكن لتتعب الفلاحة أو ترهقها؛ وأن أقصى ما كان يؤخذ عليها هو عدم مساواة الأطيان العشورية بالأطيان الخراجية فيها، مع أن معظم الأطيان العشورية كان لايقل جودة عن مثله من الأطيان الخراجية .

ولكنه يجب ألا يغيب عن الأذهان : (أولا) ان الفرق فى المعاملة كان نتيجة تعهدات سابقة بين طرفين، لم يكن الى نقضها من سبيل إلا باتفاق هذين الطرفين معا، أى الحكومة وأصحاب الأطيان العشورية عينها؛ (ثانيا) ان معظم أصحابها، إن لم نقل كلهم، كانوا من الأغنياء الجهلاء الذين يرون فى عدم مساواتهم بالفلاحين البسطاء، رفعة لشأنهم و إجلالا لقدرهم؛ و يهمهم أن يحافظوا عليها أكثر مما تهمهم مبادئ العدالة والإنصاف؛ وانه لم يكن فى الاستطاعة، والحالة هذه، مساواتهم بالفلاحين، قسرا، إلا باحداث ثورة قد تحوّل من اقتصادية الى فتنة سيئة العواقب، كانت البلاد فى غنى عنها .

سوء طريقة تحصيل الضرائب

ولكن الذى أتعب الفلاحة وأرهقها، هو أن طريقة جباية الأموال مافتئت، منذ أنشئت حكومات فى الشرق، حتى الحلقة التاسعة من القرن التاسع عشر لمصر، آفة من الآفات الكبرى التى بليت بها البلاد؛ وأن المنوط بهم أمر تحصيل الأموال كانوا يسيئون طريقة تحصيلها، و يتجاوزون حدّ المعقول فى المواعيد التى يطالبون الفلاحين بدفعها فيها : إما لأن عين صاحب الأمر الأعلى لا تراهم، لانشغاله فى تحقيق أمنيات نفسه السامية؛ و إما لأنهم، بالنسبة لدنوهم من قلبه، كانوا متأكدين من أنه لا يشك فى اخلاصهم وأمانتهم[1] .

(١) أنظر : "مصر الخديوى" لأدون دى ليون ص ٢٣٠ سطر ١٢ و١٣ و ١٤ وص ١٨٦ سطر ٥ و٦ و٧ و ٨؛ وانظر : "مصر تحت حكم اسماعيل" لماك كون ص ١٥١

فمن المشهور، مثلا، عن اسماعيل صديق باشا، المعروف "بالمفتش" و"الصغير"، وزير المـالية، أنه كان يتبجح علانية، ويفتخر بأنه يحصـل عادة من الفلاحة المصرية مليونين من الجنيهات سنويا أكثر من الظاهر فى حساباته .

ومن المعلوم أيضا أن المديرين والحكام الآخرين المتولين شأن التحصـيل — لا سيما فى المديريات البعيدة عن العاصمة — كانوا يغتنمونها فرصة ليبتزوا من الفلاح التعيس، بوسيلة الكرباج، ما يزيدون به رخاءهم وثروتهم؛ وانهم لكى يتمكنوا من حمل الصيارفة على الثبات فى تحصيل ما يستطيعون تحصيله من الفلاح، تحت أسماء متنوعة، كانوا يأنفون من تعريفة المواعيد المقررة لدفع الأموال؛ بالرغم من أن الارادة العليا، وقرارات مجلس شورى النواب جعلتها فى الأوقات المناسبة؛ أى بعيد جناء كل محصول هام .

مساعدة الفلاحة المصرية بالمـال

وأما أن (اسمـاعيل) نفسه كان يرغب فى ألا يصاب المزارع المصرى بضيم؛ وأنه كان يفضل مصلحة الفلاحين من رعاياه على مصلحته الخصوصية ذاتها، فذلك واضح :

(أولا) من أنه — لمـا وضعت الحرب الأهليـة الأمريكية أوزارها فى أوائل سنة ١٨٦٥؛ وتسبب عن انتهائها غير المنتظر نزول أسعار القطن فى بورصة ليفربول نزولا فاحشا واصابة سوق الاسكندرية بخسائر جسيمة؛ وارتجاج الأرياف المصرية ارتجاجا سيئا فائقا لأن المزارعين، ارتكانا على أن أثمان القطن ستستمر، حتما، عالية وأسعاره متمسكة، كانوا قد توسعوا فى زراعته توسعا كبيرا، واستلفوا، لذلك، أموالا طائلة برهون عقارية، فأدى سقوط أسـعاره فجأة الى اختـلال التوازن بين قيمة الاقراض وقيمات ضمانات سـدادها العقارية، اختلالا نجمت عنـه توقفات عديدة

عن الدفع ، أوجبت شكاوى ودعاوى ، هدّدت بيوتا كثيرة بالخراب والمحق — تداخل (اسماعيل) فى الأمر وتلافاه . فأصدر ، وهو فى ڤيشى يتطبب بمياهها المعدنية ، أمره إلى ماليته ، بفحص طلبات دائنى المزارعين المصريين ، وتحقيقها ، وتسديد ما يثبت صحته منها ، مقابل إصدار أذونات بالمبالغ المدفوعة تدعى "أذونات القرى" ، يسدّد أصحاب الأملاك المدينون قيماتها الى المالية على ثمانية أقساط ، ابتداء من سنة ١٨٦٩ ، أى بعد الأزمة بأربع سنوات . فصدعت المالية بالأمر ؛ وسدّدت من ديون المزارعين المصريين ما أصدرت به أذونات قيمتها خمسة وثلاثون مليونا من الفرنكات[١] .

ولعل الذى حمل (اسماعيل) على انقاذ مزارعى بلاده من هذه الورطة التى وقعوا فيها ، علاوة على رغبته فى رفع الضيم عنهم ، رغبته فى عدم تحويل ثقة رؤوس الأموال الغربية عن الأرض المصرية ، لاعتباره هذه الثقة من عوامل تقدّم البلاد فى سبيل الحضارة ، ومن أكبر أسباب إحياء روح العمل والنشاط فيها — وإلا ، فإن المقرضين الغربيين الذين باتت أموالهم ، بسبب هبوط أسعار القطن الفجائى ، عرضة للضياع ، أو إنها ضاعت بالفعل ، لم يكونوا ليلوموا فى ذلك إلا سوء تبصرهم ، وشدّة مطامعهم ؛ ولم يكونوا جديرين بمواساة مّا ، فضلا عن العناية بهم ؛ لأن معظمهم كانوا يقرضون المزارعين بفوائد معدّلها ثلاثة أو أربعة ، وأحيانا ، خمسة فى المائة شهريا !

تضحية اسماعيل بمصالحه فى سبيل انقاذ مصالح الفلاحين من الخراب

(ثانيا) من أنه لما زاد النيل فى سنة ١٨٧٠ زيادة عظيمة هدّدت بالغرق ، ثلاثا من قرى مصر ، وبالخراب التام أهلها ، ونما الخبر الى (اسماعيل) ، أمر بكسر الجسور فوق تلك القرى ، فى وسط أطيانه الخصوصية ، لتتحوّل اليها وتغمرها المياه

(١) أنظر : ماك كون "مصر كما هى" ص ١٢٧ ؛ وانظر : "تاريخ مصر المالى" لمجهول .

المتدفقة المهدّدة : فتنجو قرى الفلاحين البائسين ومزارعهم . فكسرت الجسور ؛ وغرقت أطيان الأمير بالفعل . فأصابته ، من جراء ذلك ، خسائر قدرت بأربعــة ملايين من الفرنكات. ولكن قرى المزارعين ومحصولاتهم نجت وأبعد، عنهم وعنها ، البؤس والشقاء . فأعلن (اسماعيل) أن هذا يسره سرورا يجعل خسارته لا قيمة لهـا عنده بالمرة [١] .

فأمير هذه عنايته بمزارعى بلاده وفلاحيها ، حتى وهو فى بلاد الغربة يتطبب وهذا شعوره ، لم يكن ليرضى أن تثقل كاهلهم جباية الأموال المقررة على أطيانهم ، منهم ولئن أوخذ على شئ من المظالم والمغارم التى أحاقت بهم ، فى هذا الباب ، فانه انمـا يؤاخذ بحق ، على عدم تنزيله العقاب الصارم بموظفيه المجرمين المتجاوزين الحـدود فى ذلك ، مثلما أنزله باسماعيل صديق باشا كبيرهم ، وعلى سماحه لنفسه بأن تغيب تلك المظالم والمغارم عن نظره وهو يتطلع الى آفاق كان من شأن شرور الحاضر أن تتضاءل فيها ، وتتوارى أمام عظمة المستقبل وزهوه وخيراته الجمة ، التى كان يسعى الى تحقيقها !

على أن عذره فى ذلك ، هو أنه لابد ، لجانى الورد ، من وخز الشوك ؛ ولا مفرّ ، لقاطف العسل ، من ابر النحل !

---

(١) أنظر : "كارل دى بريير باريسى فى القاهرة" ص ١٨٢

الفصل الثالث (١)

فتح أبواب التجارة والصناعة والعمل

"هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا
فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور"
«قرآن شريف»

إطلاق التجارة من عقالاتها

ان التجارة أصبحت حرة، مذ تنكب محمد سعيد باشا جادة الاحتكار؛ وشاد حرية الأخذ والعطاء على القوائم الأربع الآتية :

(الأولى) ان كل فلاح مصرى حرّ فى انماء المحصول الذى يراه أكبر فائدة له من سواه .

(الثانية) أنه حرّ فى بيع محصوله نقدا لأى مشتر يشاء وبالثمن الذى يريده .

(الثالثة) ان التجار أحرار فى نقل المحصولات التى يشترونها، بجميع الوسائل، برا وبحرا كما يشاءون .

(الرابعة) ان عموم الدخوليات والجمارك الداخلية تلغى، منعا لتحمل البضائع مصاريف تضاعف أثمانها (٢) .

وكانت الحكومة المصرية قد قررت فى عهد عباس — ولا ندرى لماذا — ألا تخرج السفن من ميناء السويس إلا بالترتيب . فما دامت السفينة التى عليها رقم ١، مثلا

(١) أهم مصادر هذا الفصل : "مصر المعاصرة لمريثو"، و"رسائل من مصر" لسنت هيلير، و"مصر فى عهد اسماعيل" لسانتى، و"تاريخ المالية المصرية" لمجهول، و"مصر كما هى" لماك كون، و"مصر فى أيام محمد على"، و"سياحة بمصر فى أيام محمد على" لكلر مسكاو، وعلى الأخص "مذكرات عما تم بمصر من الأعمال الهامة من أيام الفراعنة الى الآن" للينان دى شفون .

(٢) أنظر : مريثو "مصر المعاصرة" ص ٧٣

لم تلته من مشحونها ، أو لا تزال غير مستعدة للسفر ، فان السفينة التى عليها رقم ٢ تضطر الى الانتظار وعدم الخروج ، ولو أنها قد انتهت من شحن مشحونها وباتت على غاية الاستعداد للرحيل ؛ وهلم جرّا[1] .

فشاحنو البضائع الى موانئ البحر الأحمر كانوا يضطرون ، مهما استدعت ارسالياتهم من اسراع ، الى الانتظار ، ريثما يروق الاقلاع لصاحب السفينة السابق رقمها رقم سفنهم . فان لم يرق له ، ورغبوا ، هم فى السفر ، تحتم عليهم الخضوع لكل الشروط التى يوحى بها الطمع . فينجم عن ذلك أحد أمرين : إما أن تزيد مصاريف الشحن زيادة فاحشة ، وإما أن تتأخر البضائع فى السويس تأخرا ضارّا .

فألغى محمد سعيد باشا هذا النظام ؛ واستبعد من قوانين الموانئ كل ما من شأنه إيجاد عراقيل فى سبيل الاتجار .

فنزل سعر الشحن نزولا محسوسا جدّا وراجت الأسواق التجارية رواجا عظيما ؛ كانت نتيجته ، من جهة ، أن التجارة الخارجية سارت فى طريق الصعود سيرا حثيثا ؛ وارتفعت حركة الثغر الاسكندرى — وكان المصدر العام لها تقريبا — من ٨١١٧٣٠٥٠ فرنكا فى سنة ١٨٤١ الى ١٨٣٩٠٢٠٠٠ فرنك فى سنة ١٨٥٦ والى نحو مائتى مليون فرنك أى ما يقرب من ثمانية ملايين من الجنيهات فى سنة ١٨٦٢

وتلا ارتفاعها أن اتخذ النشاط التجارى فى الاسكندرية شكلا لم تعهده القرون الأولى فيها ، منذ الفتح العربى ؛ وأنشأ بورصة مالية انتشرت المضاربات فيها ، على أثر صعود أسعار القطن فى سنة ١٨٦٢ ، بسبب الحرب الأهلية الأمريكية ، انتشارا

(١) أنظر : مريشو "مصر المعاصرة" ص ٧٦

مروّعا ، ضارع فى شدّته وعنفه المشاهد منه فى العواصم الأوروبيـة ؛ وأدّى الى ثروات عظيمة زالت بسرعة بخائية عظيمة أيضا ، لقيامها على بيع وشراء يعقد بالكلام لا بالتسليم وتحوّل الى الغير بمكاسب طائلة أو بخسائر فاحشة .

وكانت نتيجة الرواج ، من جهة أخرى ، أن التجارة الداخلية انتقلت الى أيدى الأهلين ، وانحصرت فيهم شيئا فشيئا ، لتفوّقهم على عمـال التجار الأجانب فى معرفة عادات البلد وتقاليده ولغته وأساليبه ؛ ولا سيـما لقناعتهم فى المأكل والمكسب . وأصبحت المراكب والسفن الشراعية التى تجتاز المحمودية ، على الأخص ، ومجارى النيل ، على العموم ، مشحونة ، ان لم يكن كلها ، فجلها ، ببضائع لتجار من الأهلين ، اشتروها من المزارعين مباشرة ، فى داخلية البلاد ، ليبيعوها فى الاسكندرية الى التجار الأجانب نقدا وعدّا .

المـرأة التاجرة الرثة الملابس

وقد قال يومئذ أحد كبار التجار الغربيين لكاتب فرنساوى بليغ كان قد زار البلاد فى أواخر سنة ١٨٥٦ ، وهو يشير الى امرأة مصرية ، حافية القدمين ، ومرتدية لباسا يكاد يكون رثا : «أترانى اذا قلت لك إنى دفعت الآن الى هذه المصرية ، ذات المظهر الحقير المبتعدة أمامك ، أربعمائة جنيه انجليزى ثمن بضائع أتتنى بها ، أتصدّقنى؟ (١) » .

وحمل اتساع التجارتين الخارجية والداخلية سعيد باشا على انشاء شركتين للملاحة : إحداهما بحرية ، والثانية نيلية .

إنشاء الشركة المجيدية للملاحة

فالأولى ، ودعيت "المجيدية" ، إكراما للسلطان العثمانى عبد المجيد ، تأسست بفرمان همايونى استصدره محمد سعيد باشا فى أواخر ربيع الأوّل سـنة ١٢٧٣ من

(١) أنظر : مريئو "مصر المعاصرة" ص ٧٥ ، وسنت هيلير "رسائل من مصر" .

السلطان المذكور؛ و برأس مال قدره عشرون مليونا من الفرنكات، مقسم الى أربعين ألف سهم، قيمة السهم الواحد خمسمائة فرنك . وغرضها استغلال شواطئ القلزم لغاية الخليج الفارسى استغلالا تجاريا؛ ونقل الحجاج الذاهبين، سنويا، الى الأقطار الحجازية، لتأدية الفريضة المقدّسة، نقلا سريعا منظما؛ وربط نظام الملاحة فى البحر الأحمر، بنظام سفن بخارية تمخر فى البحر الأبيض المتوسط؛ وتقوم بخدمة سواحل السلطنة العثمانية .

وقد وضعت هذه الشركة تحت رياسة الأمير مصطفى فاضل، أصغر أنجال ابراهيم باشا الكبير؛ وعين لها بطريقه استثنائية، مجلس ادارة مؤلف من نوبار بك وكيلا للرئيس ومراقبا لعموم أعمال الشركة فى حال تغيب سموّه؛ وكان من كبار الموظفين المصريين والتجار الأجانب .

إنشاء شركة الجر

والثانية، ودعيت "الشركة المصرية لقيادة السفن بالبخار على النيل والترع المصرية" تأسست برأس مال قدره خمسة ملايين من الفرنكات؛ وبامتياز من محمد سعيد باشا فى ٩ محرم سنة ١٢٧١ (٢ أكتوبر سنة ١٨٥٤) الى مؤسسيها، وهم زمرة من كبار التجار الغربيين؛ أشهرهم ذكرا السنيور پوپولانى؛ وبعض كبار موظفى الحكومة المصرية كذى الفقار باشا، المشرف العام على المالية المصرية؛ وكوينج بك سكرتير سموّ الأمير الخاص؛ وموچيل بك كبير مهندسيه . وغرضها الانفراد بقوّة البخار لجرّ بضائع الوارد والصادر فى عموم دائرة القطر المصرى، على النيل والترع المصرية بطلب من أصحاب المراكب المشحونة فيها تلك البضائع، وبالأسعار التى تضعها الحكومة المصرية لكل صنف منها . وذلك الانفراد مقابل انشائها طلمبات نارية فى العطف تكون قوتها كافية لحفظ المحمودية دائما فى حال صالحة للملاحة ولرى عشرين ألف فدان

ريا صيفيا ، وتزويد الاسكندرية بالماء اللازم لها ، حتى فيما لو غيرت الحكومة طريقة المجارير المائية فيها .

غير أن هاتين الشركتين المساهمتين — وكانتا أوّل ما تأسس من نوعهما فى القطر المصرى ، ولذلك توسعنا قليلا فى ذكرهما — بالرغم من أن مدّة أولاهما جعلت ثلاثين سنة ، ومدّة ثانيتهما خمس عشرة سنة لم تقوما بأعمالها ، أعواما قليلة ، حتى تطرّق الخلل الناجم عن الاهمال وعدم الاعتناء ؛ لا سيما بعد أن أخذ المرض من (سعيد) مأخذه . فخسرتا جانبا كبيرا من رأسى مالهما ؛ وبات الخراب التام يهدّدهما حينما آل الأمر إلى خلفه .

فشمر (اسماعيل) عن ساعد الجدّ فى هذا الباب من المصلحة العامّة ، ومدّ يده الى الشركة المجيدية ، فجمع ما بقى من حطامها ؛ ثم صفاها ؛ وأنشأ ، محلها ، شركة جديدة ، دعاها "العزيزية" إجلالا للسلطان عبد العزيز ، كان جل رأس مالها من جيبه الخاص وساعده على ذلك ثروته الشخصية حينما ارتقى عرش مصر فقد كان إيراده لا يقل عن مائة وستين ألف جنيه سنويا ولم يكن عليه دين مّا ؛ وجعل مهمتها القيام بالشأن الذى أسست المجيدية من أجله .

ولما رأى أعمال الملاحة سائرة على أتم ما يرام فى البحر الأحمر وعلى سواحل البحر المتوسط العثمانيـة ، وريح اليسر والرخاء نافخة فى قلوع "العزيزية" ، تاقت نفسه الى توسيع نطاقها وجعل سفنها تمخر فى المياه الاوروبية ، حاملة فى مرافئها الجنوبية ، الراية المصرية وهى خافقة فوق بضائع مصرية .

فأرسل اثنين من أخصائه ومن كبار رجال الجاليتين الايطالية والفرنسية ، يدعى أحدهما السنيور فرنشسكو بينى بك ، والثانى المسيو چورنو بك الى البندقية ومرسيليا ،

ليمهدا له سبل العمل والنجاح فيهما . فعقدا اتفاقا فى ايطاليا وفرنسا ، ولكنهما صادفا ، من منافسة ومن حسد الملاحة الأجنبية هناك فى ايطاليا وفرنسا ، لا سيما من شركتى البننسيولر والأورنيتل الانجليزية ، والمساچيرى امپريال ماريتيم الفرنساوية ، ما اضطر الأمير الى العدول عن فكرته ، والاقتصار على ملاحتى القلزم وسواحل البحر الأبيض الجنوبية ، وتحويل جهوده فى إنماء تجارة بلاده الى وجهات أخرى [1] .

إنشاء عدة شركات مساهمة

فطفق ، من جهة ، يعضد ، بأمواله الخصوصية ، رؤوس الأموال الفردية ، لتكوين شركات مساهمة عديدة ، بدون نظر الى جنسية المساهمين فيها ، أو دينهم : فتأسست ، بحضه ، وتحت تأثير موحيات رغائبه ، و برؤوس أموال كان ما يخصه فيها أهم رؤوس الأموال الفردية المكتتب بها ، شركة اعتمادات مالية زراعية مساهمة ، غرضها تسليف المزارعين ، ولا سيما أصاغرهم ، نقودا بفوائد خفيفة لانقاذهم من أيدى المرابين اليونانيين واليهود وغيرهم ؛ وشركة مساهمة لاستيراد الماكينات البخارية من أوروبا ، وبيعها الى المزارعين المصريين بأقساط تناسب درجة ثرواتهم ، وتركيبها فى الأماكن التى تعين لها ؛ وشركة مساهمة ثالثة للقيام بنفاذ مشاريع الرى والطرق الزراعية التى تقرها المجالس المحلية وتعتمدها الحكومة ؛ وشركة رابعة لاستغلال السودان والاتجار بحاصلاته المتنوعة . وعمد فيما بعد إلى تأسيس شركات اعتمادات مالية لتعزيز مركز مصر المالى وتحريره من الاحتياج الى رؤوس الأموال الغربيــة ، كمصرف أهلى أو مصرف عقارى ، يكون هو أكبر مساهميها وأهم عملائها . وأنشأ ، أثناء وجوده فى باريس سنة ١٨٦٩ بالاشتراك مع الخواجات ا . دى . چيراردين وأعوانه الماليين الشهيرين الذين عرفه بهم نوبار باشا "الشركة العمومية المصرية" للاتجار

(١) أنظر : "مصر فى عهد اسماعيل" لسانتى .

والاستغلال، لحفر ترعة كبرى لرى جزء الوجه البحرى الشمالى الغربى — فدفع، هو، معظم رأس مالها وكل مصاريف تأسيسها — وأسس كذلك المصرف (البنك) الفرنساوى المصرى، بالاشتراك مع المسيو ليفى كريميي اليهودى الذى ربط بين سموّه وبينه وثاق صداقة متينة رجل مالىّ كان مخصصا لخدمته فى تلك العاصمة[1].

تصليح ميناءى السويس والاسكندرية وتوسيعهما

وطفق، من جهة أخرى، وهو يعمل على توسيع نطاق السكك الحديدية — أساس رقىّ كل تجارة فى العالم، بل كل رقىّ على الاطلاق — يفكر فى جعل ميناءى الاسكندرية والسويس — وهما أكبر الثغور المصرية على البحرين الأبيض والأحمر — على درجة من الاتساع والأمن يتسنى لهما أن يباريا أكبر الموانئ العالمية فى أهمية حركتهما التجارية.

أما السويس، فان شركة البنسيولراند أورينتل الانجليزية كانت قد طلبت فى سنة ١٨٤٢ من (محمد على) أن يأذن لها باجراء أعمال هامّة فيها، تجعلها فرضة فسيحة أمينة، وإنشاء حوض عام لتصليح السفن؛ فأبى.

فلما آلت الأحكام الى محمد سعيد باشا رفعت اليه شركة المساچيرى امپريال مار يتيم طلبا فى المعنى عينه؛ وتوسمت منه قبولا لما اشتهر عنه من الميل الى فرنسا وحبه للفرنساويين. فعضد طلبها المسيو براڤيه — وكان أخص أخصاء محمد سعيد باشا. فأجابها اليه فى سنة ١٨٦١؛ واتفق معها على أن يدفع لها سبعة ملايين من الفرنكات على أن تقوم هى بعمل الحوض العام، فقط؛ علاوة على تقديمه يد السخرة المصرية اليها لتستعين بها على نجازه.

(١) أنظر: "تاريخ المالية المصرية" لمجهول.

فكلفت الشركة بالعمل محل دوسو اخوان Dussau — وهو الذى بنى فيا بعد ميناء بور سعيد — وشرع ذلك المحل فى سنة ١٨٦٢ ولكن الحكومة المصرية رأت، بعد ذلك، لأسباب لا داعى الى بيانها هنا ، أن تمنع يد السخرة ، وتعوض الشركة منها باعطائها مليونا ونصفا من الفرنكات، علاوة على السبعة المتفق عليها . ولم يقف سخاؤها عند هذا الحد بل تجاوزه حتى وصل المبلغ الى تسعة ملايين . على أن العمل لم يتم إلا فى عهد (اسماعيل) ؛ ولم يفتح الحوض المذكور إلا فى سنة ١٨٦٦

فأراد (اسماعيل) أن تعمل ميناء واسعة هناك ؛ لا سيما بعد الفراغ من عمل ترعة السويس وفتحها . فأمر، فشرع فى العمل فى سنة ١٨٧٠ وأنشئ حوض خارجى دعاه (اسماعيل) "بور ابراهيم" ، إكراما لاسم أبيه الهمام، وربطه بالسويس بسكة حديدية، أنشأ الى جانبها سكة عربات ؛ وما زال يعمل ويحسن لتأمين السفن وراحتها حتى بلغ مجموع ما أنفقه فى هذا السبيل ، مليونا وخمسمائة ألف وعشرة آلاف جنيه .

أما ميناء الاسكندرية — وطولها ستة أميال وعرضها ميلان بين رأس التين ورأس العجم من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، وهى مقفلة من كل جانب إلا من هذا الجانب الأخير — فان (اسماعيل) كان قد أحس بوجوب تصليحها منذ ارتقائه سدّة جدّه، لمسه ، بيده، المضار الناجمة عن قيام الصخور متشعبة فى مدخلها ومجراها . ولكن ذلك الاحساس زاد فيه، بعد فتح ترعة السويس ، زيادة لم يعد يستطيع معها صبرا على بقاء الحال كما هى ؛ لا سيما بعد أن رأى تحوّل جانب عظيم من تجارة الاسكندرية بسبب صعوبة مدخل مينائها إلى مجرى تلك الترعة البحرية .

فعقد، قبل نهاية سنة ١٨٧٠، عقدا مع محل جرينفلد وشركائه الهندسى بلندن، كلفه بمقتضاه باقامة حاجز ضخم خارجى؛ وإنشاء ميناء داخلية؛ وبناء أرصفة فيها للسفن، تكفل لها وللمسافرين الراحة التامة، نظير تقاضيه مبلغ مليونين من الجنيهات الانجليزية .

فبعد بضعة أشهر صرفت فى تجهيزات لم يكن منها بدّ (ووجد المهندسون الانجليز، فى خلالها، سبيلا الى جعل المليونين المتفق عليهما — بالرغم من احتوائهما على زيادة فى التقدير تبلغ ثمانين فى المائة، أسوة بجميع الأشغال العمومية والخصوصية التى قام بها مهندسون غربيون فى عهد (اسماعيل) — مليونين ونصفا، وذلك باضافتهم بعض تعديلات الى التصميمات والرسوم الأصلية) شرع فى العمل فى بدء ربيع سنة ١٨٧١، بعد حفلة شائقة وضع الخديو فيها بيده أوّل حجر فى ذلك الميناء الفخم .

فسير بالحاجز، أوّلا، جنوب منارة رأس التين الغربى، وعلى بعد خمسين مترا منها، مسافة قدرها ألف متر . ثم ميل به نحو الجنوب الجنوبى الغربى مسافة قدرها ثلاثمائة وخمسون مترا : واجتيز به الثغر كله . فاذا به ميلان يشتملان على ألف وأربعمائة فدان مياها هادئة تستطيع أكبر مراكب العالم وعمارات الدول كلها الرسو باطمئنان والاجتماع براحة فيها . واذا بالمدخل الأهم دائر خلف الحاجز الجنوبى الغربى على بعد ١٥٠٠ متر من الشاطئ، والممرّ الضيق لدخول المراكب الصغيرة وخروجها، الى جهة رأس التين . واذا بالبناء قد برز على علوّ سبعة أقدام فوق كل عالٍ قد تبلغ اليه أمواج البحر فى أشدّ ارتفاعها . وشمل، من جهة الشاطئ الحاجز (Mole) الواسع، على مسافة تسعمائة متر من فم المحمودية، لجهة رأس التين . واشتمل على أرصفة طولها ١٤٤٠ مترا في منتهي المتانة والجودة .

ثم أوصل ذلك جميعه بسكة حديد القبارى ، بخط حديدى أنشئ لهـذا الغرض خصيصا . فأصبحت القطارات تستطيع تفريغ مشحونها على الأرصفة الراسية البواخر بجانبها مباشرة، وتستطيع البواخر تفريغ مشحونها مباشرة أيضا، فى القطارات العاجة التى تملأ صغار قاطراتها تلك الأرصفة ! وبلغت قيمة ما تقاضته الحكومة من الرسوم سنويا من السفن الداخلة الى ذلك المرفأ لغاية سنة ١٨٧٧ مائة وثلاثين ألف جنيه (١) .

على أن همة (اسماعيل) لم تقتصر على توسيع ميناءى السويس والاسكندرية ؛ ولكنهـا تناولت موانئ البحر الأحمر القصية عينها ، من القصير الى زيلع وبربرة ، وأدخلت عليها من التحسينات ما كان متناسبا مع انتعاش حركة السودان التجارية ، فى عهده ، ونموها .

إنشاء المنارات البحرية

ولعلم (اسماعيل) أنه لا بد للموانئ ، لكى تقوم بعملها قياما نافعا فى النهار والليل ، من منارات فيها ، ترشـد السفن الى أحواضها الداخلية الأمينة ، وتدرأ عنها أخطار الشعاب الصخرية ، أكثر من انشاء هـذه السرج الجزيلة النفع على جميع شواطئ مملكته المترامية الأطراف .

فانه ، حين أدركت (سعيدا) منيته ، لم يكن من تلك المنائر سوى منارة الاسكندرية ونور عائم فى خليج السويس ، فما ابتعدت الأيام بملك (اسماعيل) إلا وقد قامت سبع منارات عظيمة على ساحل البحر الأبيض ، غير الصغرى منهـا ، وسبع أخرى على سواحل البحر الأحمر ، وواحدة على ساحل الأوقيانوس الهندى . وإليك بيانها :

(أوّلا) على ساحل البحر الأبيض : أربع بالاسكندرية وهى : منارة رأس التين تبعث أنوارها المتألقة الى بعـد عشرين ميلا ، ومنارة طرف الحاجز ، تبعث أنوارها

(١) أنظر : ماك كون "مصر كما هى" ص ٢٥١ و ٢٥٢

الى بعد ستة أميال ؛ ومنارة العجمى ؛ ومنارة الخليج الغربى ؛ ثم منارة رشيد ، ونورها الأبيض والأحمر جميل للغاية ؛ ومنارة رأس البرلس ، ونورها أبيض ثابت ؛ ومنارة دمياط ، ونورها أبيض كذلك ؛ ومنارة بورسعيد الكبرى ، وهى مثيلة منارة الاسكُندرية ، وتبعث أنوارها الجميلة الى بعد عشرين ميلا .

(ثانيا) على ساحل البحر الأحمر : منارة السويس الكبرى ، تبعث أنوارها على بعد ثمانية عشر ميلا ؛ أنشئت فى الميناء ، علاوة على النور العائم فى الخليج والنور الأبيض المقام على مدخل الثغر ؛ ومنارة أخرى دون الكبرى بقليل ، تبعث أنوارها الى مدى أربعة عشر ميلا ، من قمة رأس الزعفران ، الواقع على بعد خمسين ميلا جنوبى السويس ؛ ومنارة ثالثة مثلها يرى نورها من بعد أربعة عشر ميلا كذلك ، على قمة رأس غريب ، ويبعد عن رأس الزعفران جنوبا خمسين ميلا أخرى ؛ ورابعة ، أقوى منها ، فى جزيرة الجبل ، على مدخل الخليج ، تبعث أنوارها الى بعد ثمانية عشر ميلا ؛ وخامسة قائمة على صخور ديدلوس فى وسط البحر الأحمر فى خط ٢٤ و ٥٥ شمالا ، تبعث أنوارها الى بعد أربعة عشر ميلا ؛ وسادسة مثلها فى سواكن ؛ وسابعة فى الوجه بمحطة الأربعينيات (الكورنتينات) .

وأما التي على ساحل الأوقيانوس الهندى ، فواحدة فى بربرة ، قائمة هناك ، دليلا ساطعا على نور المدنية والحضارة المنبعث عن (اسماعيل) الى أقصى أطراف مملكته ، والمنبئ بشروق شمس أيامه فى شرق القارة السوداء ، لتبدّد غياهب ظلماتها الهمجية وتخترق حجب دياجيرها المدلهمة .

وقد بلغ ما أنفق فى اقامة هذه المنارات الشاهقة العديدة التى كان معظم حرّاسها من الانجليز الخبيرين بعملها ، نيفا ومائة وتسعين ألف جنيه ؛ وقد اعتنى بها وبتنظيمها

اعتناء جعلها فى مقدّمة مثيلاتها فى البلاد الغربية عينها، وجعل مايتقاضى من الرسوم على السفن المنتفعة بها يزيد على ماتستدعيه صيانتها من نفقات — والفضل فى ذلك الى مديرها العام ماك كيلّوب باشا[1] .

وكانت السفن التى تجتاز قنال السويس الى الشرق الأقصى تدفع رسوما فى ذهابها وإيابها؛ وأما التى تقف فى السويس ثم تعود الى بور سعيد فلم تكن تدفع سوى رســوم الذهاب ؛ والسفن الحربية لا تدفع شيئا؛ وأما السفن البريدية فكان يعمل خصم قدره ٥ ٪ .

إحياء الصناعة والفن

ولعلم (اسماعيل) ، أيضا ، أن نفخ روح الحيــاة فى أصناف الصناعات والفنون وأبواب العمل ، من شأنه أن يضاعف الحركة التجارية باكثار مستورداتها وصادراتها أكب على الأمرين معا بكل نشاط نفسه النشيطة .

أما الصناعات والفنون — وقد كانت مصر فى أيام الفاطميين والأيوبيين ، بل فى ذات أيام السلاطين المماليك من بحريين و برجيين ، مهبطها وكعبتها — فان الحكم التركى المملوكىّ — الذى أنشأه فى الديار السلطان العثمانى سليم خان الأوّل عقب انتصاره على جنود طومان باى البواسل ، فى واقعة الريدانية ، وذبحه نيفا وخمسين ألفــا من سكان القاهرة ، وسلبه كنوزها ونفائسها وتسييره صناعها ومشاهير رجال فنونها الى الأســتانة ، مع الزمرة من أعيانها التى اعتقلها فيها صحبة المتوكل على الله آخر خليفة عباسى بمصر — كان قد قضى عليها قضاء مبرما؛ كما قضى على كل حركة حيوية غيرها : فبت ترتاد البلاد من الاسكندرية الى أسوان فلا تجد مصنعا واحدا من

(١) أنظر : "مصر كما هي" لماك كون ص ٢٥٦ وما يليها .

المصانع العديدة التي كانت تعمل فيها النفائس والطرف من أنواع ما تحفظه دار آثارنا العربية بمصر، اليوم .

عمل (محمد علي) في ذلك

فلما استلم (محمد علي) زمام الحكم بيده القوية، وصفا له الجو بزوال أيام معارضيه من مماليك وغيرهم، ووقع في خلده أن ينشئ في مصر، ومن مصر، دولة شابة يقيمها على جبهة الشرق، ساطعة السنا، رأى أنه لا بد له من احياء الصناعات والفنون فيها، ليتمكن من نيل أغراضه وقضاء أوطاره .

وأقبل ينشئ المعامل والمصانع في كل جهة؛ منها ما هو لصنع الأشياء الشرقية التي كانت البلاد تصنعها في أيام عزها السابق — ونرى بعضها الآن مما صنع في عهده في قصور أفراد أسرته الكريمة و"سراياتهم"؛ ومنها ما هو لصنع الأشياء الغربية المستوردة من الخارج .

تلك المعامل والمصانع أقيمت، في الوجه البحري : بمصر، وقليوب وميت غمر وزفتى والمحلة الكبرى وسمنود والمنصورة ودمياط وفوّة وشبراخيت الخ . وفي الوجه القبلي : في بني سويف والمنيا ومنفلوط وأسيوط وطهطا وجرجا وسوهاج وإخميم وإسنا الخ؛ واشتغل فيها نيف وعشرون ألف عامل .

ولكنها، بالرغم من وجود الرؤساء المستقدمين من أوروبا حتى من أميركا بكثرة فيها، لتعليم الصناع المصريين المشتغلين تحت ادارتهم، ما لبثت كلها أن تعطلت وأقفلت في عهد (محمد علي) عينه، ما عدا معمل الطرابيش بفوّة، فانه بقي قائما بفضل استيراد جميع أفراد الجيش والهيئة الادارية طرابيشهم منه .[1]

(١) راجع كتابي هامون ومانجين في هذا الصدد، وعلى العموم كل ما كتبه الكتّاب الغربيون في هذا القسم من تاريخ (محمد علي) من موجودات دار الكتب المصرية . فلا سبيل الى حصرها وبيانها في هذه الحاشية .

والمرجع فى هذا البوار والتعطيل الى سببين رئيسيين : (الأول) عدم وجود المواد الأوّلية كالحديد والفحم، فى البلاد، وضرورة استحضارها من الخارج بأثمان باهظة كان من شأنها جعل مجاراة المصنوعات المصرية للصنوعات الأجنبية، فى أثمانها، ومساواتها فيها، أمرا متعذرا؛ و (الثانى) أخذ الحكومة المصرية بمبدأ الاحتكار التجارى، وهو مبدأ من شأنه قتل كل همة فردية والقضاء على روح كل إقدام.

ولم تجد الصناعة تعضيدا من خلفاء (محمد على) الثلاثة الأول. فابراهيم لم يعش؛ وعباس لم يهتم؛ وانصرفت الأمة فى مدّة سعيد بكلياتها وجزئياتها الى الفلاحة، عقب التسهيلات التى قدّمت لها، ولم تكن قد اعتادتها. على أن تهافت الأجانب على القطر فى مدّة سعيد، أوجب توسع العمارة بالاسكندرية، مع ما توجبه شيئا فشيئا من تغيير معالم، ونشوء مصانع ميكانيكية؛ ولكنه لم يدخل تغييرا محسوسا، حتى ولا تعديل على نظام الصناعات والفنون البلدية.

نظام الحرف

فبقى هذا النظام معمولا به كما كان منذ قديم الزمان : أثرا للماضى الفرعونى؛ واتخذ من العصر التركىّ اسما جديدا لم تعهده مصر العربية وهو "الطوائف".

فكل صناعة أو حرفة كان يقال لها "طائفة" وكان لكل طائفة شيخ ينتخبه كبار رجاله، وتصدّق الحكومة على تعيينه مقابل رسم يدفعه اليها، ويختلف مقداره مع اختلاف الأيام.

فمتى تعين الشيخ رسميا، أصبح حاكم "الطائفة" المطلق والمسؤول الوحيد عن كل شؤونه. فهو الذى يحدّد أثمان العمل؛ ويرتب درجات الأجور؛ ويقبل دخول أعضاء جديدين فى الطائفة؛ ويرشد الى كيفية إنجاز الاتفاقات؛ وينتدب الصناع

الذين يتجزونها ؛ ويجمع العوائد المفروضة على رجال الطائفة ؛ ويمنح الأعضاء ، ساعة قبولهم ، الشهادات التي تثبت كفاءتهم وتبين مقدار الأجرة اليومية الواجبة لهم ؛ لأنه اذا جاز لرجل الطائفة أن يقاول على الشغل بالقطعة ، لم يكن يجوز له أن يقاول عليه باليومية لأن يوميته كانت معلومة ومبينة فى شهادته ، ولا سبيل له الى زيادتها ولا الى تنقيصها . فكانت المزاحمة ، والحالة هذه ، معدومة بالمرة ؛ وكان العمل على العموم تحت رحمة شيوخ "الطوائف" ؛ فاذا بلغهم أن أحد رجال الطائفة اشتغل بأجرة زائدة على المبينة فى شهادته أو ناقصة عنها جاز لهم أن يطلبوا عقابه من الحكومة وحبسه وينالونهما .

على أنه كان يباح للصانع أن يشتغل فى فرعين من فروع فنه بشرط دفع ضريبة مضاعفة ؛ كذلك اذا احترف بحرفتين — وهو ما كان نادرا — إلا اذا اتفق سرا مع الشيخ ، وحمله برشوة على غض نظره (١) .

أما الصناعة الغربية المستوطنة ، فلم تكن خاضعة لهذا النظام . ولكنها لقلتها ، لم يكن فى استطاعتها أن تزاحم الصناعة المحلية ، مزاحمة محسوسة . ومن المعلوم أن قلة المزاحمة تعوّد الخمول ، وتحول ، عادة ، دون تحسين العمل ورقيه وبلوغه درجة الكمال .

فلا عجب ، والحالة هذه ، من بقاء الصناعات والفنون المحلية فى مستوى واحد ، طوال المدّة مابين سنة ١٨٠٠ وسنة ١٨٦٣

عمل اسماعيل

فلما نفخ (اسماعيل) فيها ، من روحه ، أخرجت الأرض المصرية أوّلا ، برأس مال قدره ستة ملايين من الجنيهات ، معامل سكر فى مصر الوسطى ، تمتدّ على طول

(١) أنظر : ماك كون "مصر كما هى" ص ٢٩٦ وما يليها لغاية ص ٣١٤ للاستيثاق من صحة المقول فى نظام الحرف وفى المعامل والمصانع بمصر فى الدولة العلوية .

تسعين ميلا على شاطئ النيل الأيسر، من بنى سويف الى برج أسيوط؛ وتستغل محصول ٢٥٧٠٠٠ فدان بمعاصرها القائمة بالفشن، ومغاغة، وآبا، وبنى مزار، ومطاى، وسمالوط، والمنيا، وفرشوط؛ ومعامل سكر أخرى فى الصعيد، تمتد مابين أرمنت، والضبعة والمطاعنة وتستغل أربعين ألف فدان؛ ومعامل سكر ثالثة فى واحة الفيوم، تستغل حاصلات ديميرس، وسليكس، والفيوم، وأبو كساه، ومعصرة دودا؛ وكل معمل منها يشغل نيفا وألفى عامل، كلهم مصريون ماعدا المهندسين — فانهم كانوا انجليز — ويخرج، علاوة على السكر، عسلا أسود (دبسا) أجود من عسل جزر الهند الغربيـة، وروما من أطيب المشروب، بثمن اجمالى قدره سنويا مائة وسبعون ألف جنيه.

معامل السكر

وأخرجت، ثانيا، معامل نسيج عديدة، اشتغل فيها من الصانعين ما ربا عددهم على عدد صناع كل حرفة أخرى: فألف وستمائة منهم كانوا يشتغلون فى معامل دوائر الوالدة باشا، بفوة، وبولاق، وشـبرا. والمعمل الأول كان يخرج خمسين ألف طربوش، فى السنة، يباع معظمها الى رجال الجندية والبحرية، وباقيها للعموم؛ والأخرى تخرج ٣١٥ ألف ثوب من الصوف، معظمها للجنود أيضا.

معامل النسيج

وأقام بمصر ستين معملا لنسج القطن والتيل؛ وعشرين لنسج الصوف؛ وأحد عشر لعمل الأبسطة؛ ومائة وسبعة للحياكة ونسج البفتة.

وأقيم بالاسكندرية ثمـانية وثلاثون محلا لنسج القطن؛ وواحد وثلاثون محلا لعمل الأبسطة.

ونشأ فى دمياط مائة وستة وستون دكانا لنسج الحرير واثنان وستون لصناعته.

وقام المجتهدون، فى بنى سويف، يكثرون من عمـل البساط الصعيدى المعروف

بالكليم والأنسجة التيلية الخشنة للبس الفلاحين ؛ وكان فى كل دكان من دكاكينهم من منوال الى اثنى عشر منوالا .

مصانع المعادن

وأخرجت ، ثالثا ، معامل لصنع المعادن ؛ منها ثلاثة للحكومة ، وهى : مسبك مدافع ، ومعمل بنادق — وفيه ماكينات لتصليح البنادق من أحدث طراز رمنجتن — وعنابرهما ببولاق ؛ ومعمل خرطوش بالاسكندرية ؛ علاوة على معمل سلاح ، وعنابر للبواخر والسفن الحربية — وهو ما أنشئ فيما بعد نظيرله فى السويس .

أما معامل شغل المعادن الخاصة بالأهالين فكانت بمصر : خمسة وثمانين مسبك حديد ، و٧٣ معملا للنحاس ، و٨٠ محلا للتبييض ، عدا ٢٤٠ محل صائغ ، وعدّة معامل سلحدارية وحدّادين ، تخرج من الأسلحة أنفسها وأجملها ، ومن الأدوات الحديدية الصغرى ، ما تدعو اليه الحاجة ؛ وبالاسكندرية : ٦ مسابك حديد ، و٤٣ محل حدادة ، و٢٠ معمل نحاس ، و٩٣ محل صياغة .

مصانع الطوب

ثم أنشأت الحكومة ، بقليوب ، معملا لضرب اللبن كان يخرج ٤٧٠٠٠٠٠ لبنة حمراء كل عام ؛ ثمن الألف منها تسعون قرشا صاغا — وكان معظم البناء حينذاك بالآجر والقليل منه جدّا بالحجر . وكانوا يستخرجون الحجر ، بمصر ، من المقطم ؛ وبالاسكندرية ، من المكس كما هو شأنهم اليوم ، بعد أن كانوا ، قبل سنوات قليلة من ذلك العهد ، ينهبون المعابد القديمة كلما أرادوا إنشاء بناء بالحجر .

الدباغة

وبدت الدباغة وصناعة الجلود فأنشأت الحكومة ، لهذا الغرض ، مصنعا بالاسكندرية ، كانت تدبغ فيه من ثلاثين الى أربعين ألف جلد سنويا ، ما بين جلود بقر وجاموس وخراف وماعز .

وأنشأ الأفراد نيفا وثلاثين مصنعا بمصر والاسكندرية ، تجهز وتدبغ أكثر من مائتى ألف جلد سنويا . فكثر تصدير الجلود المصرية الى الخارج ، وراجت صناعة السروجية فى داخل القطر رواجا عظيما .

صناعة الفخار

ولسنا نقول شيئا عن صناعة الخزف ، لأنه من المعلوم أن صنع القلل والزلع والأباريق والأزيار ، وما على شاكلة ذلك جميعه ، والتفنن فى صنعه ، قديمان بمصر قدما تكاد الذاكرة لا تدركه ، ومن المعلوم أيضا أن هـذه الصنعة بلغت فى مصر القديمة شأوا لم تبلغه فى مصر الحديثة . ولكنا نقول ان أفضل أدوات حرفته انما كانت تخرجها مصانع قنا و بلاص وأسيوط ومنفلوط وملوى ، وتنزل الى المراكب فى النيل منها ، سنويا ، خمسمائة ألف قطعة ، كما كانت تفعل فى أيام طوطمس العظيم ، وأيام أن أكره بنو اسرائيل على مغادرة مصر .

معامل الزجاج

وأخرجت هذه الأرض المصرية أيضا من ثمانية الى عشرة معامل زجاج — واسم أحدها لا يزال مطلقا على احدى المحطات بين الاسكندرية ودمنهور — كانت تصنع للأســواق نيفا وعشرة آلاف قطعة متنوعة ، ســنويا ، عدا عشرين ألف زجاجة مصباح . نذكر هذا : والألم ملء الفؤاد ، فى هذه الأيام التى لا معمل زجاج لنا فيها حتى أصبحت زجاجة المصباح البسيطة ذات العشرين الفضة دارجة ، سابقا ، تباع بنصف ريال ، منذ أن حالت الحرب العالمية الكبرى دون أن ترسل مصانع الغرب شيئا منها إلينا (١) .

معامل الورق

وماذا نقول عن معامل الورق التى أقامتها الدائرة السنية — أى دائرة (اسماعيل) — ببولاق ســنة ١٨٧٠ ، وكان يشتغل فيها ٢٢٠ عاملا وطنيا تحت رقابة مهندسين

(١) كتب هذا فى سنة ١٩١٨

ورؤساء أعمال من الانجليز؛ فيخرجون ١٨ طنا من الورق المستعمل للف السكر، وسبعين ألف فريدة ورق طباعة وكتابة، من أنواع مختلفة، يصنع أوطؤها قيمة من الحلفاء وقشر القصب، وكانت تكفى كل الحاجة اليها بمصر، ويصدّر الزائد على الحاجة منها بالات بالات الى الحجاز، بل الى الهند؟.

نحن لا نتوسع فى ذكرها، خشية إيلام النفوس، لأن عدمها الآن بمصر، مع انعدام الوارد من الخارج أصبح يهدّد المدارس، بالإقفال، لا الصحافة والتأليف فقط بالتعطيل، ومصالح الحكومة بالارتباك.

تحسين المطبعة الأميرية

أما المطبعة الأميرية التى أنشأها (محمد على) فان (اسماعيل) وسعها توسيعا أصبحت معه تستطيع أن تطبع كل ما تحتاج اليه مصالح الحكومة، وجميع كتب التدريس التى تقرّرها وزارة المعارف العمومية باللغتين العربية والتركية، وفى كل لغة من اللغات الأوروبية الكبرى، كالفرنساوية والانجليزية والطليانية، طبعا نظيفا متقنا، خليقا بأىّ مطبعة بباريس ولندن، مهما كانت كبيرة، ومعتنى بها، أن تفتخر به؛ مع أن عمالها — وكانوا أكثر من مائة — كانوا جميعا من المصريين.

على أن الإقدام الشخصى شرع، مع ذلك فى مزاحمتها مزاحمة كبيرة منذ ذلك الحين: فالدائرة السنية أنشأت محل ليتوغرافيا لها ببولاق؛ وأنشأ بعض الفرنج والأهلين خمس مطابع وخمسة محال ليتوغرافيا بمصر، وأربعة بالاسكندرية؛ ولكن العمال فيها كانوا إفرنج كلهم.

إنشاء الحرف

وازداد عدد المشتغلين فى باقى الحرف. فالطحّانون والفرّانون أصبحوا طائفة كبيرة؛ وبلغ عدد الخبازين فى المدن والبنادر وحدها — خلاف الفلاحين والبدو —

٢٣٠٠ خباز منهم ١٠٠٠ بمصر و٤٩٠ بالاسكندرية . وبلغ عدد صانعى الفطير والحلوى ألفا ومائتين، منهم ٨٠٠ بمصر، و٢٠٠ بالاسكندرية، والباقى فى البنادر . وبلغ عدد الطواحين البخارية ٢٧ بمصر و٢١ بالاسكندرية؛ وما يدار منها بالخيل ٥٧٥ بمصر و١٢٧ بالاسكندرية، علاوة على ٣٧ طاحونة هوائية بهذا الثغر، وجملة طواحين بطنطا والزقازيق والمنصورة . وكان للحكومة طاحونة بخارية عظمى، تقوم بطحن الغلال اللازمة للجيش والبحرية؛ ومخبزان عظيمان بمصر والاسكندرية، لتوزيع الخبز على الجنود والنوتية، وعلى جهات البرّ والمدارس والحجاج العابرين .

وزاد عدد البنائين وصانعى الأحذية والسمكريين، وازدادوا اتقانا لصنائعهم، حيال المزاحمة الأجنبية؛ كذلك كان شأن التطريز والصياغة، ولو أنهما استمرا يشتغلان على النماذج القديمة المصرية .

غير أن صنعة عمل المشربيات والتفنن فيها أخذا يزولان شيئا فشيئا، وتحل محلهما الصنعة على الطراز الغربىّ؛ حتى أصبح ثمن «العينة» فقط من الصنعة القديمة أغلى مما كان ثمن الشباك كله فى عهد على بك الكبير ومحمد بك أبى الذهب . وكذلك بات شأن الترويق والتنميق فى داخل المنازل والقصور : فان الذوق والصنعة القديمين زالا منهما، وحل مكانهما الذوق والصنعة الألمانيان .

معامل التفريخ أما التفريخ فبقى كما كان قديما، ووصفه هيرودوتس المؤرخ اليونانى . غير أن معامله — وكان عددها ٦٠٠ فى القطر — ازدادت نشاطا وطفقت تخرج نيفا واثنى عشر مليون دجاجة سنويا .

معامل القطن وأدّت الحرب الأميريكية الأهلية الى انشاء معامل قطن فى البلاد، منها ستة بخارية، بتسعة مكابس بالاسكندية؛ ومعملان فى داخلية القطر، أحدهما

بالمنصورة، خاصة و « تورت اخوان » ، كان أكبر المعامل قاطبـة ، لاشتماله على ثمانين محلجا وسبعين مكبسا وآلات لتنظيف الذرة وطواحين زيت وطواحين دقيق عظمى وآلات لفرز الكتان .

العمل فى مناجم الزمرد ومناجم أخرى

وأحيت روح (اسماعيل) العمل فى مناجم الزمرد، بجبل زبارا ووادى سقيط ، بين إدفو والبحر الأحمر ، وفى مناجم الرصاص ، بجبل الرصاص ، فى الجهة عينها ؛ وفى مناجم الذهب فى بلاد البشاريين ؛ وفى مناجم الفيروز بمغاور شبه جزيرة سينا ؛ وفى محاجر المقطم وأسوان الغرانيتية ، ومحاجر وادى عمرحوب المرمرية ، وجبلى الدخان الأبيض والأحمر الرخاميـة ؛ وحشث : فأوجد البحث قليـلا من الحديد والرصاص والنحاس فى بعض الصخور بشلال أسوان وجبل زبارا .

استخراج النطرون

ونشط استخراج النطرون من مديرية البحيرة ، واسـتخراج النترات والأملاح من البحيرات ومن الصخور، حوالى شواطئ البحر الأحمر .

أما النطرون فأصبح له ثمانية أحواض كبيرة ، وبركتان صغيرتان تجفان فى الصيف ، استغلت الحكومة جانبا منها ، واستغل الأهالى الباقى ؛ واشتغل فيها ثلاثمائة عامل ، منهم مائة راهب قبطى مقيمون فى أربعة أديرة .

والنترات

وأما النترات ، فانه أضحى يستخرج منـه ٦٥٠ كيلو من أنقاض المدن القديمة ، وينظف فى المعامل المصرية ، فيؤدّى ٥٦٠ كيلو من نترات البوتاسا .

والملح

وأما الملح ، فانه أصبح يشتغل فى استخراجه ألف شخص وألف وثلاثمائة حيوان من اثنتى عشرة حفرة ؛ فيستخرجون منه ٧٢٠٠٠ إردب سنويا .

ووجد زيت حجر (بترول) على بعـد مائة ميل جنوب السويس ؛ فأحضرت المـاكينات لاستغلال ينابيعه ، وبوشر العمل ؛ وما لبث أن أخذ يبشر بنجاح قريب .

رواج صيد الأسماك وراج صيد الأسماك فى المصايد والنيل والبحر فاشتغل نيف و ٣٧٠٠ صياد ، فى نيف وثمانمائة قارب ، على النيل وفى البحر ؛ وما يزيد على ستة آلاف صياد ، فى أربعة آلاف قارب ، على بحيرة المنزلة ؛ حتى بلغت العوائد المربوطة على هذه البحيرة فقط ستين ألف جنيه ؛ وراجت كذلك الملاحة النيلية : فبلغ عدد المشتغلين فيها ستة وثلاثين ألفا ؛ وكانوا أكثر الناس بسطة فى السرور ، وأشدّهم ميلا الى الابتهاج والغناء ، وكثيرا ما كانت الحكومة ، ساعة احتياجها الى نوتية فى سفنها الحربية أو التجارية ، تستدعيهم اليها وتنظمهم فى سلكها بأجور جيدة . أما المراكب النيلية التى كانوا يعملون فيها ، فكانت على ستين نوعا من الدهبية الفخمة الى الصندل البسيط . والملاحة

وقد وضع بعضهم تعدادا لأرباب الحرف والصنائع فى القطر ، سنة ١٨٧٧ ، فاذا بهم كالآتى : ٣٧١ صانع أساحة ؛ ٢٦٠٥ حدّاد ؛ ٤٣٤ صانع لبن ؛ ٦٤٧٣ نشارا ونجارا ؛ ٣٢٠ فخاما ؛ ٧٧٠ صانع ملابس ؛ ١٢٩٦ نحاسا ؛ ٥١٠٩ صائغ ؛ ١٨٧١ مطرزا ؛ ٣٢٠ حفارا ؛ ٨٦ قمرياتيا ؛ ٢٦٣٠ جوهرجيا ؛ ٢٤٨٢ حرّاق جير ؛ ٢٨٥ مرخماتى ؛ ٤١١٣ بناء ؛ ١٤٦٣ حصريا ؛ ٦٨٦ نقاشا ؛ ٢٥٧ عامل شباك ؛ ٥٤٠ طوانيا ؛ ٨٣٤ فخرانيا ؛ ١٩٠ خيالا ؛ ٧٧٠ سروجيا ؛ ٢٢٣٥ صانع أحذية ؛ ٥٨٩ مغربلا ؛ ١٤٠٤ حجارا ؛ ٢٥٢٠ خياطا ؛ ٩٧١ دباغا ؛ ٥١٠ قصديرى ؛ ٤٣٦٠ سمكريا ؛ ٥٨٢ منجدا ؛ ٣٠٠ مطبعىّ ؛ ٢٠٠ صانعى ورق ؛ ٢٥٠ صانع زجاج ؛ ١٠٠٠٠ نساج ؛ ٩٦٠٠ صائد سمك ؛ ٣٦٠٠٠ مراكبىّ (نوتى) ؛ ٩١٠ قلفاطى ؛ ٣٥٠ مركب مزاريب .

فكان، والحالة هذه، مجموع المشتغلين فى الحرف والصنائع مائة ألف وأكثر، ى بنسبة ١ الى ١٢ من مجموع الذكور البالغين فى القطر جميعه . وهذه نسبة تدل لى مقدار الحركة والعمل فى مضمارى الصناعة والفن .

الأشغال الهندسية

وكانت الأشغال الهندسية، فى كل ما تستدعى الحرف المذكورة منها، معهودا بها فى بادئ الأمر الى رجال من الانجليز بمرتبات تتراوح بين ٨ و ٢٥ جنيها شهريا . ولكن الحركة التعليمية ما لبثت أن أحلت المصريين، لاسيما المتخرجين من مدرسة الفنون والصنائع ببولاق، محاهم بمرتبات من ٨ الى ١٠ جنيهات شهريا .

غير أن هذه الصنائع والحرف كلها، ولو أنها كانت بحركتها الحثيثة، والنشاط الذى أوجبته، تجعل مصر شبيهة بخلية نحل، الكل فيها يشتغل، لم تكن سوى وجه من وجهى الحياة العملية التى دبت فى جسم القطر اذ نفخ (اسماعيل) فيه من روحه .

وأما الوجه الثانى فالأعمال والمنشئات الخصوصية والعمومية، التى أشغل فيها ذلك الأمير المقدام الهمم والمجهودات .

العمار والعمارات

فانه ما ارتقى العرش، إلا ووضع نصب عينيه، لاسيما فيما يختص بعمارة الاسكندرية ومصر، الاقتداء بأغسطس قيصر الرومانى، القائل : « وجدت روما مبنية باللبن، فتركتها مبنية بالرخام »؛ أو بالامبراطور نابليون الثالث، الذى وطن عزمه على تغيير شكل باريس، من حسن الى أحسن؛ وما فتئ ينفذه حتى صير العاصمة الفرنساوية عروس مدائن العالم طرا .

عمار الاسكندرية

أما الاسكندرية ، فانها بعد عزها الأقعس فى أيام البطالسة والرومان والبيزنطيين أنفسهم ، اذ كانت ثانية عواصم المسكونة ، وكان عدد سكانها يربو على ستمائة ألف آلت الى الخراب والدمار ، شيئا فشيئا على توالى القرون ، لتخلى السياسة عنها .

(أولا) مذ اتخذ عمرو مدينــة الفسطاط عاصمة له (عملا برغبة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب فى ألا يكون بينـه و بين المسلمين بمصر ماء) ، فالمعسكر ، فالقطائع ، فالقاهرة ، وابتعاد التجارة عن شواطئها .

(ثانيا) منذ أن أنشأ الطولونيون مدينة رشـيد ، وبعد أن ابتنى الظاهر بيبرس دمياط الحديثة على أنقاض دمياط القديمة ؛ وما زالت مبانيها تتهدم ، وأكوام المهدوم تكتنف المعمور ، وتزاحمه على قواعده ، وتحصره فيما عرف ، لغاية عهد (محمد على) الكبير ، بالجزيرة الخضراء ؛ وما فتئ عدد سكانها يتضاءل ، حتى باتت ضيعة حقيرة ، لا يؤبه بها ؛ وبات سكانها لا يزيدون ، إلا قليلا ، على ســتة آلاف ، حينما احتلها الفرنساويون فى سنة ١٧٩٨

عمل (محمد على)

فلما استخلص (محمد على) الحكم لنفسه من أيدى الباشاوات المرســلين من لدن الأستانة وأيدى المماليك ، ومن مطامع الدول المستعمرة ؛ وعنّ له أن يتخذ الاسكندرية عاصمة لدولته الحديثة ، ومقرا ومرجعا لتجارتها ؛ وأقبل يعمرها ، ويحسنها ، ويجملها ؛ لا سيما بعد أن أوصل مياه المحمودية اليها : فأنشأ حولها الحدائق والبساتين ، وأقام ، على ضفاف تلك الترعة ، القصور والمنازل الحلوية البديعة ؛ ومدّ مابين باب رشـيد وسرايه الفخمة برأس التين ، شارعا جميلا مرصوفا بحجر مستخرج من الجبل الأحمر فوق مصر ، ومكسوّا بمسحوق الجير والبتسولانة الصناعية ، لتمتزج أجزاء ذلك الحجر

معا، وتبرز متجانسة لا نتوء فيها؛ وبنى الترسانة على يد سيريزى بك مشيد عمارته البحرية، التى خلفت أسطوله المدمر فى واقعة ناڤارينو؛ وأنشأ الحوض الحديدى العائم لتصليح سفنه التجارية والحربية، على يد موجيل بك؛ فصنع بفرنسا، وأتى به، جاهزا، الى الاسكندرية، فوضع فى المحل المعدّ له، وكلف ١٢٧ ألف جنيه؛ وأصلح الميناء الجديدة؛ وصرح للفرنج بالخروج من وكالتهم المدعوّة "فندق" التى كانت متاجرهم فيها، ويأوون اليها ليلا وتقفل عليهم أبوابها، لئلا يمتزجوا بالأهلين أو يمتزج الأهلون بهم، وأذن لهم بالانتشار فى المدينة: فأقبلوا ينشئون لأنفسهم الحىّ الذى عرف فيما بعد باسمهم؛ وقد اقتدى به ابنه ابراهيم، وأنشأ الميدان المعروف بالمنشية، وشيد حوله المنازل الفخمة التى شرع يؤجرها بأجور عالية الى قناصل الدول العامة، حتى دعى ذلك الميدان باللغة الأجنبية "ميدان القناصل"؛ وأقدم زعماء التجارة، المتعاملون مع (محمد على) مباشرة، كرزينيا، وأنسطاسى، وجباره، وغيرهم، على بناء قصور لهم ومنازل لا تأنف الملوك أنفسهم السكنى فيها؛ حينذاك أخذت الاسكندرية تنمو شيئا فشيئا وتتسع، فتتلاشى أكوام الخراب أمام تقدّم خطوات العمار؛ وتتكوّن الأحياء الجديدة فوق رفات الأحياء الميتة؛ وتختط الشوارع الحديثة فوق خطوط شوارع الاسكندرية، الراقدة تحت تراب القرون؛ اسكندرية البطالسة والرومان؛ حتى أصبحت مدينة مساحتها خمسة أضعاف ما كانت عليه، يوم أن فتحها بونابرت، وجرح كليبير فى رأسه وهو يهاجمها من جهة باب رشيد؛ واصبح عدد سكانها نيفا وستين ألفا. وما زالت تنمو، بعد ذلك، وتزداد بتدفق حياة القطر وتجارته كلها اليها، ونزوح الريف العامل للسكنى فيها، وحب سعيد لها، وتفضيله إياها على العاصمة، مقتديا فى ذلك بأبيه المجيد، حتى أصبحت فى عهده

عمل (ابراهيم)

مدينــة ذات مائة ألف نفس تقريبا تزدهى بالقصور والبساتين والمتنديات العامة، ما تزدهى به المدن الغربية التى هى من درجتها .

ولكن نموها لم يكن منظما ولا مطابقا لروح العصر الجـديد . فانهـا بقيت قليلة الشوارع الواسعة المسلوكة؛ كثيرة الأزقة والدروب الضيقة، المعوجة، القذرة؛ كثيرة الحفر والنقر، فى ذات الشوارع المهمة؛ فما بالك بالحارات والمسالك الصغيرة؟ لا تنظيم فيها، ولا اعتناء بنظافة ورش وصيانة؛ تتكوم الأتربة والأقذار فى طرقاتها وسككها الترابية، التى لا بلاط يغطيها؛ فاذا هبت ريح عليهـا، انتشرت، عثيرا شريرا ضارا، فى الفضاء، وأصابت المـارة بأمراض فى أعينهم؛ أو ضربتهم بأوبئة فى أحشائهم؛ واذا سقط مطر، تحولت الى وحول، بعيدة الغور، تغرق فيها الأرجل حتى الركب، والعربات حتى ما فوق نصف العجل؛ فيبيت المرور منها متعذرا، وتنقطع حركة الأخذ والعطاء، إلا اذا استخدمت الجمال والهجن لنقل البضائع من الجمرك الى الأسواق، ومن الأسواق الى الجمرك، بأجر باهظة؛ واذا ما جنّ الليل، وانسدلت سدول ظلماته البهيمة، انباعت الأخطار والأهوال فى تلك الشوارع والأزقة والدروب، لعدم وجود تنوير عام فيها؛ وانقطع مرور الأقدام منها، إلا أقدام من لم يخف التعرض لشر اللصوص وقطاع الطرق، أو اضطرته أشغاله للتغرير بنفسه؛ وباتت الضواحى، حتى عند أبواب المدينة عينها، محطا للاثم والاجرام . وبما أن استقاء أغلبية الأهالى، بالرغم من توصيل مياه النيل اليهم فى ترعة المحمودية، استمر من الصهاريج، كما كان قديما؛ أو اذا تحول الى مياه المحمودية، قلما اعتنى بتقطيرها أو ترويقها؛ وبمـا أن الوقايات الصحية لم تكن مألوفة، وكان ذبح المواشى اللازمة للغذاء، مثلا، يتم على قوارع الطرق أو فى داخل حوانيت الجزارة؛ وكان دفن الموتى

يباح فى جوار المنازل وداخل المدينة ، حتى فى المساجد والبيوت ، مافتئت الأوبئة ، ولا سيما الطاعون ، تهاجم الاسكندرية الجديدة وتفتك بأهلها ، بين حين وحين ، فتكا ذريعا .

عمل (اسماعيل)

فأقبل (اسماعيل) يغير ذلك جميعه ؛ ولو أنه لم يكن يحب مدينة الاسكندرية ولا الإقامة بها ، لتطيره منها ، بعد أن قال له منجم انه سيلقى منيته فيها . واذا بالسائح الذى زار تلك المدينة فى أوائل سنة ١٨٦٣ ، يكاد لا يعرفها لدى عودته اليها فى سنة ١٨٦٩ ؛ و يكاد لا يعرفها ، من جديد ، لدى عودته اليها مرة أخرى فى سنة ١٨٧٨ (١)

توسيع الشوارع وتبليطها

فشوارعها وسعت بالتدريج توسيعا مستمرّا ؛ وانتزعت منها أكوام الأقذار والأتربة ؛ وطمرت الحفر والنقر ، ومهدت تمهيدا حسنا ؛ و بلطت بلاطا جميلا أتى به من تريستى ، بمصاريف كبيرة ؛ وغرس بعضها ، على جانبيه ، بالأشجار الباسقة : فأصبحت حركة التجارة فيها آمنة مطمئنة ؛ وحركة النقل والتنقل سهلة تتم بمصاريف قليلة من الجمرك واليه ، و بين أنحاء المدينة قاطبة .

توسيع الحارات

وحاراتها وأزقتها وسعت بالمثل ؛ ونظفت ؛ وأبعد عنها كل مسببات الأمراض والأوبئة ؛ وفصلت أحياؤها بعضها عن بعض بقواعد تنظيمية ، مافتئ مفعولها يزيد ، بين أقسام المدينة ، فراغا جميلا ، أضحى يملأ حدائق و بساتين ؛ وأنشئت أحياء جديدة ، أهمها حى للعمال ، بنى على الأراضى الواقعة بجوار عامود الصوارى — وكانت ملكا للمسيو براقيه السابق ذكره ، فاشتراها (اسماعيل) منه ووهبها للحكومة — وأمر بأن تنفق أجور المساكن التى يدفعها العمال فى سبيل إنشاء مستشفى لهم يتطببون فيه مجانا . واختطت شوارع جديدة ، منها ما هو للنزهة المحضة كشارع المحمودية وسكة

إنشاء حدائق وأحياء جديدة

إنشاء منتزهات

(١) أنظر : "مصر تحت حكم اسماعيل" لسانتى .

الرمل — وهما من أجمل متنزهات القطر، وتجليا، حين تما، عروسى السكك المصرية قاطبة — ومنها ما قضت به الحاجة فى الأحياء الجديدة .

الانارة بالغاز

وأنيرت جميع هذه الشوارع والأحياء والضواحى بالأنوار الغازية ، إنارة بديعة، على مثال المدن الأوروبية الكبرى . فزالت الأخطار والأهوال منها؛ وولت أقدام الاثم مدبرة؛ وسادت الطمأنينة وانتشر الأمن فى كل جهة بعد مغيب غزالة النهار .

إنشاء البلدية

وأنشئت بلدية للاعتناء بأمور التنظيم، والصيانة، والنظافة : فأبطل الذبح داخل البيوت والحوانيت ، وجعل له محل خاص، وأبطل دفن الأموات فى المدافن الخاصة بجوار المنازل وداخل المساجد؛ وغيرت طرق الاستقاء، ووزعت المياه على البيوت مروّقة جهد الاستطاعة؛ وأقيمت الوقايات الصحية، على يد الادارة الصحية المعروفة إذ ذاك باسم "الانتندانس سانيتير"؛ نخفت وطأة الأمراض والأوبئة، وأخذت تتلاشى جراثيمها شيئا فشيئا .

تجاوز العمار الأسوار والابواب القديمة

وخرج بالعمار خارج الحدود والأبواب القديمة ؛ وسير به شرقا وجنوبا وشمالا، سيرا حثيثا، وقامت القصور فى وسط الرياض الفيحاء والغياض الزاهرة، تمتدّ، حلقة متصلة، على شاطئ البحر، من طابية الرومان الى سيدى جابر، وما فوقها؛ وأجملها كلها وأكبرها حجما القصور التى شادها (اسمـاعيل) لنفسه ولأبنائه وبناته، ابتغاء تشغيل العمال ومساعدتهم على القيـام بشؤون حياتهم . واتفق أن أحد تلك القصور — وهو الذى شاده لنفسه خاصة، وكان أوسع الكل أرجاء — احترق بعد الفراغ من بنائه؛ فأمر باعادته أحسن مما كان .

ناهيك بالأعمال والأشغال العظمى التى عملت فى الميناء واستوقفت إعجاب الكل، مما سبق لنا بيانه .

زيادة عدد السكان

فزاد ذلك جميعه فى مساحة البلد المبنية، حتى أصبحت أربعة أضعاف ما كانت عليه فى عهد سعيد؛ وزاد فى عدد سكانها حتى أضحى، فى أقل من خمسة عشر عاما، نيفا و ٢٤٠ ألفا، منهم ٤٨ ألفا غربيون، بعد أن كانوا ٧ آلاف فقط، عند ممات الباشا العظيم! ولكى يبرهن أن عصره عصر رقى فكرى صحيح، وعهد تقدم حق فى مسالك الحضارة، أقام فى شهر أغسطس من سنة ١٨٧٤ فى ميدان المنشية الذى أنشأه (ابراهيم) أبوه، تمثالا نحاسيا لجده العظيم، تجلى فيه (محمد على)، فارسا مهيبا، يشرف على الساحة الفسيحة، ويده الثابتة على خاصرته القوية، تدل على أن النصر بات طوع بنانه وأنه نشر مجده فى الفضاء الحاف به!

إقامة تمثال (محمد على)

عمار مصر

وأما مصر القاهرة[1] فانها، بعكس الاسكندرية، ما فتئت تزداد عمارا واتساعا، منذ أن أنشأها جوهر قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمى، حتى انقراض دولة الأمراء المماليك، وقيام الأسرة المحمدية العلوية. ولكنها بالرغم من كل بناء قام فيها، ما فتئت محصورة بين بابى الفتوح والنصر شمالا، والخليج المصرى غربا، والجبل وقرافة المماليك وسلاطينهم شرقا، وخرائب الفسطاط جنوبا. وكان كل حد من هذه الحدود يمتاز بتلال سوداء من الخرابات والأقذار تعلو عنده حتى يبلغ ارتفاع بعضها من خمسين الى مائة قدم، كالتلال التى لا نزال نراها جنوب مسجد أحمد بن طولون الى يومنا هذا وهى أطلال مدينة القطائع، عاصمة الطولونيين، الواقعة بين فسطاط عمرو وقاهرة المعز. وكان سكان كل حد، ما عدا الحد الغربى، لا يفتأون يزيدون تلك الآكام القذرة ارتفاعا، بما يرمونه عليها، يوميا، من أقذار منازلهم.

(١) لجميع التحسينات التى أجريت فى القاهرة على أيدى (ابراهيم) و(اسماعيل) أنظر: كتاب لينان دى بلفون المعنون: "مذكرات عما تم من الأعمال العامة بمصر منذ أيام الفراعنة الى الآن" ص٥٩٥ وما يليها.

وأما الحد الغربى، وهو الخليج، فكما أنه كان — أيام الفيضان — مستقى المنازل المقامة على شاطئه، والمتدلية منها الأدلاء فيه، كان — أيام التحاريق — مصب مجارير كل تلك المنازل . إلا أنه كان، فى وسطه، عند بركة أوجدها هناك الفيضان، يتكيف تكيفا يقر العين، بما أنشئ فيه من بساتين منذ عهد الأمير أزبك، قائد جنود (قايتباى) التى قهرت عثمانيي (بايازيد الثانى)، فى ربوع سوريا القصية، حتى عهد الاحتلال الفرنساوى، وأطلق على مجموعها اسم الأزبكية، إكراما لذلك الأمير .

فكان القادم الى مصر، من أية جهة يصل اليها، حتى من جهة الغرب — لأن تلال الاقذار كانت تفصل الأزبكية عن بولاق — يرتد نظره عند وقوعه على تلك الدمن؛ ويودّ لو أن فى الاستطاعة ازالتها وملاشاتها؛ ولكنه لا يلبث أن يسلم بأن ذلك محال، بعد ما يتأمل جسامة الأكوام، ويقدر الهمة الواجبة للاقدام على ذلك العمل الشاق فوق كل تصوّر، والذى يعد بجانبـه ما قام به هرقل، البطل اليونانى من تنظيف اسطبلات أوچيـاس الملك، لعب أطفال؛ حتى جادت الأيام لمصر (بابراهيم) الهمام .

عمل (محمد على)

فبينما (محمد على) أبوه يكلف برهان بك رئيس ادارة الأشغال العمومية، وأحد تلامذة البعثة المصرية الأولى الى باريس، بوضع مشروع لتحويل الأزبكية ببركتها الى بستان عام، يشتمل من الخضرة السندسـية والظل والمـاء على ما تنشرح له الصدور؛ وبينما برهان بك يصدع بالأمر، ويضع مشروعه، ويقدمه الى الأمير، فيعتمده ويأخذ من وقف الأسرة البكرية الأربعين فدانا المتكوّنة جهة الأزبكية منها، ويعطيهم — بدلا عنها — أطيانا ببلدة بهتيم قدرها عشرة أضعاف المأخوذ منهم؛ بينما يقدّم برهان بك على نفاذ المشروع، ويحوّل الأزبكية الى المتنزه المرغوب فيه،

تحويل الأزبكية الى متنزه عام

سنة ١٨٣٧ ، أمر (ابراهيم باشا) المسيو بونفور مهندسه بازالة الأكوام كلها الواقعة مابين النيل وبولاق ، ومصر القاهرة ، والفسطاط (مصر العتيقة) ؛ وإنشاء متنزهات خاصة مكانها ، تمتد مدى البصر . ووضع تحت تصرفه ما شاء من الأموال والرجال .

فأقدم المسيو بونفور بهمة على تنفيذ ما أمر به ؛ ولم تمض ثمان سنوات إلا وتم ثلثا المهمة ، وتجلت الرياض والغياض الفيحاء تزينها الأشجار الباسقة — لا سيما الجميز واللبخ — حيث كانت تعلو الأكوام الجارحة للنظر .

ولما عاد (ابراهيم) من حروبه بسوريا ، شهد الأعمال الجارية وأتم بونفور ما كلف به . فزالت الأكوام كلها من باب الحديد الى مصر القديمة ، غربى القاهرة بأسرها .

عمل (ابراهيم)

حينذاك أقبل (ابراهيم) على إزالة ما كان منها بحريها أيضا ، أى ما بين بابى الفتوح والنصر ، من جهة ؛ والعباسية والظاهر والفجالة الحالية ، حتى باب الحديد ، من الجهة الأخرى . ولم يكن فى استطاعة غير المنصور فى (نزيب) تتميم ذلك العمل التيتانى . فأقبلت الأيدى بتأثير ارادته القوية وهمته الشماء ، تعمل ، بكثرة واستمرار ، معاول القطع والجرف ، فى تلك الدمن المتكدسة ، فتنتزعها وتطرحها فى البرك المجاورة — وأخصها بركة الرطلى ، وبركة طبالة المستنصر الفاطمى — فتطمها ، حتى نظفت منها الجهة مابين بابى القاهرة الشماليين والفجالة ؛ وجففت ، فى ذات الوقت ، تلك البرك التى كثيرا ما كان الفيضان وعدم الاعتناء يحولانها الى مستنقعات ، تتولد فيها جراثيم الأمراض .

(١) أنظر : پكار مسكاو "مصر تحت حكم محمد على" ص ١٦٣ وما يليها وهو الكتاب المعنون أيضا "أسفار وحوادث بمصر" .

واذا بالموت داهم أبا (اسماعيل) الهمام، وقطع شجرة حياته، وهى فى ابان إثمارها فوقف العمل، وفرحت الأوبئة .

تقلبات الأزبكية

وكان حى الأزبكية فى أثناء ذلك قد تغيرت معالمه مرتين : فبرهان بك حاطه، أولا ، بسدّ كان من شأنه أن الأرض داخله تتحوّل كلها الى بحيرة عظيمة تمخر فيها المراكب، أيام الفيضان ؛ وتصير، فى باقى السـنة، الى حقل، بساطه السندسى من البرسيم العطر ، والأشجار المغروسة فيـه مظال خضراء كظلال الجنان ، تغرّد على أويكاتها الطيور ويهدل الحمام . وحفر، خارج ذلك السدّ، ترعة عرضها عشرون قدما تجرى فى طوله وتتصل — بفتحات — بالبحيرة ، فتوصل اليها المـاء اللازم لرى أرضها أيام جفاف فرشها ؛ وتفصل السـدّ عن الشارع الدائر حول ذلك الحى — وهو شارع كان عرضه مائة قدم تحف به من خارجه البيوت، ومن داخله صفوف من شجر اللبخ الزكى الشذا — فكنت، وأنت مستظل بها ، تمتع نظرك بماء البحيرة وزمرد أوراق الشجر، أو بالبساط السندسى السابق ذكره، وتلذذ سمعك بخرير مياه الترعة . أما الوجه الحسن فلا تعدمكه الصـدف فى ساعات النهـار . وقد كان يحيط بحى الأزبكية، من جهاته الثلاث، قصور فخمة مشيدة على النسق الشرقى، وقف التاريخ فى بعضها، مفكرا أنى يجرى مجاريه . فمنها القصر الذى شاده محمد بك الألفى بعد هدم ثلاثة غيره لم تقم طبقا لذوقه . فلمـا أتم بناءه وجاء وفق مرامه ، داهمت الحمـلة الفرنساوية الحكم المملوكى وبدّدت شمله شذر مذر . فذهب الألفى بك، بعد كسرة امبابة ، يهيم على وجهه خلف مراد بك زعيمه ، وحلت قدما بونابرت ، رجل الأقدار ، فى ذلك القصر : فكان كأنه بنى له . ومنها القصر الذى اتخذه كليبير مقرّا لأركان حربه ؛ فوافاه فى البستان المحيط به سليمان الحلبي وقتله — وكان والى

دمشق قد وعد ذلك اليافع المتحمس دينيا ، باطلاق سبيل أبيـه من السجن الذى كان قد زجه فيـه ، اذا هو أقدم على الفتك بقاهر الصدر الأعظم يوسف باشا ، فى ساحة وغى هليو بوليس . فبرّ سليمان بوعده غير أن أباه لم يفز بالنجاة وخوزق[1] ؛ وجُعل (محمد على) فى ذلك القصر عينه ديوان معارفه العمومية ،ولكنه ألحق ببستانه — حيث ذهبت المأساة المفجعة ، بطالع فرنسا فى مصر — بالسراى الفاخرة التى كانت لابنته زهره هانم ، زوجة الدفتردار الشهير بقسوته الطبيعية المتناهية ؛ ومنها القصر الذى كان لخسرو باشا ، عدو (محمد على) اللدود ، والذى أراد اغتياله ، مرة ، تحت ستار الليل البهيم ، ولم يفلح ؛ والقصر الذى كان (لمحمد على) عينه ، يوم كان لا يزال يرتقى درجات سلم طالعه العجيب ، وحمل فيه زعماء جنده على أن يقسموا على حسامه بطاعته طاعة عمياء فى كل ما يأمرهم به ، وألا يتخلوا عنه ما دام حيا ، كيفما دارت حوادث الزمان ؛وأما الجهة الرابعة ، فكان يشغلها صف بيوت خشبية عالية مظلمة وغريبة الشكل يملكها و يسكن فيها جماعة من الأقباط .

ثم تمادت الأيام وأساء بعض سـكان تلك القصور ، لاسيما القناصل الأجانب ، استعمال الترعة ذات العشرة الأمتار عرضا ، وحولوا مجراها — فى أيام التحاريق — الى اسطبلات لدوابهم وزرائب لطيورهم ودجاجهم ؛ ثم لم يلبثوا ، لكيلا تضيع منهم هذه المزية ، ان طلبوا ردمها زاعمين أن حميات خبيثة تنبعث منها .

فردمت ؛ وفقـدت الأزبكية بذلك خير جزء من أسـباب بهجتها ؛ فأهملت ؛ وما مضي إلا زمن يسير حتى تحولت الى دمنة ؛ ثم باتت مكانا ترتكب فيه أعمـال عربدة وسكر ، فى القهوات والحانات المنتشرة فى جنباتها ، وأعمال سرقة وتهتك تحت

(١) أنظر : بكلر مسكاو "سياحات وحوادث بمصر" ص ٢١٦ ج ١

ظل أشجارها، حملت أقدام الكرام على هجرها والابتعاد عنها، بعد أن كانت تؤمها كوكبات الفرسان الفاخرى الملابس للتنزه فيها، وسياسهم فى ركابهم يحملون لهم شبكاتهم .

تعذر الاستقاء فى القاهرة بالرغم من قربها الى النيل

ومع أن القاهرة واقعة على مقربة من النيل، فان الاستقاء كان متعذرا فيها لبعد النهر فى الحقيقة عنها، وعدم صلاحية مياه الخليج للشرب معظم أيام السنة. ولم يخف هذا العيب الأساسى فى موقع المدينة العظيمة، على الخليفة الفاطمى المعز لدين الله، سيد جوهر الصقلى بانيها؛ فيروى أنه قال له، اذ قدم اليها من المهدية فى المغرب: «لقد بنيتها، يا جوهر، فى بقعة لا هى على قمة الجبل، فتتحصن بها، ولا هى على شاطئ النهر فتنتفع به!» ولذلك فكر هو وخلفاؤه من بعده فى تحصينها من جهة الصحراء الشرقية، وفى جلب مياه النيل اليها من الجهة الغربية. فاحتفر المعز، الخندق الذى قاتل القرامطة عنده، شرقيها؛ ووفق حفيده، الحاكم بأمر الله، الى احتفار الخليج المصرى، الذى عرف مدة باسم الخليج الحاكمى، والذى بات يروى عطش القاهرة دهرا. ولكنه لم يكن وافيا بالغرض، لا سيما بعد أن تراخت المحافظة على نظافته، فى عهد الحكم العثمانى، وبات مستودع أقذار ومصرفها. وعاد الأهالى الى الاستقاء رأسا من النيل على أيدى سقائين .

سعى (محمد على) لجلب مياه النيل الى القاهرة

فوجه (محمد على) اهتمامه بنوع خاص الى هذه المسألة الحيوية، مسألة تموين القاهرة بماء للشرب. وفكر، فى بادئ الأمر، فى تعميق فرش الخليج المصرى ذاته، بحيث يصبح ترعة صيفية تستمد مياهها لرى الأطيان الواقعة شمالى العاصمة، فوق انتفاع أهل القاهرة بها لشربهم .

ولكن عقبات كثيرة حالت دون ذلك، أهمها أن أساسات جدران معظم المبانى القائمة على ضفة ذلك الخليج أقل غورا فى الأرض من العمق المنوى ابلاغ قاعه اليه . فلو عمق الخليج لتداعت .

ففكر، اذاً، فى طرق أخرى كإيجاد آلات رافعة عند فم الخليج، أو إنشاء مصرف جامع فى وسطه؛ أو احتفار ترعة يكون فمها على بعد كاف، فوق القاهرة، بحيث ان مياهها، اذا انصبت فى الخليج، كفته ماء، طول السنة؛ وفكر فى تسيير تلك الترعة بين أكوام الفسطاط، أو من وراء القلعة، والذهاب بمصبها فى الخليج الى شمالى مصر .

عدم نجاحه

ولكن المصاعب التى قامت دون تحقيق كل ذلك أدّت الى الاحجام عن المشروع بتاتا .

عمل (عباس الاول) فى السبيل عينه

فلما شاد (عباس الأول) قصره المشهور فى الصحراء الشمالية فوق الظاهر — فتسمت تلك الصحراء العباسية، باسمه — فكر، هو أيضا، فى توزيع المياه على القاهرة، وتسيير فرع كبير منها الى ذلك القصر، وكلف بالعمل لينان بك، ثم ضم اليه لامبير بك والمسيو بوديسو . فوضعوا المشروع وأفاضوا فى تفصيلاته، وقدّروا نفقات تنفيذه بمبلغ ٣٦٦٩٣٣٤ فرنكا؛ وبدءوا يسوّون الأرض، ويخطون تصميمات الشوارع التى عزموا على تسيير مواسير المياه تحتها . ولكن العمل لم يخط الى الأمام خطوة، ووقف حيثما ابتدأ .

عمل (سعيد) فى السبيل عينه

فأراد (سعيد) أن يبدى هو أيضا اهتماما فيه . فأجاز، على فم ساباتييه، القنصل الفرنساوى العام، لفرنساوى يقال له المسيو كردبيه، بوضع مشروع جديد للغاية عينها

غير الذى سبق لعباس باشا المصادقة عليه . فأسس كردبيه هذا شركة لذلك الغرض وباشر الأعمال التمهيدية لتمـام المشروع . ولكن الاهتمام لم يتعدّ هـذا الحدّ ، لأن صعوبة التنفيذ كانت جسيمة .

ولا يخفى أن تعذر وجود المـاء يوجب تراكم القذارة، حتما ، وعدم التمكن من رش الأحياء إلا نادرا ، وأمام منازل الموسرين ، فقط على أيدى الرجال المعروفين بالسقائين .

وصف شوارع القاهرة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر

فشوارع القاهرة ــ قاهرة عهد المماليك وعهدى الفرنساويين و (محمد على) وقد كانت ضيقة ضيقا جعل سـير العربات فيها أمرا مجهولا إلى اليوم الذى قدمت فيه لابراهيم بك الكبير عربة من فرنسا على سبيل الهـدية (ومع ذلك فان القوم هناك لمـا رأوا، بعدها بقليل، الجنرال بونابرت يتجوّل فى أحياء مصر وبولاق بعربة تجرها ستة جياد استغربوا الأمر جدّا ودهشوا له) ــ وكانت معوجة، قليلة التمهد، تزدحم الأخطار فيها بسبب آزدحام الأقدام فى مضايقها ــ كانت، اذا، تربة كثيرة الغبار، وتنجم عن انعقاد ذلك الغبار، الكثير المكروبات ، فى الهواء ، نفس المضارّ الناجمة عن انعقاد نظيره فى الاسكندرية . وبما أن ما كان يجرى فى الثغر من أمور مخالفة للقواعد الصحية ومسببة للأوبئة وداعية لانتشارها، كان يجرى بكيفية أوسع، وعلى قياس أكبر فى مصر القاهرة، لزيادة اتساع هذه عن ذاك، وبعدها عن البحر الملح أى عن أعظم مصادر الهواء النقىّ، كان انتشار الأمراض والحميات الخبيثة والأوبئة سهلا فيها، وفتكها بالأهالى ذريعا. وقد ترقب بعضهم حركتها، فاتضح له أن الطاعون على الأخص ، كان يعاود العاصمتين كل عشر سنوات، ويجتاح عددا عظيما من سكانهما .

عمل (اسماعيل) في تحسين القاهرة

فلما وطن (اسماعيل) عزمه على الاقتداء بأغسطس قيصر ونابليون الثالث، وأقبل على تنفيذ ذلك العزم بهمته المعتادة التي لم تعرف الملل ولا الكلل، يزيدها نشاطا، ما كان يعتقده من صحة في قول أحد أولياء الله في عهد جده، وهو «إن هذه الأسرة المحمدية العلوية، ما دامت مقبلة على التشييد والبناء كان الملك والعز مضمونين لها، فاذا أقلعت عنهما أو توانت فيهما، تلاشت أو اضمحلت» رمى الى إصابة غرضين: (الأول) إدخال ما يمكن إدخاله من الاصلاحين الاجتماعي والصحي على قاهرة المعز لدين الله، مع إبقائها على ما هي عليه من ذاتية تجعل العصور الوسطى، بفروسيتها، وتقواها الخشنة الخالصة واتجاه الصناعة والفن فيها نحو ما يلعب بالتصوّر، مع استمراء الذوق لذته الحقيقية: وتجعل موصوفات روايات ألف ليلة وليلة، أيضا حاضرة أمام المخيلة، كأن الأجيال لم تمر وتتوال، وكأن تلك العصور لا تزال حية حاضرة؛ و (الثاني) إنشاء قاهرة أخرى غربيها يدعوها العصران، الحاضر والمستقبل "قاهرة اسماعيل" وتختص دون الأولى، بإعجاب القلوب، وتلذذ الأعين، بشوارعها الفسيحة، الظليلة، ذات الأرصفة الأمينة؛ وميادينها الواسعة، الجميلة ذات الفسقيات الزاهرة؛ وقصورها الفخمة، النبيلة، المقامة على أحدث طراز عصري؛ وبساتينها الزاهية، المتنوعة فيها النباتات الغريبة، وملاعبها الفاخرة، المتلألئة بالأنوار ليلا؛ وأحيائها الطلقة الصقيلة، القائمة الصحة على حراستها، بدل الأبواب القديمة.

ازالة أكوام القاذورات

فأقبل، أولا، يزيل ما بقي شمالي قاهرة المعز من أكوام قذرة؛ ويطمر ما لم يزل غير مطمور من مستنقعات وبرك تبعث كريه الروائح؛ وينظف ما بين بابي الفتوح والنصر، وقلعة الكبش، والسيدة زينب، من شوارع وأزقة ودروب وأسواق، بتعميم الكنس والرش فيها، ومنع ثورة الغبار وكل مخالف للقواعد الصحية ثم اختط

تعميم الكنس والرش

اختطاط شوارع جديدة

ما بين الظاهر و باب الحديد، الشارع المدعو الآن بشارع الفجالة؛ واختط، ما بين باب الحديد، والأزبكية، الشارع الذى أطلق عليه اسم كلوت بك؛ لا لتكريم الطبيب الفرنساوى عالى الهمة، منشئ مدرستى أبى زعبل والقصر العينى الطبيتين، والذى يعدّ بحق أبا الطب الحديث بمصر فحسب، ولكن للدّلالة، بنوع أخص، على أن الاصلاح الصحى سيسير من شمالى المدينة الى جنوبها؛ و يتناول، بذراعيه، شرقها وغربها . ثم اختط جنوب الأزبكية بشرق، الى القلعة، الشارع الفخم الذى أطلق عليه اسم جدّه العظيم، اشــعارا بأن القلعة، وان بناها صلاح الدين، فانمـا أصبحت تعرف بمحمد على . لأن دولته قامت فيها، وشمس حياته توارت فى المقام المشيد على جبينها . فأصبح السبيل الى ذلك الحصن سهلا أمينا، بعد أن كان الوصول اليه عن الطريق، التى يتبعها المحمل سنويا، منه الى الحسينية، وعرا كثير التعرّجات، والمنعطفات، والمضايق .

تحويل الأزبكية الى ما هى عليه الآن

ولمـا عاد سنة ١٨٦٧ من زيارته لمعرض باريس، وقد أخذت بلبه التحسينات الجارية فى العاصمة الفرنسية على طريقة هوسمن الشهير، أقدم على الأزبكية؛ فقلبها رأسا على عقب؛ وطلب من بستانىّ فرنساوى، أن يعملها له على شاكلة حدائق تلك العاصمة فكيفها ذلك البستانى تكييفا بديعا . وتصرف فى الترعة التى كانت دائرة حولها والبحيرة التى كانت داخل السدّ الذى بناه (محمد على) تصرفا جميلا؛ واذا بمـا كان مجرى لمياه راكدة، وصفوف أشجار لا نظام لها، وبحيرة أقرب الى المستنقع منها الى بساط يقرّ العين النظر اليه، قد تحوّل الى بستان على مثال البرك منسو بباريس وخرج الى الوجود، نزهة من أنزه المنتزهات، ومكانا بديعا يخلب الألبـاب، تنيره الأنوار الغازية، وتزينه الفسقيات الناثرة المـاء فى الأعالى، لؤلؤا ساطعا، والمغـائر

الصناعية، المنحدر منها الماء بخرير تلذ به الأسماع، الى بحيرة صافية، تجرى الأسماك فيها ملوّنة.

وأقبل على الحيّ المحيط به، فجعل ينترع ملكية منازله الخشبية التي كانت للأقباط مقابل تعويضات يدفعها اليهم، ويزيل تلك المساكن العتمة، ويهب الأرض التي كانت قائمة عليها هبة الى من شاء التعهد باقامة مبان فخمة عليها، تتفق مع عظمة القاهرة الجديدة المراد انشاؤها.

فكان أكبر أولئك المتعهدين شأنا، وأكثرهم مالا وإقداما، الدوق أوف سيوذرلاند فانه ما فتئ يقيم، في حيّ الأزبكية هذا، القصور والفنادق، ويعدّل، ويكيف الموجود منها فيه حتى بلغ به الى ما نراه الآن عليه، من العظمة والرونق والجمال.

إنشاء أحياء جديدة

فاتخذه (اسماعيل) محورا لعظمته، وبعد أن أوصله بالموسكى شرقا، تحوّل الى غربيه، فأزال ما كان يعرف بباب الجنينة — وهو باب كان قائما على مدخل ذلك الحيّ، في منتهى الطريق الواصلة ما بينه وبين بولاق — واختط الى جنوبيه بميل نحو الغرب الأحياء البديعة المعروفة الآن بأحياء التوفيقية وعابدين والاسماعيلية، بعد أن أقام، في طرف الأزبكية الجنوبي، المسرحين الفخمين المضارعين في الجمال، والجلال والأبهة، مسارح أوروبا وهما المسرح الجديد والأوبرا. وأنشأ، أمام هذه، الميدان الفسيح الأرجاء المنظم الزوايا، المزرى بميدان ڤندم ذاته الشهير في باريس: وفي هذا الميدان الآن تمثال لأبيه البطل الهام، تجلى (ابراهيم) فيه، فارسا صنديدا، يتطاير البرق من عينيه، وقائدا بصيرا، تكسوه المهابة ويظلله الجلال، كما تجلى، حقا، لعسكره المصرى المعجب به، وللعسكر العثماني المأخوذ رعبا منه، يومى قنية ونزيب. وقد كان هذا التمثال في عهد (اسماعيل) بميدان العتبة الخضراء أنزله العرابيون

أيام الحوادث العرابية ثم بعد أن سكنت تلك الفتنة نصب فى ميدان الأوپرا حيث هو الآن .

اختطاط شوارع جديدة أخرى

ثم اختط ، فى تلك الأحياء، الشوارع العريضة، الظليلة ، الواصلة بين جهاتها المختلفة ؛ الشوارع ، التى ، بالرغم من كل ما حدث بعدها ، لا تزال من أفخر مسالك القاهرة، وأكبر شرايين مواصلاتها . وأهمها : شارع عبد العزيز، والشارع الذى أقام نوبار باشا فيه قصره الفخم فسمى باسمه، شمالا؛ وشارع كوبرى قصر النيل ، وشارع سراى الاسماعيلية، غربا : وغيرها وغيرها مما امتازت به القاهرة الاسماعيلية .

أما جنوبا ، فان كل ما اختط من سكك فقد انتهى الى رحبة فسيحة الأرجاء، مترامية الأطراف، تركت بين الشوارع والأحياء الجديدة، وبين الدروب والأزقة ، الموصلة من عابدين الى السـيدة زينب، لتمتدّ أمام السراى المنشأة بعابدين ، مقرّا للملك، بدل سراى القلعة ؛ كما تمتدّ ساحة الكونكرد ، فى باريس أمام قصر التويلرى الامبراطورى !

إنشاء سراى عابدين

ألا كم أبدع التفنن والتنسيق فى سراى عابدين هذه، وفى تزيينها بالرياش والأثاث الفاخر ! وكم أنفق من مال فى سبيل ذلك ، وفى سبيل جعل الحديقة الداخلية ، فى تلك السراى، قطعة من جنان الفردوس !

وأما غربا، فانه لمـا بلغ العمار النيل — وكان العمل من جهة أخرى ، قائما على قدم وساق لانشاء سراى الجزيرة الفذة — لم يعد يحسن إبقاء العبور، من شاطئ الى شاطئ، على كوبرى من المراكب المصفوفة بعضها بجانب بعض ، والممدودة عليها ألواح الخشب ، أو فى معدّيات بسيطة ؛ وبات من المحتم إقامة كوبرى يتناسب

إنشاء كوبرى قصر النيل

فى فخامته وجماله مع أبهة الأحياء المجاورة له . فعهد (اسماعيل) الى شركة فرنساوية أمر إنشائه . فأنجزته فى سنة ١٨٧٢ وبلغت نفقاته مائة ألف وثمانية آلاف من الجنيهات .

إنشاء كوبرى الانجليز

وبينما هو يقام ، شعر (اسماعيل) بالحاجة الى ربط الجزيرة ببر الجيزة أيضا ؛ فكلف محلا انجليزيا بانشاء كوبرى ، يصل بينهما . فأنجز فى السنة عينها ، وبلغت تكاليفه نيفا وأربعين ألف جنيه .

إنشاء القصور العديدة

وفى أثناء السير فى هذه المنشئات العظيمة ، وبينما القصور الباذخة تقام فى كل جهة يصلح أن يقام فيها قصر، ويبلغ عددها عشرات العشرات ، أهمها : قصر الجزيرة ببستانه الساحر ، وقصر النزهة على سكة شبرا ، وقصر حلوان ، وقصر القبة ، وقصر الاسماعيلية ، وقصر الزعفران ؛ بينما قصور أخرى قديمة تجدّد تجديدا لا يعيد اليها بجدتها فقط ، بل يزيدها رونقا وبهجة : كالقصر العالى ، وقصر المسافرخانه ، وقصر

والمساجد

النيل ، وسراى القلعة ؛ بينما المساجد ، لا سيما مسجد الرفاعى ، والمدارس توضع قواعدها الجرانيتية ، وتنشأ فى كل جهة من جهات المدينة العظيمة — منها مايشيده

اقتداء الكبراء بالخديوى

(اسماعيل) ، ومنها ما يشيده البر ؛ وبينما وزراء مصر ووجهاؤها وأعاظم سراتها ، كشريف ونوبار ، واسماعيل صديق ، وعلى شريف ، وغيرهم ، كطاعت ورياض ، يقتدون بالأمير ويقيمون فى الأحياء المنشأة حديثا أو فى الأحياء العتيقة ؛ المزدانة بقصور المماليك القدماء ، كحىّ الدرب الأحمر ، وحىّ الحلمية القديمة ، وغيرهما ، المنازل الفاخرة ، والبيوت العامرة ، ذات الرياض والبساتين الداخلية — كان العمل قائما على قدم وساق ، وبكيفية لا تدرى ما هو الملل أو الكلل ، لإنجاز ما لم تتمكن العزائم

توزيع الماء على أحياء مصر القاهرة

السالفة من إنجازه ، وأعنى به توزيع المياه على أحياء القاهرة توزيعا منظما مستمرّا .

لخشت همم الشركات ، وحملت الجهود على المباراة ؛ ولم يمض زمن إلا وأقيمت المبانى اللازمة لرفع المياه وتخزينها ؛ ومدّت المواسير تحت الشوارع وفى الحارات والدروب ، وسير ماء النيل مقطرا من خزاناته اليها ، فتسرّب منها الى الحنفيات فى البيوت . وحلت مشكلة قديمة العهد ، بفضل إرادة (اسماعيل) الحديدية .

تحسين النظافة والصيانة

ولما بات الماء ميسورا غزيرا ، توسع القوم فى وسائل النظافة والصيانة ، وطفق طل الرش يهطل على الشوارع فى الصباح والعصر بانتظام ؛ وأخذت المنازل ، حتى الحقيرة منها ، تغسل مرارا فى الأسبوع و بغزارة : فقلت الأمراض ، وتحسنت الصحة العمومية .

وكان العمل قائما ، كذلك ، على قدم وساق ، بالكيفية عينها ، وفى عموم الأحياء ، قديمها وجديدها ، لتعميم الإنارة بالغاز . فكانت مواسير السائل المنير توضع بجانب مواسير الماء المحيي ؛ حتى اذا تمت الأحياء البديعة ، وشيدت القصور الرفيعة ، وغرست البساتين الجميلة ، وتجلت الشوارع الفسيحة ، ناصعة النظافة ، ظليلة الجانبين ، تدفقت اليها فى وقت معا المياه ، وسطعت فيها الأنوار : فتجلت المدينة ، كلها ، المعتادة الظلام ليلا ، منذ نشأتها — وقد تكيف قديمها ، و برز جديدها يرفل فى حلله البهية — عروس الشرق قاطبة و يتيمة عواصمه .

إنارة أحياء مصر وشوارعها بالغاز

و بلغت نفقات هذه المبانى والمنشئات ، والتحسينات ، وتوزيع المياه والنور على العاصمتين ، وفى السويس بعدهما ، ثلاثة ملايين وثلاثمائة ألف جنيه .

فاذا تمثلنا مقدار ما اقتضته كل هذه الأعمال المختلفه من حركة تجارية متنوعة ، وأضفنا الى ذلك جميعه ما نجم ، فى سنى ملك (اسماعيل) الأخيرة ، من مضاعفته

لتلك الحركة عينها ، عن انضمام بواخر الأسطول المصرى الى سفن الشركة العزيزية فى أعمالها ، وتكوينها معها ما عرف فيما بعد باسم " الوابورات الخديوية " ، لم نستغرب اطراد الزيادة فى الواردات والصادرات على العموم ، ولا سيما فى عامى ١٨٧٢ و ١٨٧٣ وهما السنتان اللتان بلغ العمل فيهما أقصاه ، والجهود غايتها ، كما يتضح ذلك من الجدول الآتى[1] :

سنة	جنيه	سنة	جنيه
	حركة الواردات (الواردات)		
١٨٦٦	٤٦٦٢٢١٠	١٨٧١	٤٥١٢١٤٣
١٨٦٧	٤٣٩٩٠٩٧	١٨٧٢	٥٥٠٥٩٩٥
١٨٦٨	٣٥٨٢٩٦٩	١٨٧٣	٦١٢٧٥٦٤
١٨٦٩	٤٠٢١٦٠١	١٨٧٤	٥٣٢٢٤٠٠
١٨٧٠	٤٥١٢٩٦٩	١٨٧٥	٥٦٩٤٨٢٠
	حركة الصادرات (الصادرات)		
١٨٦٦	٩٧٢٣٥٦٤	١٨٧١	١٠١٩٢٠٢١
١٨٦٧	٨٦٢٣٩٧٤	١٨٧٢	١٣٣١٧٨٢٥
١٨٦٨	٨٠٩٤٩٧٤	١٨٧٣	١٤٢٠٨٨٨٢
١٨٦٩	٩٠٨٩٨٦٦	١٨٧٤	١٤٨٠١٤٤٨
١٨٧٠	٨٦٨٠٠٧٢	١٨٧٥	١٢٧٣٠١٩٥

(١) أنظر ماك كون : "مصر كما هي" ص ١٧١ و ١٧٢

وأدركنا صدق قول السير بارتل فرير فى محاضرة ألقاها فى " الادنبرج فيلوز فيكل انستيوش" وهو : « إن التجارة والسكك الحديدية عملت بمصر عملها فى كل قطر أوروبى تقريبا » ، وأدركنا كذلك صدق قول القنصل المؤلف الأمريكى أدون دى ليون القائل فى سنة ١٨٧٥ : « الحقيقة هى أن التصليحات والتحسينات والأشغال العمومية التى شرع فيها وأنجزت فى الاثنتى عشرة سنة الأخيرة ، فى القطر المصرى ، كانت مدهشة عجيبة لا مثيل لها فى أىّ قطر مساحته أربعة أضعاف مساحة القطر المصرى ، وسكانه أربعة أضعاف سكانه » (١) .

واذا عرفنا أن ثمن مجموع الواردات ، مابين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٧٥ ، زاد على ثمن مجموعها ، مابين سنة ١٨٥٥ وسنة ١٨٦٥ ، خمسة عشر مليونا وستمائة ألف جنيه ، وأن ثمن مجموع الصادرات ، مابين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٧٥ ، زاد على ثمن مثيله ، ما بين سنة ١٨٥٥ وسنة ١٨٦٥ ، واحدا وستين مليونا وستمائة وواحدا وثلاثين ألفا وخمسمائة وستة من الجنيهات ، أدركنا بسهولة مقدار الثروة الضخمة التى دخلت القطر زيادة على الثروة الهائلة التى أصابها أهله فى الاثنتى عشرة سنة الأولى من ملك (اسماعيل) (٢) وكبرت حركة القطر الزراعيــة التجارية العملية فى عيوننا ، وبتنا أقرب الى النظر ، بلا تحيز ، الى ما يهوّل به من جسامة الضرائب وفداحة الديون .

هذا إذا صح الاعتماد على صدق الأرقام المبينة أعلاه . ولكن المعلوم أنها دون الحقيقة بكثير . وذلك لأن مصلحة الجمارك لم يدخلها الاصلاح ، بمعانيه كلها ، إلا فى سنة ١٨٧٧

(١) أنظر : "مصر الخديوى" لادون دى ليون ص ٣٦٣

(٢) وقد قدر العارفون أن ثمن مجموع المحصول الزراعى فى تلك الأيام كان ٤٥ مليونا و٣٨٢ ألفا و٢٣٣ جنيها سنويا ، فضلا عن مبلغ ٦ ملايين و٥٤٠ ألفا و٧٨٣ جنيها ثمن خيل ومواشى وطيور وبيض وزبدة وجبنه وعسل وملح وسمك ، وحجر وخشب الخ . فيكون المجموع سنويا : ٥١٩٢٣١١٥ جنيها .

الجمارك والضرائب على بعض المهن كانت تعطى التزاما

فانها كانت، فى أيام (محمد على) التزاما يمنح، مقابل جعل سنوى معلوم، الى أفراد يستغلونه لحسابهم الخاص، أسوة بأبواب ايراد أخرى كانت حكومة (محمد على) تعطيها التزاما لمن يرسو عليه آخر عطاء.

وكانت الجمارك نوعين : جمارك الثغور والحدود والجمارك الداخلية. فكانت الرسوم فى جمارك الثغور تؤخذ على الواردات والصادرات؛ وتؤخذ فى جمارك الحدود على الواردات فقط سواء أكانت من السودان أم من الغرب والشرق. وأما الجمارك الداخلية فكانت رسوما تدفع على البضائع لدى ادخالها فى أىّ بلد من بلاد القطر العامة. وكان يقال لها فى مصر وطنطا وغيرها "دخوليات" وفى أسوان وإسنا و باقى الصعيد حتى أسيوط "جمارك". والاختلاف فى التسمية نتيجة الاختلاف فى الواردات. فمن أسوان لغاية أسيوط كانت تتقاضى، على الأخص، من الجلابين، على الرقيق المجلوب؛ وأما فيما عداها من المدن فكانت تؤخذ على البضائع، ولا سيما مواد الطعام، كالخضر والفواكه والأسمان واللحوم.

الغاء (سعيد) عموم الجمارك الداخلية والدخوليات

وقد رأينا أن محمد سعيد باشا ألغى جميع الجمارك الداخلية والدخوليات، كما أنه أبطل أن تكون جمارك الحدود والثغور التزامات وأنه جعلها مصلحة أميرية مستقلة.

خلل مصلحة الجمارك

غير أنها لم تنتظم : (أوّلا) لأن وظائفها كانت تباع بيعا كما كانت تباع مناصب القضاء فى فرنسا قبل الثورة العظمى فيها سنة ١٧٨٩؛ (ثانيا) لأن المرتبات كانت قليلة، وغير وافية بالحاجة، فتلزم متقاضيها بالركون الى "البقشيش" والرشوة ليعيشوا فكانوا يأخذون جنيها، مثلا، على صندوق البضائع الحريرية، الملزم بدفع رسوم قدرها ثلاثة وعشرون جنيها وثمانية عشر شلنا للحكومة، ويسمحون له بالخروج من الجمرك؛

أو يعتبرون البضائع الحريرية بضائع قطنية ، ويتقاضون عليها الرسوم المفروضة على البضائع القطنية ؛ أو كانوا ، أيضا ، لا يراعون حقوق الأولية : فيمكنون من يزيد بقشيشه من التجار على بقشيش سواه من تخليص بضائعه والخروج بهـا قبل غيره ، ولو كان آخر القادمين ، غير تبخيس أثمانها الحقيقية ساعة التثمين ؛ و (ثالثا) وأخيرا لأن التهريب كان كثيرا ومنظما ؛ ومعظم المهرّبين يونانيون فى منتهى الجسارة ؛ ونظام الامتيازات يحميهم ، فيمكنهم من الاستهزاء بالحكومة المصرية وعمالها . ولا أدل على ذلك مما رواه موريس بك ، أحد كبار رجال الداخلية ، للمستر بتلر ، مربى ولدى الخديو

حكاية غريبة

محمد توفيق فى سنة ١٨٨٠ ومفاد الرواية أن رجال خفر السواحل ضبطوا ذات يوم كمية كبيرة من تبغ وتمباك كان بعض المهرّبين اليونانيين يحاولون تهريبها . فلما نمى خبر الضبط الى القنصـــل اليونانى — وكان يشاطر المهرّبين أرباحهم — جمع فى الحال خمسمائة «جريكى» من حرافيش القوم وزعانفهم وأوباشهم ، علاوة على جماعة المهرّبين أنفسهم ؛ وهاجم ، بجمهورهم الغفير ، خفراء السواحل ، فى عقر مقرّهم ، ليستخلص منهم المضبوط . فدارت بين الطرفين معركة فظيعة ، عض القنصل فيها بأسنانه ذراع أحد العساكر عض كلب ، رأى موريس بك أثره بعدئذ ، فى ذراع الرجل ، وعرف أن القنصل هو العاض ، لأن سنا من أسنان هـذا الموظف الأمثل الأمامية كانت ناقصـــة فى فكه ، وظهر أثر نقصها فى دائرة العضة . فلما رفع الأمر الى الحكومة ، أتدرى أيهـا القارئ اللبيب ، ماذا كانت نتيجة الشكوى ؟ أن السياســة تداخلت فى الأمر : فعوقب خفراء السواحل ولم يصب المهرّبين أذى[١] .

---

(١) أنظر بتلر : "حياة البلاط بمصر" ص ١٣٨ و ١٣٩

اصلاح ادارة الجمارك في عهد (اسماعيل)

فعهد (اسماعيل) الى موظف انجليزى فى جمرك لندن، يقال له المستر سكر يفنور، بتنظيم مصلحة الجمارك المصرية وترتيبها . وكان الرجل خبيرا فى العمل، لاشتغاله زمنا طويلا فيه، وتقلده عدّة مناصب ادارية جمركية فى البرتغال والبرازيل .

فأدخل إصلاحات جمة على المصلحة المعهودة أمورها اليه، لا سيما على حساباتها، التى وصفها لى كبير من موظفى الحكومة الحالين على المعاش ممن كانوا فى الجمرك فى ذلك العهد البعيد . فلم يجد تعبيرا عن حالتها أظهر للخلل السائد فيها من قوله لى : «إنها كانت بطن حمار» .

ولكن خللا كبيرا استمر، بالرغم من مساعى المستر سكر يفنور ومجهوداته، منتشرا فى عدّة أفرع من مصلحة الجمارك ؛ ولم يعمها الاصلاح تماما إلا فى عصرنا هذا وعلى أيدى حكومتنا الحالية بفضل مجهودات مديريها كليار باشا وشيتى بك والمستر كنج لويس خليفتهما .

فلو كان نظامها الحالى نظامها سنة ١٨٧٥، لأمكن لنا أن نقف، تماما، على حقيقة الثروة التى دخلت القطر ما بين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٧٥ ؛ ولتجلى لنا أن مقدارها ضعفا ما أثبتته الاحصائية الجمركية فى تلك الأيام، مذ أوجب انشاء وزارة تجارة مستقلة سنة ١٨٧٦

الفصـــل الرابع[1]

إحياء مالية القطر

"المـال! المـال! فكل شئ بدون المـال — على ما يقال — جدوب"
« بوالو »

حالة المالية التعيسة لدى وفاة (سعيد)

ان عنوان هذا الفصـل وحده ، متى وقع عليـه نظر بعض القرّاء ، قد يجعلهم يبتسمون ابتسامة الازدراء ، ويقفونها بسؤال يمتزج فيه الاستغراب والاستنكار معا امتزاجا تاما ، كالسؤال الآتى : « أوكيف؟ (اسماعيل) ، الذى أثقل ماليـة القطر بالدين الباهظ ، الذى لا يزال القطر يئن تحت فداحة ثقله ، (اسماعيل) أحيا مالية مصر؟ انك ياهذا تمزح! » ولكنا لا نمزح مطلقا ، بل نقول ، ونحن نزن الكلام فى ميزان التعقل التام : نعم ان (اسماعيل) أحيا مالية القطر . واليكم الدليل بل الأدلة .

مات (سعيد) ، وعلى الخزينة المصرية — غير القرض الذى عقده وقدره مليونان وسبعمائة وخمســة وخمسون ألفا وخمسمائة جنيه انجليزى — دين سائر يربو على عشرة ملايين جنيه ، لا تبرره أعمال عمومية نافعة مطلقا ، وانما أوجبه :

(أوّلا) أن سعيدا كان لا يعرف للنقود قيمة . يدل على ذلك أن المسيو براڤيه ، صديقه الحميم ، الذى سبق لنا الكلام عنـه ، شكا له ، يوما ، أن تقـدير ثمن أحد الأشغال ، التى كلف بعملها ، بليرات ايطالية ، مجحف بحقوقه إجحافا كبيرا . فقال له

(١) أهم مصادر هذا الفصل هى : "مصر" لمالورتى ، و"مصر المعاصرة" لبول مريشو ، و"تاريخ مصر المالى" لمجهول ، و"مصر تحت حكم اسماعيل" لماك كون ، و"مصر تحت حكم محمدعلى" لهامون .

(سعيد) : « دعهم يقدرونه ، اذًا ، بليرات انجليزية ! » غير مبال بأن الليرة الانجليزية تساوى الليرة الطليانية خمسا وعشرين مرة[١] .

(ثانيا) أنه كان متلافا ، لا يعرف تبذيره حدّا يقف عنده ، حتى لقد أنفق مرة على زخرفة حجرة فى أحد قصوره نيفا وسبعة ملايين من الفرنكات[١] ؛ وكان معطاء للّهى ، لا يعرف سخاؤه أن يميز بين من يصح أن يكون موضع إنعام ، ومن لا يصح ، حتى لقد أهداه ، مرة ، مالىّ أجنبىّ من المقيمين بالاسكندرية سل فاكهة ، ثم طلب منه نفحة بخمسة عشر ألف جنيه ، ففعل .

(ثالثا) أن المتعهدين بتوريد ما تحتاج اليه حكومته أو ما يحتاج اليه هو ، لا سيما الأجانب منهم ، لعلمهم بقلة تقديره للنقود ، كانوا لا ينفكون يغشونه و يسرقونه ، وهو لا يبالى بأعمالهم ، إما تعاليا ، و إما لعدم اهتمام منه بهم .

(رابعا) أن مطالبات الغربيين على ألسنة قناصلهم بتعويضات عن أضرار وهمية ، يزعمون أنهم أصيبوا بها ، فى اتفاقات أبرموها مع الحكومة المصرية ، كثرت جدّا فى عهده و بلغت ، فى خروجها عن طور المعقول ، حدّا جاوز كل احتمال ، وضاقت ، دونه ، رحبة تسامح (سعيد) على سعتها : لأنه بات لا يعمل ، أو لا يهمل عملا ، تعاقد عليه مع إفرنجى ، إلا وتكون نتيجته مطالبة ذلك الافرنجى إياه بتعويض . وأىّ تعويض ! يكاد يتضاءل بجانبه مبلغ الستة والخمسين ألف جنيه استرلينى ، الذى تقاضاه من عباس الأول ، المهندس الانجليزى مخطط سير السكة الحديدية من اسكندرية الى مصر ، أجرة على تخطيطه ، ومبلغ الستة عشر ألف جنيه الذى طالب به لتعديل ذلك السير ، بعد أن اتضح تعذر تنفيذه كما خططه — على أنه لم ينل منه

(١) مالورتى : "مصر" ص ٦٩ حاشية رقم ٣٠٧

سوى ستة آلاف، عملا بما حكم به المستر بروس القنصل البريطانى العام، المحكم فى الموضوع[١] !

نكتتان لسعيد

وقد أشار (سعيد) ذات اليوم، بنكتة لطيفة، الى ما كانت تغص به نفسه من تلك المطالبات الجائرة الحمقاء . فانه كان يستقبل أحد قناصل الدول الكبرى، فى سلاملك رأس التين، فى قاعة تطل شبابيكها الواسعة على البحر؛ وكان الزمن صيفا، وتلك الشبابيك مفتوحة، ونسيم البحر العليل يدخل منها، كأنه نسمة من الجنان . فجلس القنصل مكشوف الرأس، بجانب (سعيد) أمام أحد تلك الشبابيك، وما لبث أن عطس؛ فأسرع (سعيد) وقال له باهتمام، وهو يتبسم : «تفضل ياجناب القنصل، تفضل والبس قبعتك! فقد يصيبك زكام، وأنت عندى فتهب دولتك الى مطالبتى بتعويض[٢]» .

وكان سعيد يقول فى هذا الصدد : «إنى لأخشى أن ينظر جوادى شذرا فى طرقات الاسكندرية الى افرنجى، فيهبّ ويطالبنى بتعويض[٣] !» .

وتذكرنا هاتان النكتتان بما كان عليه (سعيد) من خفة الروح وظريف الملح، بسبب تربيته الفرنساوية، ومنبته الفرنساوى البحت . فقد ذهب الى زيارة لندن مرة، أيام إقامة أوّل معرض فيها . فاذا بطقسها لم ينفك مغيما، ماطرا، طوال مدّة إقامته هناك . فبينما هو، ذات يوم، يتفقد احدى حجر ذلك المعرض، رأى شعاع شمس نافذا من السقف الزجاجى الى الداخل، ومنتشرا فوق مكان من المعروضات، كأنه

(١) أنظر : "مصر المعاصرة" لبول مرثيو، ص ١٠١ و ١٠٢

(٢) أنظر : "نوبار باشا" لبرتران ص ١٠

(٣) أنظر : "نوبار باشا" لبرتران ص ١١

وضع فيه خصيصا . فالتفت (سعيد) الى ذى الفقار باشا ، مراقب عموم ماليته ، ونديم سفره ، وقال له باسما : « ألا ترى ما أندر الشمس هنا ! فقد بلغ من ندرتها لديهم أنهم أصبحوا يعرضونها ضمن نفائسهم[1] ! » .

ولكن (سعيد) المسكين كان كفرنساويى أيام الكردينال مازارين : اذا تململوا من ضريبة ، وضعوا فيها أغنية سخرية ، ورددوها مدة ، دون أن يمنعهم ذلك من دفع الضريبة ، حتى كانت عادة الكردينال أن يقول عنهم بفرنساويته المشوبة بايطالية : « إل كانتارون ما إل پاجارون » أى سيغنون ، ولكنهم سيدفعون .

و (سعيد) كان ، اذا تململ من جور طلبات التعويضات ، انتقم لنفسه بنكتة كالتى ذكرناها ، ثم أفضى به الأمر الى دفع المطلوب .

الحوالات على المالية

فأدى ضغط ذلك الدين السائر الباهظ على عاتق الخزينة المصرية الى ضائقة مالية شديدة باتت معها مرتبات الموظفين والمستخدمين ، فى سنى حكمه الأخيرة ، لا تصرف لهم إلا نادرا ، وان صرفت ، فبمطل وبطء . ونجم عن عدم صرفها أن أوراقا مالية من نوع جديد ، لم يرو عن مثلها أبدا ، برزت الى عالم الوجود فى الأسواق المصرية . وكانت عبارة عن تحاويل على المالية المصرية أخذ يحررها أولئك المستخدمون والموظفون ويسلمونها الى ممونيهم ، سدادا لمطلوباتهم .

فبات يحيط بأبواب المالية جيش من البدالين والقصابين وخلافهم ، لا تستطيع الحكومة التخلص منه ومن طلباته : (أولا) لندرة النقود فى خزائنها ؛ و (ثانيا) لعدم تمكنها — بسبب أن معظم أولئك المطالبين أجانب ، يحميهم نظام الامتيازات — من فض جموعهم بكرابيج رجال الشرطة ، كما كانت تفض تجمهر الدائنين الوطنيين

(١) أنظر : مالورتى "مصر" ص ٦٩ حاشية رقم ٣٠٨

من أرباب الحرف والصناعات ورجال المقاولات ، الذين اشتغلوا لحسابها وداينوها ؛ فان مطالب هؤلاء الأهالى كانت تدفع اليهم لكما وركلا وسياطا ، فى نهاية الأمر . ولو استعملت الحكومة طريقة الضرب هذه مع أولئك الأجانب ، لفتحت على نفسها أبواب ويلات لا فراغ منها إلا بدفع تعويضات مالية جسيمة ، وتقديم ترضيات أدبية تحط من شأنها حطا كبيرا .

فكانت تلجأ ، اذًا ، الى المماطلة والمراوغة ؛ ولكنها تضطر الى الدفع بعد استنفاد كل وسائل التعطيل والتأجيل والتسويف .

وباتت تلك الحال السيئة نظامية الى حدّ أنه أصبح لتلك التحاويل سوق خاصة بها ومعدّل خصم جار ؛ وكان معدّلا يتجاوز حدود الاعتـدال ، بقدر تجاوز فرض الدفع دائرة الاحتمال ؛ أو على قدر ما تتجاوز صعوبات التحصيل حدّ المألوف .

غير أن ضـغط الاحتياج أدّى الى تداول تلك التحاويل تداولا أثرى منـه عدّة صيارفة بمصر والاسكندرية وغيرهمـا من البنادر التى كانت مقرّا لموظفى الحكومة ومستخدميها .

اصلاح (اسماعيل) الحالة السيئة

فلما آل الحكم الى (اسماعيل) ، أمر : (أوّلا) بصرف جميع المتأخرات ، سواء أكانت للمستخدمين والموظفين ، أم لرجال الجيش ؛ و(ثانيا) بصرف المرتبات لمستحقيها فى أوقاتها بانتظام . فاختفت تلك التحاويل من السوق ؛ وزالت عن عنق المـالية المصرية المطالبة الملحوحة بسدادها ، التى كانت ناشبة أظفارها فيه .

ولمـا كان إقبال المعامل الغزلية والنسجية الأوروبية على ابتياع القطن المصرى بكثرة ، بسبب الحرب الامريكية الأهلية ، قد أوجب تحسينا فجائيا فى أسعاره ، ورفعها

رفعا مطردا الى حدّ غير منتظر أو محلوم به؛ ونجم عن غزارة النقود فى البلد، أن التوازن بين قيمتها وقيمات موادّ الغذاء والترف، أصبح مختلا اختلالا جسيما — كما هى الحال فى أيامنا هذه بسبب الحرب العالمية واحتياج السلطة العسكرية الى محصولات البلاد وأيدى العملة — أمر (اسماعيل) بزيادة رواتب موظفى حكومته، ولا سيما كبارهم، زيادة مناسبة، تساعدهم على حفظ كرامتهم، وتحول دون تدنيهم الى المال الحرام[1].

زيادة رواتب الموظفين

فاكتسب بهذين العملين ثقتهم بحكومته وولاءهم لشخصه.

ولعلمه أنه لا يستطيع الاستمرار على دفع المرتبات فى حينها، فضلا عن دفع العلاوات التى جاد بها، إلا اذا كانت خزينة المالية ممتلئة دائما؛ ولعلمه أن لا شئ يملؤها أكثر من توسيع موارد ايراداتها؛ وأنه لا سبيل الى ذلك التوسيع إلا بانماء مساحة أرض القطر الصالحة للزراعة وتنويع مزروعاتها، وإنماء تجارة البلاد وتكبير دائرة العمل فيها، أقدم على ذلك جميعه بما سبق لنا بيانه من الهمة والنتائج. ونجم عن إقدامه هذا أنه بينما كانت ايرادات الحكومة فى سنة ١٨٣٥ مليونين وستمائة ألف جنيه، وفى سنة ١٨٦٢ أربعة ملايين وتسعمائة وتسعة وعشرين ألف جنيه، يقابلها مصروف قدره مليونان وثلاثمائة جنيه، فى سنة ١٨٣٥ — أى باقتصاد ثلثمائة ألف جنيه، وأربعة ملايين وثلاثمائة وثلاثون ألف جنيه، فى سنة ١٨٦٢ — أى باقتصاد نحو ستمائة ألف جنيه — أصبحت ايرادتها، فى سنة ١٨٧٦، عشرة ملايين وسبعمائة واثنين وسبعين ألفا وستمائة وأحد عشر جنيها، تقابلها مصروفات قدرها ثمانية ملايين وتسعمائة وواحد وثمانون ألفا وثمانمائة واثنان وخمسون جنيها — أى باقتصاد مايقرب من مليونى جنيه. وذلك بعد دفع الفوائد المطلوبة على الديون

(١) أنظر: "تاريخ مصر المالى" لمجهول ص ١٧

المسجلة وستمائة وخمسة وثمـانين ألفا وثلاثمائة وثمانية عشر جنيها ، مقـدار الجزية السنوية للأستانة .

وإنمـا نذكر سنة ١٨٧٦ لأنها السـنة الأخيرة من حكم (اسماعيل) وهو مستقل عن كل رقابة أوروبية ، ولأن عظمته بلغت أوجها فيها .

ومصادر تلك الايرادات : الأموال ، والرسوم ، والسكك الحديدية ، ومختلفات . مصادر الايرادات

أما الأموال ، فأربعة ملايين وثلاثمائة ألف جنيه وخمسة آلاف جنيه من الأطيان الزراعيـة ، ومساحتها أربعة ملايين وثمانمائة وخمسـة آلاف وثمانمائة وسبعة أفدنة بين خراجية وعشورية ؛ و ١٨٩٠٠٠ جنيه من النخيل وعدده ٤٤٦٧٠٠٠ نخلة و ٤٢٢٠٠٠ جنيه من الرخص الحرفية .

وأما الرسوم ، فسبعمائة وتسعة وثلاثون ألف جنيه من الجمارك ، و ٢٦٤٠٠٠ جنيه من الدخان .

وأما ايراد السكك الحديدية ، فبعد أن كان ٣٦١٣٠٠ جنيه ، فى سنة ١٨٦٣ ، أصبح ٩٩٠٢٠٠ جنيه فى سنة ١٨٧٦

وأما المختلفات ، فبلغت ٢١٠٠٠٠٠ جنيه ، وليس بين أبوابها فى عهد (اسماعيل) باب واحد لم يكن فى عهد (محمد على) بين أن كثيرا من الضرائب المفروضة فى عهد (محمد على) لم تكن مفروضـة فى عهد (اسمـاعيل) . ومن شاء المقارنة بين ضرائب العهدين فما عليه إلا مراجعة كتاب هامون "مصر تحت حكم محمد على" وكتاب ماك كون "مصر تحت حكم اسماعيل" ؛ فيرى أن الخراج فى أيام (اسماعيل) كان ستة شلنات ونصفا على كل ذكر من سنّ عشرة فما فوق ، ماعدا المستخدمين والجنود ، وأنه كان مربوطا على كل بيت من بيوت الريف — وعددها ثمـانمـائة وثلاثون ألفـا —

أربعة قروش صحيحة سنويا ، وأن المربوط على الرخص التى كانت تعطى للتجار والصناع والمحترفين ، كان يتراوح بين تسعة شلنات ونصف ، وسبعة جنيهات وخمسة عشر شلنا على الفرد ، وأنه كان هناك ضرائب على المواد الأولية المستعملة فى الصناعة ، وضرائب على المصنوعات بمصر واسكندرية ورشيد ودمياط ، ودخوليات قدرها ٢٥ ٪ على المأكولات والأتبان ، ومواد الوقود والبناء ، وضريبة قدرها ١٠ ٪ على كل مايعرض للبيع فى الأسواق ، سواء أوزن أم لم يوزن فوق ١٠ ٪ أخرى كانت تتقاضى على البضائع عينها لمصلحة الجيش ، وأنه كانت هناك ضرائب على العربات وحيوانات النقل كلها ، والبقر والثيران ، تختلف من ثلاثة الى أربعة جنيهات عن كل عربة ، والى سبعة شلنات ونصف على حمار الفلاح أو الحمار . غير رسم آخر يتقاضونه منها جميعا ، ويتراوح بين ثلاثة قروش ، وعشرين فضة صاغ ، كلما دخلت تلك العربات والحيوانات مدينة من المدن ، وأنه كان هناك ضرائب على الملح ، وعلى الدخان ، وعلى الخرفان المذبوحة ، وعلى المعديات ، وضريبة على الملاحة عموما وقدرها واحد وعشرون شلنا سنويا عن كل مركب ، وقرشان ونصف عن كل أردب من الحمولة ، علاوة على رسوم المرور ، تحت الكبارى ، و٥٠ ٪ على المصايد ، وأنه كان هناك ضريبة على الزواج ، وأخرى قدرها خمسة شلنات ونصف على كل ميت يدفن ، سواء كان رجلا أم امرأة أم طفلا . وأن البدل العسكرى كان ١١٢ جنيها . ويرى أن هذا جميعه كان موجودا فى عهد (محمدعلى) ، ماعدا البدل العسكرى ، وما لم يكن يمكن وجوده ، لعدم وجود موجبه ، كرسوم المرور تحت الكبارى ، لأن الكبارى فى أيام الباشا العظيم لم تكن معروفة[1] .

(١) أنظر : "مصر تحت حكم اسماعيل" لماك كون ص ١٤٨ و ١٤٩ و ١٥٠

فالزيادة الكبيرة فى الايرادات فى سـنة ١٨٧٦ ، كانت ، والحالة هـذه ، نتيجة اتساع نطاق الزراعة اتساعا عظيما ، ونتيجة اتساع نطاق التجارة والصناعة والعمل اتساعا لم تعهده أيام (محمد على) ، ونتيجة تعـديل طريقة ربط الضرائب وطريقة تحصيلها ؛ لا نتيجة إرهاق الأهالى بالضرائب إرهاقا فاحشا غير معهود ، كما قيل كثيرا .

ولولا أن البلد ، لما استلمه (اسماعيل) ، كان خاليا من كل أسباب الحضارة وأقرب الى الخراب والهمجية منه الى العمران والمدنيـة ؛ لولا أنه كان يجب أن ينشأ كل شئ فيه ، مع قيام رغائب أهله فى عكس تيار كل اصلاح على العموم ؛ ولولا أن كل شئ خلق فيه بسرعة لم تترك للنمو الطبيعى مجالا — وذلك لشدّة الشوق الى قطف ثمر الغراس المغروس ؛ فاقتضت الحال عدم النظر الى كمية المنفق ، وقلة الاكتراث بالديون ، مهما بلغت ، وأنى وصلت ، فى سبيل نيل بغية النفس السامية ، وتحقيق الخطة النبيلة الموضوعة ، لولا ذلك جميعه ، لأدّى ازدياد الايرادات فى الخزينـة المصرية ازديادا مطردا الى إبراز عجائب فى عالم الوجود ، مزرية بعجائب أيام الباشا العظيم ومعجزاتها ، على سطوعها .

على أن التاريخ لن يغمط (اسماعيل) فضله فى أنه عمل على إفادة بلاده من ذلك الازدياد كل الافادة ، التى كان مركزها السياسى والاجتماعى يمكنها من نيلها على يديه ؛ وأنه لم يترك ميدانا من ميادين الاصلاح والعمران والرقى إلا وأدخلها فيه بهمته ، وعدا بها فى حلبته بغيرة ملتهبة لا تعمل حسابا للصعوبات ، ولا تبالى بثمن إزالة العقبات من السبيل .

أمّا وقد تكلمنا عن نجاحه فى مضمار المـاديات ، فانه لم يبق لنا إلا التكلم عن نجاحه فى مضمار التعليم والحركة الفكرية ، وفى مضمار ترقية شؤون حياة أمته الاجتماعية .

الفصل الخامس (١)

انتعاش التعليم والحركة الفكرية

تعـلم : فليس المرء يولد عالمـا * وليس أخو علم كمن هو جاهل
فانّ كـبير القوم لا علم عنده * صـغير اذا التفت عليه المحافل

«عمر بن عبدالعزيز»

حال التعليم قبل (محمد على)

لمـا دخل الفرنساويون مصر سـنة ١٧٩٨ ، لم يكن فى القطر كله إلا مدرسـة الأزهر ومكتبتها الحاوية لكتب علوم الدين وكتب لغة وآداب . ومع أن الأساتذة المدرّسين فى تلك الكلية كانوا عديدين فان عدد الطلبة كان قليلا بالنسـبة لمـا هو الآن . ومع أنه كان يوجد سـبعة أروقة للعلوم ، فانه لم يكن التعليم يتجاوز تجويد القرآن ، ومعرفة الحـديث ؛ وتعدّد الأروقة إنمـا كان لسبب تعـدّد أنواع الطلبة وجنسياتهم ، كما هى الحـال الآن ؛ غير أنه كان فى القاهرة عينها عدد يعتدّ به من الكتاتيب المخصص لها أوقاف خيرية لتعليم الأولاد مبادئ القراءة والكتابة ، والقرآن الكريم .

فلما بدأ حكم (محمد على) يسـتقرّ فى القطر ، نجم — عن القليل من النظام والأمن اللذين أدخلهما على الحياة القومية ، وعن إعفاء طلاب العلم من الخدمة العسكرية — رقى محسوس لعدد المتعلمين فى الأزهر والبيئات العلمية الأخرى . ولكنه لم ينجم

(١) أهم مصادر هـذا الفصل : "التعليم العام بمصر" ليعقوب أرتين باشا ، و "التعليم العام بمصر" للسير ف . إدوار دور بك .

عنها رقى فى طرق التعليم إلا بعد ما عنّ لمحمد على باشا فتح ميدان جديد للعلم وادخال الأمة فيه قسرا .

وتفصيل ذلك أن هـذا الأمير ، بعد أن قتل المماليك فى مجزرة القلعة الشهيرة ، امتلك الصبيان والشبان من مماليكهم . فأدخل هؤلاء فى حرسه ، وجميع الآخرين فى مدرسة بالقلعة ليتعلموا فيها القرآن ، والكتابة ، واللغة التركية ، وضروب العسكرية العملية ، وفنّ الفروسية بفروعه : مقتديا فى ذلك بالسلاطين المماليك البرجيين و بعض كبار الأمراء المماليك أنفسهم الذين استأصل شأفتهم من الأرض المصرية .

ولما فكر فى سنة ١٨١٦ فى تشكيل جيش على النظام الغربى ، ولم يفلح فى بادئ الأمر بسبب الثورة التى قام بها الجنود غير النظاميين حوله ، أرسل أكبر الشبان من مماليكه القائمين بالقلعة الى مصر العليا ، ليكون منهم مدرسة عسكرية تحت ادارة معلمين غربيين . ثم لكى يملأ الفراغ الذى قد يحدثه فى هـذه المدرسة ، إنشاء الأورط ، أسس بمصر ، فى القصر العينى ، مدرسة أخرى تحضيرية للدخول فى المدرسة الأولى ؛ وذلك حوالى سنة ١٨٢٥ ووضع فيها ٥٠٠ ولد من الشراكسة ، والكرج ، والأتراك ، والأكراد ، والأرناؤط ، والأرمن ، واليونان — ليس فيهم مصرىّ واحد — ليتعلموا القرآن ، والكتابة ، والقواعد اللغوية ، والآداب التركية ، والفارسية ، ومبادئ اللغة العربية ، والحساب والهندسة ، والجبر ، والرسم ، واللغة التليانية — لأنها كانت لغة معظم معلمى العسكرية الناشئة — وجعل اللغة التركية أساس التعليم كله . المدرسة الأولى سنة ١٨١٦

ولكنه ، لادراكه أن تعليم أولئك الشبان لم يتم بالسرعة والمتانة اللتين يريدهما ، ولرغبته فى سرعة تكوين هيئة أركان حرب مصرية ، أرسل ، منذ سنة ١٨٢٦ ، الى ليڤرنو ، وميلانو ، وفلورنسا ، وروما ، بعض المماليك الشبان ، ليتعلموا صناعة بناء

السفن، والفنون الحربية، والطباعة، والهندسة العسكرية والمدنية، وهلم جرّا .
ثم أرسل، بعد سنتين، طلبة آخرين الى انجلترا، ليتعلموا الهندسة المدنية، وهندسة الآلات المائية، والميكانيكا، وفنّ الملاحة .

إنشاء مدرسة الطب سنة ١٨٢٥

ولما كان الباعث له على كل هذا الاهتمام الفرعى اهتمامه الأصلى بتكوين جيش، فكر فى إنشاء مدرسة للطب، وفى الواقع أنشأها منذ سنة ١٨٢٥، ولكن الذى يستوقف الانتباه هنا هو أنه عدل، فى اختيار الطلبة لها، عن طريقته فى اختيار الطلبة لمدرستيه الحربيتين التحضيرية والعسكرية؛ وجعل كل تلامذتها من المصريين، لا سيما من شبان الطلبة الأزهريين .

أوّل بعثة الى فرنسا

وفى سنة ١٨٢٦ أرسل الى فرنسا أوّل بعثة تلميذية أرسلت اليها؛ وكانت مؤلفة من ٤٠ شابا، معظمهم من تلامذة القصر العينى، وبعضهم من طلبة مدرسة الطب وأمرهم بتعلم الفنون العسكرية، والقوانين الادارية، والهندسة المدنية والحربية، وعلى الاجمال جميع العلوم التى كان الباشا مضطرا، من أجلها، الى استخدام الغربيين، لعدم وجود مصريين خبيرين فيها .

فنجحت تلك البعثة نجاحا حمل الباشا العظيم فى سنة ١٨٣٤، تقريبا، على إيجاد نيف ومائة طالب فى باريس، وعلى إبطال البعثات الى ايطاليا، وانجلترا، والبلاد الأخرى .

ولم يقتصر غرض (محمد على)، من هذه البعثات المتوالية ومن المدارس الأولى التى أنشأها، على محض تعليم بعض الأفراد من المصريين وساكنى مصر فقط؛ بل إنه رمى الى تكوين أساتذة منهم، يتمكن بواسطتهم، بعد نبوغهم، من نشر ظل

العلوم الوارف على القطر كله ؛ والنهوض به من هاوية الجهل السحيق التى طرحته فيها من حالق حكومة الأتراك العثمانيين والأمراء المماليك .

ولا أدل على ذلك من أنه فى سنة ١٨٣٤ ، لما عاد طلبة البعثة الأولى الأربعون الى مصر ، قابلهم الأمير بنفسه ، وسلم الى كل منهم كتابا فرنساويا فى العلم الذى تعلمه ، وكلفه بترجمته الى التركية .

وأمر بهم ، بعد خروجهم من حضرته ، فأغلقت عليهم أبواب القلعة ثلاثة أشهر بأكملها ليترجموا تلك الكتب ؛ ولم يفرج عنهم إلا عند فراغهم من ترجمتها ؛ وبعد أن طبعت تلك الترجمات بالمطبعة الأهلية التى أسسها الباشا ببولاق ، وزعت على أساتذة وطلبة المدارس التى كانت الأصول الفرنساوية قد أحضرت لأجلها .

أول مجلس للمعارف

ثم أنشأ حوالى سنة ١٨٣٦ مجلسا أعلى للمعارف ، مؤلفا من نخبة من أولئك الطلبة وبعض علماء الفرنساويين ؛ ووضع على رأس ادارته وزيرا اسمه مصطفى بك مختار ، كان أول وزير معارف عين فى مصر على ممرّ سنيّ تاريخها . وجعل أهم أغراض ذلك المجلس تقديم العدد الكافى من الضباط الأكفاء لجيشه النامى على ممرّ السنين ، والذى لم يعد يمكن ملء الفراغات التى يحدثها الموت فى صفوفه بشبيبة جديدة من المماليك الشراكسة ، لصعوبة جلبهم من بلادهم ؛ ولا بأولاد خدام (محمد على) الأمناء من الأسيويين والأتراك ، لظهور نسل هؤلاء الموظفين فى مظاهر أجسام ضعيفة يعوزها الذكاء والصحة ، فضلا من قلة عدده .

وبما أن كل أعضاء ذلك المجلس الأعلى كانوا قد تربوا بفرنسا تربيتهم كلها ، سواء فى ذلك الفرنساويون منهم وغير الفرنساويين ، فان نزعاتهم كانت فرنساوية محضة .

ولا غرابة فى كونهم أدخلوا على القطر طرق التعليم الفرنساوية ، وأنهم حاولوا تطبيقها على احتياجاته بقدر ما استطاعوا .

الأمل فى تشييد دولة عربية جديدة

على أن تربيتهم الفرنساوية كانت قد غذتهم بلبان آمال لمستقبل البلاد ، لم يكن لهم بدّ من السعى الى تحقيقها . ومنها أمل انشاء دولة عربية جديدة تجاه الدولة التركية المتداعية ، المشتبكة مصر فى حرب معها ، لتحل من العالم الاسلامى محلها .

ولا شك فى أن هذا الأمل كان يدور ، فى ذلك الحين المضطرب ، فى مخيلة الكثيرين من أبناء البلاد ، بل الكثيرين من الأتراك المتمصرين أنفسهم . ولم يكن (محمد على) يرى مصلحة فى اجتثاث جذوره ، بالرغم من أن ميوله كانت كلها تركية ؛ لأنه كان ، هو نفسه ، يحلم بدولة عربية تكون أسرته مالكة لها ، كما كانت الأسرة العباسية العربية مالكة لدولة أركانها فارسية .

التوسع فى تعليم أبناء القطر المصرى

فاستصدر المجلس الأعلى ، لذلك اذنا منه بادخال العنصر المصرى فى المدارس بكثرة ، بعد أن كان إدخاله فيها قاصرا ، حتى ذلك الحين ، على عدد معلوم قليل جدّا . وفتح ، لنيل الغرض المقصود ، عدّة مدارس ابتدائية وثانوية فى القطر عامة ، يعلم فيها ، فى مدّة ثمانى سنوات ، على نسق الليسيهات الفرنساوية ، العلوم الآتية وهى : القرآن ؛ الكتابة ؛ اللغة العربية ؛ اللغة التركية ؛ اللغة الفرنساوية ؛ مبادئ الرياضيات ؛ مبادئ التاريخ ؛ مبادئ الجغرافيا ؛ الرسم .

ونجم عن تغلب العنصر المصرى على عدد طلبة هذه المدارس ، وعن الرغبة فى تحقيق أمنية إنشاء دولة عربية ، أن اللغة العربية أصبحت لغة التعليم العام ، وأن اللغة التركية لم يعد يعتنى بها ، إلا من حيث هى لغة اضافية فقط ، منزلتها من الأهمية تكاد تكون أقل من منزلة اللغة الفرنساوية .

المدارس الابتدائية

أما المدارس الابتدائية التى أسست ، فى ذلك العهد ، فهى :

فى الغربيـــة ، مدارس : أبيار ، والمحلة الكبرى ، وزفتى ، وشربين ، وفوه ، وميت غمر ، والجعفرية ، ونبروه .

وفى المنوفيــة ، مدارس : أشمون جريس ، وشبين الكوم ، ومنوف .

وفى الدقهلية ، مدارس : المنصورة ، والمنزلة ، وصهرجت ، وفارسكور ، ومحلة دمنة ، والعزيزية .

وفى الشرقيــة ، مدارس : الزقازيق ، وبلبيس ، وكفور نجم ، وميت العز .

وفى القليوبية ، مدارس : الخانقاه ، وأبى زعبل ، وبنها ، وقامولا ، وقليوب .

وفى الجـيزة ، مدرستا : الجيزة ، وحلوان .

وفى الفيــوم ، مدرسة الفيوم .

وفى بنى سويف ، مدرستا : بنى سويف ، وبوش .

وفى المنيـــا ، مدارس : الفشن ، والمنيا ، وبنى مزار .

وفى أسيوط ، مدارس : أسيوط ، وأبى تيج ، والساحل ، وساقية موسى ، وسنبو ، ومنفلوط .

وفى جـرجا ، مدارس : جرجا ، وسوهاج ، وطهطا .

وفى قنـــا ، مدرستا : فرشوط ، وقنا .

وفى إسـنا ، مدرسة إسنا .

وأنشئت كلها فى فبراير ســنة ١٨٣٧ ، ماعدا مدرسة أبى زعبل ، فانها أنشئت فى أكتوبر سنة ١٨٣٦ ، ومدرسة ساقية موسى ، فانها أنشئت فى نوفمبر سنة ١٨٣٨

وكان قد أسس فى الصعيد، فى شهر مايو سنة ١٨٣٣، مدارس فى : أسيوط، وملوى، ومنفلوط، وأبى تيج، والساحل، وإخميم، وجرجا، وسوهاج، وطهطا؛ ولكنها أقفلت كلها فى أبريل سنة ١٨٣٥

المدارس الثانوية والعالية والخصوصية

وأما المدارس الثانوية والعالية والخصوصية التى أسست فى عهد (محمد على) فهى : مدرسة الخانقاه العليا فى سنة ١٨٣٦ ؛ مدرسة أبى زعبل الاعدادية فى أكتوبر سنة ١٨٣٦ ؛ مدرسة القصر العينى العسكرية فى سنة ١٨٢٥ ؛ مدرسة البيادة بالخانقاه فى سبتمبر سنة ١٨٣٢ ؛ مدرسة البيادة بدمياط فى يونيو سنة ١٨٣٤ ؛ مدرسة البيادة بأبى زعبل فى فبراير سنة ١٨٤١ ؛ مدرسة البيادة بأباض فى يوليو سنة ١٨٣٢ ؛ مدرسة اللغات بالأزبكية فى يونيو سنة ١٨٣٦ ؛ المدرسة البوليتكنيكية ببولاق فى مايو سنة ١٨٣٤ ؛ مدرسة المصانع العسكرية بمصر فى يوليو سنة ١٨٣٣ ؛ المدرسة المعدنية بمصر العتيقة فى مايو سنة ١٨٣٤ ؛ مدرسة المدفعية بطره فى يونيو سنة ١٨٣١ ؛ مدرسة الخيالة بالجيزة فى أبريل سنة ١٨٣١ ؛ مدرسة الصيدلية بالقلعة فى نوفمبر سنة ١٨٢٩ ؛ مدرسة الطب البيطرى بأبى زعبل فى يونيو سنة ١٨٣١ ؛ مدرسة الحسابات بالسيدة زينب فى فبراير سنة ١٨٣٧ ؛ مدرسة الطب والتوليد بمصر فى فبراير سنة ١٨٣٧ ؛ مدرسة العمليات (الصنائع والفنون) بمصر فى مارس سنة ١٨٣٩ ؛ مدرسة البحرية بمصر فى سبتمبر سنه ١٨٣١ ؛ مدرسة الموسيقى فى الخانقاه بمصر فى أغسطس سنة ١٨٢٧ ؛ مدرسة الطبول والأصوات بمصر فى سنة ١٨٢٤ ؛ مدرسة الطبول بمصر فى أغسطس سنة ١٨٢٤ ؛ مدرسة العزف بالنخيلة فى أبريل سنة ١٨٢٩ ؛ مدرسة الآلاتية بمصر فى نوفمبر سنة ١٨٣٤

إقفال المدارس

غير أن معظم هذه المدارس ســواء أ كانت ابتــدائية أم ثانوية أم عالية لم تعمر طويلا، وأقفل معظمها، بعد أن وضعت الحرب بين مصر وتركيا أوزارها، فاضطر (محمد على) الى القعود عن الفتح والتوسع، والى تخفيض عدد جيشه من مائة وخمسين ألف مقاتل الى ثمانية عشر ألفا .

والباقى أقفل، إما قبل ذلك العهد، وإما بعده . فمدارس : الرحمانية، والنجيلة، وشبراخيت، وإبيـار، والمحلة الكبرى، وزفتى، وطنطا، وفوه، والجعفرية، ونبروه، وأشمون جريس، وشبين الكوم، والمنصورة، والمنزلة، والعزيزية، وبلبيس، وكفور نجم، وميت العز، وقموله، وقليوب، وبوش، والمنيا، وأسيوط، وأبى تيج، والساحل، وساقية موسى، ومنفلوط، وجرجا، وسوهاج، وطهطا، وقنا، وإســنا، ومدرسة البيادة بدمياط، أقفلت فى ســنة ١٨٤١ ؛ ومدارس : دمنهور، ومنوف، وصهرجت، ومحلة دمنة، وبنى مزار، أقفلت فى سنة ١٨٣٧ عينها ؛ ومدارس : شربين، وبنها، والفيوم، والفشن، فى سنة ١٨٣٨ ؛ ومدرسة ميت غمر فى سنة ١٨٤٦ ؛ ومدرسة الخانقاه الابتدائية فى ســنة ١٨٣٩ ؛ وكذلك مدارس : سنبو، وإخميم، وفرشوط . وفى هذه الســنة أقفلت أيضا مدرســة الزراعة، وكانت قد تأسست بشبرا فى سنة ١٨٣٦ ؛ وأبطلت فى سنة ١٨٣٧، مدرسة القصر العينى العسكرية المؤسسة فى سنة ١٨٢٥ ؛ وفى سنة ١٨٣٤، مدرسة البيادة بالخانقاه المؤسسة فى ســنة ١٨٣٢ ؛ وفى سنة ١٨٤٩، مدرسه البيادة بأبى زعبل المؤسسة سنة ١٨٤١ ؛ وفى ســنه ١٨٣٦، المدرسة المعدنية بمصر العتيقة المؤسسة فى سنة ١٨٣٤ ؛ وفى سنة ١٨٣٨، مدرسة الحسابات بالسيدة زينب ؛ وفى سنة ١٨٤٩، مدرسة البحرية .

التساعد بالأزهريين

ولما أصبحت اللغة العربية أساس التعليم كله، دعت الحال الى الاستعانة بالعلماء الأزهريين، ليقوموا بشؤون تعليمها فى جميع هذه المدارس؛ فجعل معظم الابتدائية منها تحت ادارة نخبة منهم كالشيخ خليل الخوانكى، ناظر مدرسة الرحمانية؛ والشيخ غنيم سالم، ناظر مدرسة شبراخيت؛ والحاج أحمد عصافير، ناظر مدرسة دمنهور؛ والشيخ يوسف البرادعى؛ والشيخ محمد حسن، ناظرى مدرسة أبيار؛ والشيخ مصطفى النبراوى؛ والشيخ حسن الطويل؛ والشيخ محمد أبو النجا؛ والشيخ رضوان بالى، نظار مدرسة المحلة الكبرى؛ والشيخ وهبة مصطفى، ناظر مدرسة بندر زفتى؛ والشيخ محمد كفافى، ناظر مدرسة شربين؛ والشيخ سليمان الخطيب، ناظر مدرسة فوه؛ والشيخ عبد الرحمن الغمرى، ناظر مدرسة ميت غمر؛ والشيخ أحمد الشيخ، ناظر مدرسة فارسكور؛ والشيخ على القهتيم؛ والشيخ جوده مصطفى، ناظرى مدرسه العزيزية؛ والشيخ محمد عبد الر من، ناظر مدرسة الزقازيق؛ وهلم جرا.

ومن البديهى أنه لم يكن بدّ للتعليم الملقن على أيدى مثل هؤلاء الأساتذة من التأثر بقلة معارفهم، وعدم سعة عقولهم، ووقوف حركة التطور فى عقلياتهم. لأن الأزهر، فى ذلك العصر، كان قد بلغ من الاقتصار على العلوم اللغوية والدينية، مالم يكن معه مندوحة عن الانحطاط فى ميادين العلوم العقلية الاجتماعية، وفى ذات القوّة المتعقلة. ولو اقتصر التعليم على أولئك الأساتذة، لما استفاد طلاب تلك المدارس، أكثر مما كان يستفيد الطلاب الأزهريون، فى سنىّ مجاورتهم الأولى.

ولكنه كان قد وجد فى القطر، لحسن طالعه، عنصر آخر لم تغفل وزارة المعارف العمومية الحديثه استخدامه. ذلك العنصر كان مكوّنا من الأشخاص الذين تخرجوا

من المدارس المؤسسة منذ سنة ١٨١٦ والتى كانت تعلم فيها العلوم الدنيوية، كالتاريخ والرياضيات والجغرافيا والهندسة والرسم الخ .

هؤلاء الأشخاص، إما لعـدم تمكنهم من الدخول فى الجيش والادارات ، وإما لإحالتهم على المعاش، أو لأية أسباب أخرى، كانوا قد كوّنوا هيئة تعليمية فى القطر فيها الكفاية لسدّ احتياجات ذلك الوقت؛ ولو أنهم كانوا بعيدين عن درجة الكفاءة التامة بمراحل .

غير أن طلبة البعثات العلمية الى الديار الأوروبية أخذوا، مع تمـادى الأيام، يعودون الى القطر وينضمون الى تلك الهيئة المعلمة، ويساعدون، إما بترجماتهم، وإما بمؤلفاتهم على رفع مستواها وتحسين قيمتها .

الاضطرار الى التربية والتعليم على نفقة الحكومة

والتلامذة لغاية سنة ١٨٣٦، كانوا جميعا من المماليك القفقاسيين، أو من أولاد موظفى الوالى وضباطه الأجانب، فكانوا يعتبرون كأنهم ملكه الخاص، أو بالحرى ملك حكومته، فيربون على نفقته؛ ولمـا عدل نظام انتقاء الطلبـة، وحل أولاد المصريين، فى المدارس، محل أولئك الشبان الأجانب، ربوا، هم أيضا، على نفقة الحكومة، وبالكيفية والشروط، التى كان أولئك يربّون بها .

ولم يكن خلاف ذلك ممكنا : لأن الكره الذى أبداه الفلاحون المصريون، فى أوّل أمرهم، للتعلم ودخول المدارس، بالرغم من المزايا العديدة المرتبطة بالأمرين والناجمة عنهما، كان كالكره الذى أبدوه للخدمة العسكرية . فاضطر (محمد على) الى استعمال الوسائل القهرية معهم لتعليمهم وتربيتهم، كما استعمل الوسائل القهرية لتكوين جيش منهم . فكان أعوانه يهاجمون القرى مهاجمة، وينتزعون الأولاد من أحضان أهاليهم

قسرا، ويوزعونهم على المدارس بحسب سنهم وبنيتهم وقامتهم فعند ما تظهر الأيام ميولهم، كانوا ينقلونهم الى المدارس التى يمكن فيها لتلك الميول أن تسير بهم الى ذروة النبوغ . وأما من أثبتت الخبرة تجرّده من كل ذكاء، كان يعاد الى فلاحة آبائه .

تلك كانت حال التعليم فى أيام (محمد على) ؛ ولم يدخل على نظامها تعديل، إلا ما أشارت به الخبرة، أو جاد به هوى المنوط بهم الأمر، أو أوجبته احتياجات الحكومة .

رغائب (ابراهيم باشا)

فلما استلم (ابراهيم باشا) زمام الأحكام، عنّ له إدخال إصلاحات شتى على تلك الحال؛ ولكن قصر مدّة ملكه لم يمكنه من نفاذ شئ مما رغب . وأهم ما وقع فى خلده فى هذا الموضوع تعديل كيفية تشكيل البعثات العلمية الى أوروبا، وتغيير شكل إقامتها هناك .

فالمندوبية المشكلة فى سنة ١٨٣٦ رأت إن الحكومة عاجزة عن تعليم الناشئة العلوم الوضعية والفنية العليا، لسببين : (الأوّل) قلة الأساتذة الأكفاء، للقيام بتدريسها؛ و(الثانى) عجز اللغة العربية واللغات الشرقية على العموم، عجزا مطلقا عن التعبير عن مضمونانها، لعدم وجود الكلمات الدالة عليها فيها .

فرأت، والحالة هذه، وجوب الاستمرار على ارسال البعثات المدرسية، لكى يستتم التلامذة العلوم، التى لم يكن فى استطاعتهم تعلم بعضها، بكيفية كافية، ولا التقرّب من غيرها، ما داموا بمصر، وما دام تعلمهم باللغة العربية .

حديث للسيو جومار

وقد قال المسيو جومار — وهو أوّل من حبب الى (محمد على) البعثات المدرسية الى الخارج، وأحد الأعاظم الذين ساعدوا على النمو العقلى والعلمى فى القطر المصرى —

« هل يكفى انشاء مدارس نخمة عظيمة على الطراز الأوروبى ، برجال يؤتى بهم من ميلانو وباريس ولندره بمصاريف جمة ، ثم لا يلبثون أن يعودوا الى بلادهم حالما يبلغون الغرض الذى رضوا بالمجىء لأجله ؟ كلا ثم كلا . وبما أن عدد الذين يختارون الاقامة الى الأبد فى وطن غير وطنهم قليل جدّا ، ولا يزيد على واحد فى عشرين ألفا ، فالواجب ، اذا ، تعليم الأهالى أنفسهم فى أوروبا ، باحدى اللغات الأوروبية ، علوم الأوروبيين وفنونهم ، فيدخلون بذلك فى صميمها ، ويتمكنون من أسرارها ، وتتجانس عقليتهم بعقلية متعلميها من الغربيين ؛ ولو أمكن لمحمد على أن يرسل الى أوروبا منذ سنة ١٨١٥ مائة أو مائتين من الطلبة المصريين ، لتقدّم رقى البلاد وتمدّنها عما هو عليه الآن » .

تعديل طريقة إرسال البعثات العلمية

ولكن تلك المندوبية رأت أن تعدّل الطريقة المتبعة ، حتى ذلك الحين ، بأن تؤهل ، أولا ، فى المدارس المصرية ، الطلبة الذين تقرر ارسالهم الى المدارس الأوروبية ، كيلا يضيعوا من وقتهم هناك ، فى تلقن العلوم الممهدة لهم سبيل تلقى العلوم الخاصة ، المقصودة بالذات من ارسالهم الى تلك المدارس .

فلم تعد تبعث الى أوروبا إلا المتخرجين من المدارس المصرية الخاصة ، بعد تتميمهم علومهم فيها ، وتمكنهم من لغة البلد الأجنبى المعدين للذهاب اليه .

انشاء مدرسة مصرية بباريس

ولنيل هذا الغرض ، أنشئت مدرسة مصرية بباريس ، جعلت ادارتها تحت رئاسة مصرى ، يقال له استفان بك ، وأسندت وكالتها الى نائب ، اسمه خليل افندى تشيراكيان ؛ وكلف ضباط معينون من لدن وزارة الحربية الفرنساوية بمراقبة سير الدروس فيها ؛ وأرسل اليها ، فى بادئ الأمر ، أربعون تلميذا ، منهم حليم وحسين ولدا (محمد على) وأحمد واسماعيل ولدا (ابراهيم) — وقد سبق لنا ذكر هذا جميعه .

فلما زار (ابراهيم باشا) هذه المدرسة أثناء احدى سياحاته فى أوروبا استوقف انتباهه عدم الضبط المدرسى، وقلة نجاح الطلبة، وفداحة المصاريف التى تستدعيها مدرسة، أصبح كل واحد من تلامذتها (سلطانا صغيرا) حسبما قال هو نفسه .

ووجه نوبار باشا — وكان يومئذ كاتب أسراره (سكرتيره) — فكره الى المضار وفقدان المزايا ، الناجمة عن الطريقة المتبعة ، سواء أكان من جهة التربية ، على الأخص، أم من جهة التعليم على العموم. وقال له : «إن جمع أربعين طالبا مصريا فى مدرسة واحدة ليعيشوا دائما طبقا لعاداتهم وطبائعهم وبدون اختلاط، أو باختلاط قليل، مع خلافهم، من غير جنسهم ودينهم؛ أو إبقاءهم فى بلادهم وبيئاتهم الأصلية، سيان . فإما الامتناع عن ارسال طلبة بهذا الشكل؛ وإما الاقتصار على ارسال أحداث ما بين الثامنة والتاسعة من عمرهم، وتوزيعهم على المدارس والمآهل (بنسيون) الغربية ، بحيث لا يكون أكثر من اثنين فى مدرسة واحدة أو مأهل واحد : فيستفيدون فى تعلمهم؛ ويستفيدون، على الأخص، فى تربيتهم» .

فوافق (ابراهيم باشا) على رأى سريره (سكرتيره) وعزم على اتباعه . ولكن الموت حال دون تمكنه من ذلك : فاستمرت الطريقة العقيمة التى ندد بها نوبار متبعة، حتى أقفلت ثورة سنة ١٨٤٨ الباريسية تلك المدرسة المصرية؛ وما فتئت، بعد ذلك، متغلبة على أفكار القائمين بشؤون التعليم فى هذا القطر، حتى فى عهد الاحتلال الانجليزى، بالرغم من جدب محصولها .

أخذ السلطان فؤاد الأول برأى جده (ابراهيم)

ولم يفطن الى المزايا الجمة الناجمة عن العمل برأى (ابراهيم باشا) إلا حفيده الكريم عظمة السلطان فؤاد الأول[1] فانه — حفظه الله — أيام أن كان رئيسا للجامعة المصرية،

(١) صاحب الجلالة فؤاد الأول المعظم، ملك مصر . كتب فى سنة ١٩١٨

أدخل، بجانب نظام بعثاتها العلمية، نظام بعثات أحداث، ناعمى الأظفار، الى بلاد أوروبية مختلفة، ليعيشوا فى بيئات تغاير تمـام المغايرة بيئاتهم المصرية : فيكونون نشأة جديدة، وانسانيـة مصرية عصرية، متشربتين ومتشبعتين بغير المبادئ، والعادات، العقلية، المدينة مصر لمجموعها بذلها القرنى .

ووقع فى خلد (ابراهيم باشا)، علاوة على ما ذكر، إلزام جميع الموظفين والضباط المصريين بارسال أولادهم الصغار الى المدارس والمآهل الأوروبية، على نفقاتهـم الخصوصية، بدلا من ارسالهم اليها على نفقة الحكومة؛ وذلك لاعتقاده أن الأهالى إنما يهتمون بتربية أولادهم وتعليمهم على نسبة التضحية المـادّية والأدبية التى يحملون أنفسهم أعباءها فى هذا السبيل؛ وان الاهتمام الذى تكون التضحية العائلية أسه، لا يلبث أن ينتشر بين جميع طبقات الأمة، ويشترك فيه كل أفراد الهيئة الاجتماعية .

ولا يختلف اثنان عاقلان فى سداد آراء (ابراهيم باشا) هـذه؛ فلا يسع أحدا إلا التأسف تأسفا عميقا على قطع المنون شجرة حياته الكثيرة الثمار قبل نضوج هذه الثمرة عليها أيضا .

إنحراف (عباس الأوّل) عن رأى (ابراهيم)

ويزيد لدى التفكر بأن خليفته (عباس باشا الأوّل) لم يكتف بعدم مجاراته فى أفكاره ونياته فحسب؛ بل إنه قلب نظام التعليم والمدارس رأسا على عقب، بعد امتحان أجراه بأبى زعبل للأساتذة والطلبة معا، وكانت نتيجته سيئة للغاية . لأن الأساتذة — وكان معظمهم من الأزهريين الذين سبق لنا ذكرهم — ظهروا فيه بمظهر الجهلاء النوكى الحمق فأمر باقفال عموم المدارس وطرد الطلبة والأساتذة منها؛ ماعدا مدرسة واحدة، أبقاها ودعاها بالمفروزة، للدلالة على أنهـا المختارة من بين الكل؛ وأعدّها لتخريج ضباط للبرية والبحرية ومهندسين عسكريين ومدنيين .

غير أنه عاد الى فتح مدرسة الطب وتنظيمها على أسس جديدة تؤهلها لتخريج أطباء للجيش . ولما كان شديد الكراهة للعناصر الأجنبية ، ولا سيما الغربية منها ، وكان لا يرى متى تأتى الساعة التى يمكنه فيها الاستغناء عن غربى متقلد وظيفة فى القطر، وكان، من جهة أخرى، يكره من صميم فؤاده أن يتخلى الشرق عن عقليته وعاداته وأخلاقه، حتى السقيمة منها، فانه ارتآى أن يرسل الى أوروبا، بدلا من الصبيان، الناعمى الأظفار، والأحداث، الذين رغب عمه (ابراهيم) فى ارسالهم اليها، شبانا فى الخامسة والعشرين من عمرهم، على الأقل، أتموا كل دروسهم بمصر، وأن يفضل على هؤلاء أيضا، الشبان الذين يكون قد سبق لهم تدريس فى المدارس العليا الملغاة ، لكى يتقنوا فى ردح يسير العلوم التى يرسلهم لتلقيها ، ويعودوا فيحلون محل الغربيين فى دوائر التعليم والادارة عامة .

قلة ميل (سعيد) الى تعليم أبناء البلاد

وكان (سعيد باشا) خليفته، بالرغم من ميله الكثير الى الغربيين وعقليتهم، قليل الرغبة فى تعليم الفتيان من رعيته، حتى انه قال ذات يوم لكونج بك، مربيه السويسرى الذى أصبح سريره الخاص، بعد ماتولى العرش، وكان يحضه على اعادة فتح المدارس التى أقفلها عباس، سلفه[1] : "لم نعلم الشعب ؟ لكى يصبح الحكم عليه والتصرف فيه أعسر مما هما عليه؟ دعهم فى جهلهم ! فالأمة الجاهلة أسلس قيادا فى يدى حاكمها".

فألغى اذا وزارة المعارف العمومية ، كما ألغى معظم الوزارات ، وألحق إدارة التعليم بدائرته الخاصة، أو بوزارة الحربية .

ولكنه عاد فأظهر اهتماما عظيما بمدرسة الطب دون غيرها : فوضع لها نظاما جديدا، واحتفل بافتتاحها، على هذا النظام، احتفالا شائقا تحت رياسة أدهم باشا

(١) مالورتى "مصر" ص ٦٩ حاشية ٢ ١ ٣

وزير الداخلية، وبحضور شـيخ الاسلام وعلمـاء الدين والهيئات الرسميه الغربيـة فى ١٠ سبتمبر سنة ١٨٥٦

اهتمامه بالمدارس الأجنبية

وأظهر أيضا اهتماما يعتدّ به بالمدارس الأجنبية المؤسسة فى البلاد بمعرفة الارساليات المذهبيـ . ومما يؤثرعنه أن راهبات الراعى الصالح — وكنّ قائمات، فى مدرستيهما بمصر والاسكندرية، بتربية ستين يتيمة من بنات البلاد، على اختلاف أديانهن، زيادة عن البنات الأخرى ، الدافعات قيمة زهيدة ، أجرة تعليمهن وتربيتهن — وجدن العبء ثقيلا عليهن ؛ فالتجأن اليـه ، ورفعن الى مكارمه عرضا ، طلبن به منحهن إردب برّ ، سـنويا ، عن كل واحدة من تلك اليتيمات ؛ فأجاب طلبهن فى الحال، وجاد عليهن بمـا التمسن . وأن راهبات المحبة بالاسكندرية — وكنّ قد فتحن صيدلية لتوزيع الأدوية مجانا على المرضى ، على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ، شأنهن اليوم — وجدن أنهن فى احتياج الى مبلغ خمسة آلاف فرنك ، سـنويا ، ليتمكن من الاستمرار على عملهن البارّ؛ فالتمسنه من مكارم (سعيد)؛ ففاضت عليهن به . ولو التمسن خمسمائة ألف فرنك، لمـا تأخر عنهن .

ووهب (سعيد) أيضا بناية بمصر للارسالية الأميركية فى سنة ١٨٥٥ — وهى سنة قدومها الى الديار المصرية؛ ثم ساعد على توطيد أقدامها فى القطر ونشر لوآء معارفها فيه . وجاد، كذلك، على أوّل مدرسة ايطالية حكومية تأسست فى القطر، فى عهده، بمبلغ ألفين وأربعمائة جنيه ، ووهبها ثمانية آلاف ذراع فى نقطة من أحسن جهات الاسكندرية .

وبالتعليم العسكرى

وبما أنه كان مغرما بالجيش والفنون الحربية، لم يكن يسعه أن يهمل التعليم العسكرى فى جملة ما أهمله من أنواع التعليم المصرى . لذلك رتب ونظم بكيفية نهائية مدرسة

القلعة الاعدادية فى أغسطس سنة ١٨٥٦ ؛ ووضع ، على رأسها ، الشيخ العالم الفاضل رفاعه بك رافع ، الذى لا يختلف فى جدارته وسعة معارفه اثنان ؛ واعتمد برنامج سيرها ودروسها المشتمل على ١٧ مادة ، أهمها : (١) أن عدد الطلبة مائتان ؛ (٢) أنهم يقبلون فيها من سنّ ١٢ الى سنّ ١٨ ، مشترطا أن يحسنوا القراءة والكتابة ، لكى يتمكنوا من اتباع سير الدروس منذ السنة الأولى . ويكون لهم الخيار ، فيما بعد بانتخاب المضمار الذى يريدون أن يجروا شوط حياتهم فيه — ولو أن تربيتهم عسكرية محضة — فيدرسون العلوم التى تؤهلهم لأن يكونوا مهندسين أو أطباء أو ضباطا الخ ؛ (٣) أنهم يتعلمون كلهم العربية بأفرعها بلا استثناء ؛ ويتعلم التركية والفارسية من يرغب منهم ؛ ويتعلم كلهم لغة ، على اختيار كل منهم ، من اللغات الأجنبية الآتية ، وهى : الانجليزية ، والألمانية ، والفرنساوية ؛ كما أنهم يتعلمون الخط ، والحساب ، والهندسة ، والجبر لغاية معادلة الدرجة الثانية ، وحساب المثلثات المستقيمة الخطوط ، والرسم الخطى ، والتصميمات العسكرية ، والجغرافيا العامة ، والتاريخ ، والتمارين ، والحركات الحربية ، وفنّ التحصين — كل ذلك فى ظرف خمس سنوات أو أربع ، حسبما يرى الأساتذة المدرّسون ؛ (٤) أن يعطى كل طالب مائة قرش صاغ شهريا ، زيادة على غذائه وملبسه وسكناه وتعليمه والأدوات التى تلزمه .

وفيما عدا ذلك ، فان حالة التعليم ، على العموم ، ساءت فى أيام (سعيد) عما كانت عليه فى أيام (عباس) ، وآلت الى البوار . فبينما كان عدد الطلبه ، المتعلمين على نفقة الحكومة فى أيام (محمد على) الزاهرة ، نيفا وعشرين ألفا ، ونزل عند موت الباشا العظيم الى أحد عشر ألفا ، فانه استمر يتناقص ويقل ، حتى لم يعد فى أواخر حكم

(سعيد) ، إلا بضع مئات ؛ وتضاءلت ميزانية التعليم حتى انحطت فى سـنة ١٨٦٢ الى ستة آلاف جنيه فقط سنويا !

ميدان العمل أمام (اسماعيل)

لحق والحالة هذه ليعقوب أرتين باشا أن يقول : "انه يمكن اعتبار المدة ما بين سنة ١٨٤٨ وسـنة ١٨٦٣ ، فيما يختص بالتعليم العام والمعارف العمومية ، كأنها معدومة"[1]؛ وحق لمـاككون أن يقول : "ان ميدان العمل فى هذه الوجهة، كان مفتوحا وخاليا على سعته ، أمام (اسماعيل باشا) عند ما تبوأ عرش أبيه وجده"[2] .

فدأب يعمل فيـه ، ويعمل ، لا لمجرد إنشاء جيش قوى يركن اليه فى الملمات ، بل لمصلحة الأهالى وترقية مسـتوى البلاد العقلى ، حتى حركت همته الشماء الهمم ، وحق للتاريخ أن يدعو عهده "عهد إحياء العلوم والمعارف بمصر" . فبينما الليل مخيم دامس ، اذا بنور سطع وبدد غياهب الجهل .

تقسيم حركة التعليم فى أيامه

وتنقسم حركة التعليم فى عهده الى خمسة أقسام : (الأول) ما كان منها فى المدارس التى أنشأتها الحكومة ، وقامت بالانفاق عليها ؛ (الثانى) ما كان منها فى مدارس المساجد والأوقاف والكتاتيب القـديمة ؛ (الثالث) ما كان منها فى مدارس أفراد من الهيئة الاجتماعية الاسلامية ؛ (الرابع) ما كان منها فى مدارس الطوائف الشرقية غير المسلمة ؛ (الخامس) ما كان منها فى مدارس الجاليات الأجنبية .

على أن عناية المليك ، الساهر على الرقى العام ، أشرفت عليها من عل وأظلتها كلها بظل وارف .

---

(١) أنظر : "التعليم العام بمصر" ليعقوب أرتين باشا ص ٩٢

(٢) أنظر : "مصر كما هي" لماككون ص ٢١٠

مدارس الحكومة

١ — المدارس التي أنشأتها الحكومة

لما تبوأ (اسماعيل) سدّته لم يكن في القطر من مدارس سوى مدرسة ابتدائية، ومدرسة تجهيزية، والمدرسة الحربية في القلعة، ومدرسة الطب والصيدلة والولادة التي أنشأها كلوت بك — وكلها بالعاصمة — ومدرسة بحرية بالاسكندرية؛ وكانت جميعها في حالة سيئة من حيث كيانها ونظامها والتعليم والتربية فيها .

فعهد (اسماعيل) بأمر إصلاحها الى أدهم باشا — وهو ثاني من تولى وزارة المعارف بالقطر المصري في عهد (محمد علي) الكبير، واستمر على دفتها ، بعد وفاة مصطفى بك مختار، أوّل وزيرها ، عشر سنوات أي من سنة ١٨٣٩ الى سنة ١٨٤٩ — وأقبل ينشئ خلافها بهمته العالية . فتأسست في سنة ١٨٦٤ مدرسة رأس التين ، بجوار السراي الخديوية بالاسكندرية؛ ومدرسة الناصرية بمصر، في الشارع الموصل من عابدين الى مسجد السيدة زينب، مكان القصرين اللذين كانا للأميرين المملوكين حسن كاشف وقاسم بك ، في أيام الحملة الفرنساوية ، وخصصا بالجمعية العلمية المعروفة باسم "الانستيتوت" حيث كان يجتمع بونابرت وكليبر وفوربي ومونج والتسعون عالما الآخرون، الذين رافقوا تلك الحملة، وأنشأوا مجموعة الكتب العلمية الخصيصة بمصر، التي كانت من أكبر أسباب إعادة الحياة اليها .

وظهرت المدرستان المذكورتان بمظهر جديد لم يعهده معهد علمي مطلقا من المعاهد السابقة وتجلتا — الأولى تحت إدارة ناظرها أحمد بك فتحي، والثانية تحت ادارة ناظرها برعي افندي — عنوان النظافة التامة والنظام الكامل . وعلمت فيهما العربيـة ، والفرنساوية ، والانجليزية ، والألمانية ، والجغرافيا ، والرسم الخطي ،

والحساب العادى ، والحساب العالى ، والقرآن لغاية الفرقة الرابعة ، والتركية بدله من الفرقة الرابعة فما فوق .

وانتظم الطلبة فى سلكيهما ، قسمين : داخلية وخارجية . على أنهم كانوا يتغدون جميعا فى غرفتى طعام عظيمتين ، عدا أبناء البيكوات والباشاوات فى مدرسة الناصرية فانهم كانوا يأكلون على حدة .

وفى سنة ١٨٦٥ تأسست بنها ، فى سراى (عباس الأول) ، مدرسة عظيمة حوت ثلاثمائة طالب يعلمهم أحد عشر أستاذا ؛ ومدرسة أخرى ببنى سويف ؛ وغيرها بالمنيا ؛ وسادسة بأسيوط . وحوت كلها نيفا وستمائة وواحد وثلاثين طالبا ، منهم ٥٠٢ داخلية .

وبسبب الاتساع الرائع ، الذى اتخذته الصناعة المصرية على أثر ارتفاع الأسعار القطنية الناجم عن الحرب الأهلية الأميريكية ، قرر (اسماعيل) فى سنة ١٨٦٥ عينها إنشاء مدرسة للفنون والصنائع . فوضع نوبار باشا نظامها بمساعدة فنى فرنساوى ، يقال له المسيو مونييه : ولكن الكوليرا أوقف نموها وحال دون انتظامها . ثم شغلت الأفكار عنها بالمشاغل السياسية التى أفعمت بها سنة ١٨٦٦ بيد أنه ما وافت السنة التالية إلا وعاد شريف باشا — وكان ناظرا للمعارف — الى موضوعها ، ووفاه حقه .

ففتحت المدرسة أبوابها فى سنة ١٨٦٧ تحت إدارة فرنساوى خبير يقال له المسيو إلواجى جون ؛ ودرس فيها أحد عشر أستاذا وعريفا ؛ وجعلت مدة التعليم فيها ثلاث سنوات ، أولا ، ثم خمسا . وشمل البرنامج : الرياضة ، والكيمياء ، والرسم ، والتوپوغرافيا ، والفرنساوى ، والانجليزى ، والهندسة ، وكل صنعة وحرفة .

ولما كانت الألفاظ الفرنجية الاصطلاحية، الخاصة بالفنون والصنائع، غير متداولة على الألسن إلا قليلا، ولا يعرف إلا القليلون جدّا مقابلاتها العربية، ألف المدير، الواجى جون المذكور، قاموسا فرنساويا انجليزيا عربيا لها، يجدر بمكتبة كل ذى فنّ وصناعة الازديان به .

وفى سنة ١٨٧٦ أنشئت ثلاث مدارس صناعية غيرها، ليحوّل اليها التلامذة البلداء فى المدارس الابتدائية، بدلا من تحويلهم الى المدارس الحربية، فيتعلمون فيها، مدّة خمس سنوات، صنائع يتعيشون منها فى مستقبل حياتهم . وكانت تباع المصنوعات، التى يصنعونها فى مدّة دراستهم، ويحفظ ثمنها على ذمتهم، ثم يشترى بها أدوات صناعية، وآلات لكل منهم تصرف اليه حين مغادرته المدرسة، ليدخل ميدان الحياة وهو متسلح بها .

وأنشئت فى هذه المدّة عينها، فى العباسية، مدرسة أوّلية، ومدرسة إعدادية، خلاف جملة مدارس عسكرية وحربية سيأتى الكلام عليها فى غير هذا المكان . وتلا ذلك انشاء مدرسة هندسية ملكية كبرى، عرفت باسم "المدرسة البوليتكنيك" وأحضرت اليها الأساتذة من فرنسا ومن ضمنهم المسيو چليون دانجلار، صاحب الرسالات الممتعة عن مصر ما بين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٧٥ وعهد بمساعدتهم الى أساتذة مصريين، من الذين تعلموا بفرنسا على نفقة الحكومة .

وكانت المجانية أساس التعليم، فى هذه المدارس كافة، وتشمل الكسوة والطعام أيضا .

غير أن هذا جميعه لم يكن سوى باكورة العمل . فسرعان ما أدرك الخديوى أن إنشاء بضع مدارس، مستقلة الواحدة عن الأخرى، قليلا أو كثيرا، ومشتغلة كل

منها على حدة، بدون ارتباط بغيرها ، وببرنامج خصيص بها، لايؤدّى الى مايرمى اليه من تعميم التعليم ونشره بين أفراد أمته. فكلف لجنة تحت ادارة على باشا مبارك ناظر المعارف والأشغال العمومية، منذ ١٥ أبريل سنة ١٨٦٨ بوضع قانون أساسى للتعليم العام، تكون المدارس، بموجبه، كلا منظما ذا أجزاء مندمج بعضها فى بعض .

لائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤

فاشتغلت تلك اللجنة بهمة وعزيمة صادقة؛ وأخرجت، الى حيز الوجود، اللائحة المعروفة باسم "لائحة ١٠ رجب سنة ١٢٨٤" وهى لائحة ذات أربعين بندا مبنية على مبدأين أساسيين، هما : تضامن جميع المدارس فى نظامها وتعليمها؛ ومساواة المعاهد التى من درجة واحدة مساواة تامة فى جميع الأمور .

فقسمت المدارس الى ثلاثة أقسـام : ابتدائية — وهى الكتاتيب ومدارس المديريات — وثانوية، وعالية؛ خلاف المدارس الخاصة .

أما الكتاتيب — وقد كانت نيفا وخمسة آلاف، وبقيت لسنة ١٨٧٤ مستقلة عن الحكومة، بطلابها الزائد عددهم على المـائة والعشرين ألفا ، وفقهائها الذين كان معظمهم من العميان — فان اللائحة لم تدخل، على المنتشرة منها فى القرى، تعديلات محسوسة، غير إلزامها بتعليم الحساب . ولكنها شدّدت على ذات المركز المهم منها ، برفع مستوى التلامذة العقلى، لكى تؤهلهم للدخول فى مدارس أعلى منها درجة؛ كما أنها شدّدت عليها بالصيرورة الى مدارس ابتدائية حقيقية؛ وذلك بما وضعت من تعليمات وارشادات للفقهاء فيها ، وبمـا قرّرته لها من كتب ، وأدوات مدرسية، وإدخال تعليم لغة أجنبية ومبادئ الجغرافيا والتاريخ على برنامجها .

وأما مدارس المديريات — وهى مدارس ابتدائية حقة — فان اللائحة المذكورة قرّرت تعميم إنشائها فى بنادر المديريات كافة، على نظام مثيلاتها فى أوروبا؛ وجعلت

برنامج التعليم فيها كالآتى : القرآن ، العربى ، الفرنساوى أو الانجليزى ، الحساب ، التاريخ ، الهندسة ، الرسم ؛ وجعلت الأصل فيه المجانية المطلقة ، سواء فى ذلك الطلبة الداخلية والطلبة الخارجية .

وأما المدارس الثانوية ، فتقرر أن تكون سبعا : ثلاثا فى مديريات الوجه البحرى ، وأربعا فى مديريات الوجه القبلى ؛ وأن تكون المجانية المطلقة الأصل فى التعليم فيها أيضا .

وأما المدارس العالية ، فجعلت تسعا : ثمان منها فى مصر ، وواحدة بالاسكندرية . وكانت أهمها كلها مدرسة البوليتكنيك ومدرسة الطب .

أما البوليتكنيك — وكان يقال لها أيضا مدرسة المهندسخانة — فقد أنشئت أولا فى العباسية ، ثم نقلت الى درب الجماميز ، فى سراى الأمير مصطفى فاضل ، أخى الخديو ، حيث كان مقر وزارة المعارف ؛ وكان تلامذتها الستون كلهم داخلية ، ويتعلمون ، فى ست سنوات : الرياضة العليا ، والكيميا ، والطبيعة ، والجيولوجيا ، والميكانيكية ، والعربى ، والفرنساوى أو الانجليزى ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والرسم . وكان النابغون فى الرسم كثيرين . ولا غرابة : فمصرى اليوم انما هو حفيد مصرى العهد الفرعونى .

ولما كانت تلك السراى واسعة جدا ، فقد نقلت اليها مدرسة الادارة ، وعدد طلبتها خمسون ، ومدرسة المحاسبة والمساحة ، ومدرسة اللغات ، والمدرسة التجهيزية وطلبتها خمسمائة وخمسون ، معظمهم خارجية .

ووجد ، مع ذلك ، متسع لمسرح فسيح ، كانت تقام فيه الامتحانات العامة السنوية العلنية ؛ ولمكتبة نفيسة ، أنشأها فى سنة ١٨٧١ على باشا مبارك ، ورتبها

فى ست حجر ؛ وكانت فيها طائفة من كتب مكتوبة بخط اليـد فى لغات متعدّدة لا سيما العربية ؛ وأهمها نسخ قرآنية وجدت على قبور مؤسسى المساجد من سلاطين مصر السالفين ، وكانت ذات أهميـة تاريخية عظيمة ، لأن الواحدة منها كتبت ووضعت على قبر مؤسس المسجد فى بحر السنة التالية لموته ؛ فكانت تدل على تطوّر الخط العربى ، على ممرّ الأيام ؛ وتساعد على تحقيق عصر بناء تلك المساجد ، والتثبت من مواقيت التاريخ العربى .

وأنشئ ، فى تلك السراى ، أيضا فى ١٢ يوليو سنة ١٨٧١ معمل طبيعيات ، تام الأدوات ، يضاهى أكبر المعامل الأوروبية التى من نوعه .

وانمـا ذكرنا المعمل والمكتبة والمسرح ، عند كلامنا على مدرسة البوليتكنيك ، لاقترانها بها فى فكر عموم مصريى ذلك العهد ، بسبب وجودها معا فى محل واحد .

وأما مدرسة الطب — وقد قلنا كيف تأسست وألغيت ثم أعيدت الى الوجود — فلم يكن لهـا من مثيـلة فى الشرق كله ؛ وكانت تنقسم الى قسمين : قسم الطب والجراحة ، وقسم الصـيدلة . ومدة التدريس فى كل منهما خمس سنوات : منها سنتان لاعادة العلوم الأدبية ، المعلمة فى المدارس الثانوية واتمامها ؛ والثلاث السنوات الباقية ، للطب والصيدلة . وكان عدد طلبتها ، فى سنة ١٨٧٦ مائة وخمسة وتسعين طالبا ، كلهم داخلية ماعدا عشرين . وبما أن تعليم التلامذة الداخلية ، وطعامهم ، ولبسهم ، ومقامهم ، كتعليم الخارجية ، كان مجانا ، فان تخريج الطبيب الواحد كان يكلف الحكومة ثلاثة عشر ألف فرنك ، وتخريج الصيدلى الواحد أربعة عشر ألف وخمسمائة فرنك ؛ ولذا فان الداخلية كانوا يلزمون بالاستخدام فى الحكومة ، بعد نيلهم دبلوم الطب أو الصيدلة ، وأما الخارجية فكانوا أحرارا .

وكان معظم الأساتذة ، فى القسمين ، من المصريين الذين تعلموا بأوروبا ؛ فلم تكن مرتباتهم ، والحالة هذه ، ضخمة كما لو كانوا يحضرون ، خصيصا ، من أوروبا .

وكان ، فى المدرسة ، مستشفى مدنى وعسكرى على أحسن شكل ؛ ومعمل كيماوى خاص بقسم الصيدلة تحت ادارة جستنيل بك ، ليس له مثيل ؛ وبستان نباتى ؛ ومكتبة شاملة ؛ ومجموعات تجهيزات تشريحية ؛ ومجموعات تاريخ طبيعى ؛ وكلها مختارة اختيارا حكيما .

ثم استدعى (اسماعيل) من سويسرا أستاذا خصيصا فى التعليم وحركته ، يقال له المسيو دور ؛ وبعد أن أنعم عليه برتبة البكوية ، عينه مفتشا عاما للمعارف ، وكلفه بتنظيمها ، وتوسيع نطاقها على النمط الفرنجى ؛ ورتب مجلسا أعلى للإشراف على شؤون المدارس ؛ وخص وزارة المعارف بميزانية سنوية ، تراوحت بين سبعين وثمانين ألف جنيه . ولما اضطره ، فيما بعد ، انفاقه على المنافع العمومية الأخرى ، والشؤون السياسية المختلفة ، الى الاقتصاد من ذلك المبلغ قليلا ، وهب تلك الميزانية ايراد تفتيش الوادى — بعد أن استرده من شركة قنال السويس ، مقابل مبلغ عشرة ملايين من الفرنكات — وكان مجموع ذلك الايراد ستمائة ألف فرنك سنويا . على أن مصروفات ادارة التفتيش كانت تستغرق جزءا كبيرا من هذا المبلغ ؛ فأخذها (اسماعيل) على عاتقه الشخصى ؛ وقرر ستمائة ألف فرنك سنويا للمعارف بكيفية ثابتة .

فقام دور بك بمهمته ، بعزم صادق وهمة عالية ؛ وبعد أن درس موضوعها درسا عميقا ، وأجرى بعض تعديلات فى المدارس الموجودة — كتحويله مدرسة الادارة الى مدرسة حقوق ، (شرع ناظرها المسيو فيدال يعلم القانون الرومانى والقانون الفرنساوى فيها ، ويقارن بينهما وبين باقى الشرائع ، توطئة وتمهيدا لتخريج رجال

حقوقيين تكون فيهم الكفاءة للجلوس على منصات القضاء المختلط الذى كانت المخابرات دائرة فى أمر انشائه مع الدول صاحبات الامتيازات) ؛ وبجعله مدرسة اللغات معهدا لتخريج مترجمين ومنشئين ، يشتغلون فى الادارات ، أو فى إخراج مايلزم من الكتب للمعاهد العلميــة ؛ وكاضافة قسم طب بيطرى الى مدرسة الطب انتظم فى سلكه خمسون طالبا ؛ وانشاء قسم فلكى فى سراى الأمير مصطفى فاضل السابق ذكرها — ووضع ، للمدارس عامة ، المناهج الوافية ، الكافلة بلوغ الأمانى ونيل المنى ، فيما لو نفذت برمتها .

ولكن تنفيذها التام كان متعسرا ؛ وجل مجهودات الخديو ووزراء معارف أمته ومساعديه كان ضائعا فى مجموعه لسببين : (الأول) قلة المــال ، بالرغم من تعاقب النفحات الخديوية ؛ و(الثانى) قلة الرجال ، بالرغم من استحضار الأساتذة من أوروبا ، وحف ارسالية الطلبة المصريين فيها بكل صنوف العناية .

أما قلة المــال ، فلأن الحركة التمدينية التى قام بهــا (اسماعيل) ، تناولت كل مظاهر الحياة القومية ، والحياة الاجتماعية ، ومكنوناتهما ؛ واستنفدت معظم ايرادات البلاد وإيراداته الشخصية . ومالم تستنفده تلك الحركة ، ابتلعته المساعى الى الاستقلال والى احلال الدولة المصرية من مصاف الدول العظمى فى المحل اللائق بماضيها الفرعونى وحاضرها العلوى ، كما سنرى فى البابين التاليين : فلم يعد فى حيز الامكان الانفاق على التعليم ، أكثر ممــا كان ينفق عليه ، بالرغم من شدّة الرغبة فى توسيع دائرة الإنفاق .

على أنه لا يجب أن يستنتج من ذلك فكرة تحط من قدر المجهود المبذول فى هذا السبيل : فانه بينما كانت ميزانية التعليم بمصر تتراوح بين السبعين والثمانين ألف جنيه

سنويا ، ولا تقل عن الستين ألفا حتى فى أسوأ سنى العسر المالى — وذلك غير المنفق على المدارس الحربيـة والبحرية التابعة لميزانيتى وزارتى الحربيـة والبحرية ، وغير ما كانت تنفقه ادارة الأوقاف على عموم مدارس المساجد والكتاتيب — لم تكن ميزانيته فى تركيا تزيد أبدا على الخمسين ألفا حتى فى أجود سنى الرخاء — وذلك بالرغم من أن سكان تركيا كانوا سبعة أضعاف سكان مصر ؛ وبالرغم من أنه لم تقم فى تركيا حركة تمدينية البتة كالحركة التى أثارها (اسماعيل) بمصر ؛ ولا ألزمها مركزها السياسى بنفقات فى غير أبواب الادارة الداخلية ، كما ألزم مركز مصر السياسى الحكومة المصرية بها .

مضار مبدأ المجانية المطلقة

على أن مبدأ المجانية المطلقة فى المدارس المصرية — وقد كان مبدأ معدوما كلية فى تركيا — هو الذى كان يجعل المبلغ المخصص لميزانيـة التعليم غير واف بالمراد ولا مساعدا على القيام بالمقصود . وذلك لأن مصاريف طعام التلامذة وكسوتهم ومسكنهم ، ناهيك بما كان يتقاضاه بعضهم من المرتبات الشهرية ، على زهادتها ، كانت تبتلع ثلاثة أرباع الميزانية ، ولم تكن مرتبات المعلمين تستنفد أكثر من الربع الباقى ؛ وكانت ، لهذا السبب ، زهيدة حتما ، وغير مشجعة على العمل . فمرتبات معلمى المدارس الثانوية ، مثلا ، كانت تتراوح بين مائتى قرش وسبعمائة وخمسين قرشا شهريا !

ونجم عن جعل المجانية أساسا للتعليم ضرران عظيمان : (الأول) اضطرار الحكومة ، مع تقدّم الأيام وتغير عقلية الأمة فيما يختص بارسال أولادها الى المدارس ، الى حصر عدد التلامذة ، الممكن قبولهم فى المدارس الأميرية ، ضمن دائرة محدّدة ؛ وحرمان الكثيرين من الراغبين فى التعلم من ثمرات العلم الشهية . لأنه ، لما كانت نفقات

التلميذ الواحد يكلف الحكومة ستة وعشرين جنيها سنويا ، بين تعليم وأدوات تعليم ولبس وأكل ونوم ، لم يعـد فى الاستطاعة اجابة طلبات جميع الراغبين فى الالتحاق بالمدارس بل ولا جلها ، وبات من المحتم الاقتصار على محلات معدودة فى كل مدرسة بالرغم من أن الدفعة القوية التى صدرت عن (اسماعيل) للشؤون العلمية ، أدّت ، فى ظرف عشر سنوات ، الى انشاء المدارس الأوّلية على النظام الأوروبى فى المديريات ، والى تشجيع التعليم الابتدائى فى الكتاتيب ومدارس المساجد وغيرها ، مما سيأتى بيانه .

والى مثل هـذه النتيجة ، وهى الاقتصار على محلات معدودة فى المدارس وحرمان الكثيرين من الراغبين فى التعلم من ثمرة العـلم الشهية ، وصلت حكومتنا اليوم ، بسبب مغالاتها فى الانفاق على تشييد معاهد التعليم ، وافراطها فى المرتبات الضخمة الممنوحة للاساتذة الأجانب .

والضرر الثانى فقدان الطلبة حرية اختيار المدرسة الثانوية أو العليا ، التى يميلون اليها ميلا طبيعيا ، بعد فراغهم من تلقى دروسهم الابتدائية . لأن الحكومة ، المتولية الانفاق عليهم ، كانت ترى نفسها أحق منهم بذلك الاختيار : فتتصرف فيهم كما تشاء ، تصرفا كثيرا ما كان غير الحكمة رائده ، لأن الصدف والظروف تجعله فى يد وزير ربما تعوزه الحكمة .

مثال ذلك ما حدث حينما خلف قاسم باشا فى ديسمبر سنة ١٨٧٢ شاهين باشا على دست وزارة الحربية ، فانه رأى فى ١١ فبراير من السـنة التالية أن يعزز هيئة الضـباط ، ويضاعف عدد تلامذة المدارس العسكرية ، فطلب الى بهجت باشا وزير المعارف أن يسمح له بأن يختار من مدارس الحكومة المدنية ، الشبان الذين يحتاج اليهم ، ولم يسع بهجت باشا إلا موافقته ، لئلا يرمى بأنه يريد إضعاف قوّة مصر

المدافعة عنها . فاختار قاسم باشا ١٤٤ طالبا من التحضيرية ، و٦٥ من التجهيزية ، و٩٦ من المهندسخانة ، بحيث لم يعد في الفرقة الأولى منها سوى تلميذين من الثلاثين الذين كانوا فيها .

ولولا تداخل بعض العقلاء ، وإلفاتهم نظر الخديو الى ذلك الخلل — فتلافاه (اسماعيل) — لنفذ قاسم باشا مرامه وأحل الخراب بجملة بالمعاهد العلمية[1] .

ومثال ذلك أيضا ، ما كان يتبع ، عادة ، في أمر الأذكياء والبلداء من طلبة المدارس الأولية : فانهم كانوا يرسلون الأذكياء الى المدارس المدنية العالية ، ويرسلون البلداء الى المدارس الحربية . فيتخرّج الأذكياء من مدارسهم المدنية ، وأعلى مرتب شهرى يمكن أحدهم الطمع فيها ، عشرة جنيهات مصرية ؛ بينما البلداء يتخرّجون من المدارس العسكرية ، ضباطا ؛ أقل مرتب شهرى ، يربط للواحد منهم ، أعلى من أقصى مرتب يطمع فيه الذكى الملكى ؛ فتثبط بذلك همة كل ذكى ، ويصبح مرتاحا الى التظاهر بالبلادة والغباوة ، حرصا على سعادته المستقبلة ، وتمثلا بقول ابن الراوندى :

رزق التيوس يجيئها بسهولة * وذوو الفصاحة رزقهم مسجون

ان كان حرمانى لأجل فصاحتى * فامنن علىّ من التيوس أكون

ومثال ذلك ، أخيرا ، ما كان يعمل سنويا ، فى الحاق الطلبة بهذه المدرسة العالية أو تلك ؛ فانهم كانوا يجمعون المتخرّجين من المدارس التجهيزية ويقسمونهم الى عدّة مجاميع ، يوزعونها بطريقة الاقتراع ، على مدرسة الطب ، والمدارس المجتمعة فى سراى الأمير مصطفى فاضل ؛ ثم يعودون فيدخلون مدرسة الطب ، بطريق الاقتراع أيضا ،

(١) أنظر : "التعليم بمصر" لدوربك ص ٤ : ٣٠

ثلاثة أرباع المجموع الذى يكون قد أصابها ، ويدخلون الربع الباقى فى مدرســة الصيدلة ؛ ثم يعملون العملية عينها فيما يختص بمدرسة المهندسخانة ، ومدرسة الحقوق ، ومدرسة اللغات ، وهلم جرا ، بدون مبالاة بما ينجم عن ذلك من إجحاف بميول التلامذة ، وقهر للكفاءات على الانتشار فى ميادين غير التى خلقت من أجلها .

ودام مبدأ الاقتراع هذا بمضاره معمولا به حتى سنة ١٨٧٦ ، إذ ألغاه رياض باشا وزير المعارف فى ذلك العام ، وصاحب الأيادى البيضاء على التعليم الابتدائى ، بمـا بذله من مجهودات فى سبيل تحسين حال الكتاتيب ، وترقية معلومات الفقهاء .

وهكذا كانت المجانية — التى كثيرا ما حبذها فى الأيام السالفة قصيرو النظر من الأميين وغيرهم ، وما زال يحبذها بعض الكتاب الاجتماعيين لغاية أيامنا هذه — أعظم مانع لانتشار المعارف والتعليم بمصر فى ذلك العصر !

ونجم عنها زيادة على ما ذكر ، تغلب النظام العسكرى على معظم المدارس . ولا نستطيع أن نجزم أ كان تغلبه هذا خيرا أم شرا عليها ، لأسباب لا تخفى على القارئ اللبيب : فان البلاد كانت فى حاجة الى روح الشدّة فى حفظ النظام ، بقدر ما كانت فى حاجة الى انبثاث روح الحرية والاستقلال فيها . ففقدانها الروح الأوّل كان من شأنه أن يحرمها فائدة التعليم ؛ وفقدانها الروح الثانى كان من شأنه أن يديم استكانتها الى الذل الموروث عن القرون السالفة . وبمـا انا لسنا من مذهب القائل بتفضيل الجهل ، مع الاستقلال ، على العلم ، مع عدمه ، لأننا على ثقة تامة من أن الجهل جار ، حتما ، فى نهاية الأمر ، الى الاستعباد والذل ، والعلم مفض ، حتما ، فى نهاية الأمر أيضا ، الى الاســتقلال والعز ، إلا اذا اعترض خور فى الأخلاق سبيله ؛ فانا نتردّد فى إبداء حكم بات فى الشأن الذى نحن فى صدده .

وأما قلة الرجال فلسببين :

(الأول) أن الفترة المشؤومة ما بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٦٣ أنقصت كثيرا عدد المصريين أولى الكفاءة لمباشرة شؤون التعليم ، وأضاعت ممن تبقوا ، الثقة فى أنفسهم والاعتماد عليها . فنجم عن ذلك أن وزارة المعارف كانت فى اضطرار دائم الى استدعاء نظار المدارس للتعاون بهم على الأعمال الادارية والفنية فتعطلهم عن أشغالهم ؛ وان نظار المدارس باتوا يستشيرون الوزارة فى جميع أمورهم حتى التافهة منها — فتتعرقل حركة إدارتهم — ونتيجة الأمرين اختلال النظام فى طرق التعليم وفى نفاذها .

و (الثانى) هو أن ازدياد عدد الطلبة ، لا سيما الداخلية ، ازديادا مطردا فى السنوات الأولى من حكم (اسماعيل) أدّى حتما الى ازدياد الشعور بالحاجة الى معلمين ، والى وجود عدم الكفاية منهم . فان الأهالى ، بعد أن كانوا فى أيام (محمد على) وخلفائه الأولين ، يمانعون فى تعليم أولادهم ممانعتهم فى تجنيدهم — لارتباط الأمرين معا فى ذلك العهد — فيضطرون (محمد على) الى استعمال القوة والتعسف فى أخذهم منهم وارسالهم ، قسرا ، الى المدارس التى أنشأها ، ما لبثوا أن رأوا الفوائد الجمة العائدة على المتعلمين من أبنائهم ، ورأوا ولد هذا الفلاح الحقير ، وابن ذلك الصانع الوضيع يبلغان ، بفضل العلم الذى تلقياه ، أعلى مراتب التوظف ، ويتحليان برتبة البيكوية بل برتبة الباشوية الرفيعتين ؛ ثم رأوا أن التعليم ليس مجانيا فقط ، بل مكافأ عليه ، ومحوطا بجميع صنوف العناية والهناء ، أقبلوا بكل انشراح ؛ يتزاحمون على أبواب المدارس ، كل يلتمس لابنه فيها محلا ، ويرجو له نصيبا فى المستقبل ، كنصيب الذين أسعدهم الحظ من أولاد أقرانه ، بل من أولاد الأحط منه قدرا .

فأخذت الحكومة منهم، فى الأول، ما كان فى استطاعتها أخذه؛ ولكنها مالبثت أن رأت نفسها أمام المعضلتين، اللتين ذكرناهما : معضلة المـال ومعضلة الرجال، إلا واضطرت الى الوقوف عند حدّ معلوم، والبحث عن طرق لحلهما .

أما معضلة المـال ، فان الوزير الحكيم على مبارك باشا رأى أن خير حل لها هو السير على الخطة المتبعة ، إذ ذاك، فى المدارس الأوروبية ؛ أى إبطال مبدأ المجانية البحتة، وتكليف الأهالى بالانفاق على تعليم أولادهم ، ولو إنفاقا يسيرا فى بادئ الأمر. فأنشأ مدرستى ماريستان قلاوون والقربية ، وفرض فيهما دفع مصاريف شهرية على الراغبين من الأهالى فى الحاق أولادهم بهما . ولمـا كانت تلك المصاريف زهيدة جدّا، على كفايتها للانفاق على الأساتذة القائمين بشؤون التدريس فى كلتا المدرستين، أقبل التلامذة عليهما إقبالا عظيما، وبلغ عددهم فيهما، فى مدّة قصيرة مائتين وخمسين طالبا فبانتا مثالين لجميع المدارس الابتدائية التى أنشئت بعدهما .

وأما معضلة الرجال، فان دور بك رأى أن حلها لايكون إلا بانشاء المعاهد لتخريج مدرّسين للمدارس الابتدائية والمدارس الثانوية . فأنشأ مدرسة دار العلوم، ثم أنشئت بعدها المدرسة المدعوّة بالنورمال : (الأولى) لتخريج أساتذة يقومون بتدريس كل ما كانت اللغة العربيـة أساسا لتعليمه؛ و(الثانية) لتعلية مستوى التعليم فى المدارس الابتدائية ، وتخريج أساتذة يقومون ، على الأخص ، بتدريس اللغات الأجنبية ، والرياضيات والعلوم الأخرى .

ولكنه، لمـا كان لابد من الالتجاء الى الأزهر، لأخذ الطلبة المتقدّمين فيه الى مدرسة دار العلوم ، وتخريجهم فيها مدّة سنتين، ليرسلوا بعدها الى مدارس الريف،

ليدرّسوا فيها، كان على الأساتذة، المتخرجين من هذه المدرسة، شئ من المسحة الأزهرية، جعلهم لا يرون قاعدة للتعليم خيرا من التى شبوا عليها فى ذلك المعهد الدينى العظيم .

ولم يدرك دور بك تمام الغرض الذى رمى اليه من انشاء دار العلوم ، وهو تخريج أساتذة متشبعين بمبادئ التدريس على النمط الأوروبى ، وميالين الى العمل بقواعد البيداجوجيا الحديثة . ولكن البلاد نالت، من انشائها ، فائدة أعظم من التى رجاها ذلك الأستاذ السويسرى ؛ لأنها ، لما رأت إقبال المتعممين على تفقن علوم كان سواد الأمة الأعظم يعتقدها من بدع الشيطان ، لاعتقاده إياها من غرس عالم غير إسلامى ، من غرس عالم مافتئ العالم الاسلامى يظن السوء فى نياته نحو الاسلام — وهو الاعتقاد الذى أدّى بالأزهر الى مقاومة (محمد على) مقاومة شديدة ، بالرغم من كونها خفية وصماء، حينما أقبل يأخذ أولاد الفلاحين المصريين ، و يزجهم فى مدارسه ، أو يرسلهم الى مدارس بلاد الكفار (الفرنج) ، مع أنه لم يقاومه مطلقا ، لما كان مقتصرا فى بادئ أمره ، على تعليم مماليكه وغيرهم من أولاد الشرقيين الأجانب عن مصر — ورأت أولئك المتعممين يحبذون مايتلقونه من تلك العلوم ، و يعظمون من شأنها ، و يبالغون فى فوائدها ، أخذت تتحوّل عن اعتقادها أنها علوم من بدع الشيطان ، وأخذت الرغبة فى تحصيلها تنتشر فى المجموع ، رويدا رويدا ، وتعمّ جميع الطبقات . ومن المعلوم أن رقى البلاد برمته ، ماديا كان أو أدبيا ، مربوط ، فى نهاية الأمر ، بتشبع الأمة بمبادئ العلوم الوضعية ، وعملها على اقتباسها ، واقتباسها إياها ، فى الواقع .

ثم أنشئت معاهد ، خلاف مدرستى دار العلوم والنورمال ، لتثقيف أساتذة للمدارس الابتدائية ، غير من ذكروا ، ممن كانوا يرغبون فى تحسين معارفهم ، وترقية درجة

معلوماتهم العامة . وجعل التعليم فيها ليس مجانيا ، فقط ، بل ربط جنيه لكل طالب حتى يتبين نجاحه ، أو تظهر خيبته .

على أنه لا قلة المـال ولا قلة الرجال حالتا دون قيام (اسماعيل) بعمل تعليمى لم يسبقه اليه أحد فى الشرق ، وكان من أنصع الأدلة على حسن نوايا ذلك الأمير ، و برها برعاياه ذلك العمل هو إنشاؤه فى سنتى ١٨٧٥ و ١٨٧٧ مدرستين للعميان على الطريقة الغربية المعروفة . وهما مدرستان كان القطر المصرى ولا يزال فى أشد الاحتياج اليهما والى مثيلاتهما ، لكثرة عدد العميان فيه ، وكثرة فتك الرمد الصديدى بعيون سكانه !

وليس أوقع فى النفوس من الوصـف الذى يصف به دور بك فى كتابه المعنون "التعليم فى مصر" الحجرة المخصصة فى الأزهر الشريف لتعلم أولئك البؤساء ، وقيام معلميهم بأمر تعليمهم بطول أناة وحسن صبر يستمطران المدامع من الأعين(١) !

على أن التعليم فيها ، إنما كان بتحميل الذاكرة أعباء الحفظ ، لا بتعليم اليد القراءة والكتابة لمسا ، بخلاف المدرستين اللتين أنشأهما (اسماعيل) ، فانهما كانتا تستخدمان الكتب ذات الأحرف البارزة ، الخصيصة بالعميان ، لتعليمهم القراءة ، والكتابة ، والحساب ، باللمس ، فوق تعليمهم صناعة الحصر ، والخراطة ، والكراسى ، وغيرها . وما لبثتا أن جمعتا عددا عديدا من أولئك البؤساء ، الذين كانوا لا يفترون لحظة عن الابتهال الى الله أن يحف من أحسن اليهم صنعا بجميع صنوف عطاياه ونعمه ، وابقاء حياته وملكه .

وتناول الاصلاح المدرسى ذات المعاهد الدينية ، لا سيما الكبرى منها ، كالأزهر بمصر والجامع الأحمدى بطنطا ، والدسوقى بدسوق ، وجامع ابراهيم باشا بالاسكندرية .

(١) أنظر : "التعليم العام بمصر" لدور بك ص ١٧٣ و ١٧٤ و ١٧٥

فألزم الشيوخ المتخرّجون فيها بتأدية امتحانات، لنيل اجازة التعليم، واعتراف الحكومة بهم أنهم معلمون.

وكان عدد المجاورين بالأزهر في سنة ١٨٧٦ أحد عشر ألف طالب وخمسة وتسعين؛ وعدد المجاورين في الجامع الأحمدي ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وعشرين؛ وعدد المجاورين في المسجد الدسوقي مثلهم تقريبا. وأما عدد طالبي العلم في جامع الشيخ ابراهيم باشا، فلم يكن سوى أربعمائة وثلاثة عشر.

مدارس الأوقاف

٢ — مدارس المساجد والأوقاف والكتاتيب القديمة التابعة للأوقاف

بما أن ادارة هذه المدارس والكتاتيب، طوال مدّة حكم (اسماعيل)، تقريبا، بقيت مسندة الى أيدي وزراء المعارف، فان حظ حركة التعليم في المعاهد التابعة لها، والمتولية هي الانفاق عليها، كان كحظ مدارس الحكومة وكتاتيبها. وأدخلت عليها النظامات والتحسينات التي أدخلت على هذه فلا داعي لزيادة التكلم عنها.

المدارس الفردية

٣ — المدارس التي أسسها أفراد من الهيئة الاجتماعية الاسلامية

ان أهمها ماتجلى في مدرسة راتب باشا بالاسكندرية؛ وفي مدرسة السيوفية للبنات بمصر؛ وفي مدرسة القبة للأولاد.

فراتب باشا، مؤسس رواق الحنفية في الأزهر، أنشأ بالثغر الاسكندري، مدرسته المجانية المشهورة، وحبس عليها أوقافا، وأجرى أرزاقا تكفل بقاءها الى ماشاء الله. فأمّها، بحين نشأتها، نيف وستون طالبا؛ ولكن عددهم مافتئ يتزايد حتى جاوز المائة. وقد كانوا يتعلمون فيها، في مبدأ الأمر — أسوة بالمدرسة المؤسسة من الأوقاف في الثغر عينه، والحاوية مائة طالب — القرآن، والعربية، والتركية، والحساب.

ثم تطوّرت الأيام، فأضيف الى تعليم ذلك الفرنساوية؛ وما لبثت تقلبات الزمان أن ذهبت بالتركية أدراج الرياح؛ ثم ذهبت بالفرنساوية أيضـا، وأحلت الانجليزية محلهما معا .

أوّل مدرسة عربية للبنات

أما مدرسة السيوفية للبنات، فقد كانت الأولى من نوعها فى العالم الاسلامى . أنشأتها الأميرة تشسما آفت خانم أفنـدى زوجة (اسماعيل) الثالثة، بايعاز وتشجيع فعلىّ من بعلها الجليل، على نفقتها الخاصـة، وبشجاعة أدبيـة نادرة؛ لاعتبار العالم الاسلامى عملها هذا بدعة غير ممدوحة .

نعم إنه كان فى البلاد مدارس للبنات، أسستها الأخويات والارساليات المسيحية، والطوائف غير الاسلامية، والجاليات الغربية، كما سيأتى بيان ذلك، وكانت بعض بنات المسلمين تؤمها؛ ولكن الرأى العام الاسلامى لم يكن راضيا عنها؛ وكان وجوه القوم وكل من يظن فى نفسه أنه ذو حيثية يأنف من إرسال بناته اليها لمخالفة ذلك للعادات المتبعة، مخالفة تنفر الشعور والأوهام المسلم بها بدون مناقشة .

وقد كان ذلك الرأى العام شديد التأثير الى درجة أن (محمد على) الكبير — الذى لم يكن لينحنى بسهولة أمام ضجته، ولا يهاب سخطه — أبى الموافقة على ما أشار به مجلس معارفه الأعلى، المتشرب بالمبادئ الغربية، والمقتنع بعظم تأثير المرأة المتعلمة فى الهيئة الاجتماعية، من وجوب تعليم البنات، وإنشاء مدارس لهنّ، أسوة بمدارس الصبيان؛ واكتفى بتعليم بنات أسرته وجواريهنّ على يد المسز ليدر زوجة أحد مبشرى الانجليز، التى أنشأت فى سنة ١٨٣٥ أوّل مدرسة افرنجية للبنات فى القطر المصرى؛ بتشجيع من تلميذتها الخانم بنت (محمد على) الكبرى، زوجة محرم بك أمير الأسطول المصرى، ومحافظ ثغر الاسكندرية، المسمى باسمه الحى الكبير المشهور فى هذه المدينة .

ولما كان الناس — لا سيما الكبراء — على دين ملوكهم، اقتدى بالعزيز الذوات والوجوه، وبدأت تنتشر فى البلاد عادةَ استخدام السراة معلمات أجنبيات، لتهذيب بناتهم، وتثقيف عقولهنّ .

غير أن (محمد على) لم يكن بالرجل الذى يهمل، بتاتا، أمرا يعتقده هامّا ومفيدا، لمجرّد مخالفته للرأى العام ؛ واذا لم يكن يرى صلاحية نفاذه وإجرائه مباشرة ، كان ينفذه من وجه غير محسوس .

فلكى يهز جمود الأمة عن تربية بناتها، هزا يوقظها من نومها، أتاها من طريق سوىّ ؛ وأنشأ بمساعدة كلوت بك، مدرسة قابلات ؛ كانت كل تلميذاتها ، فى بادئ الأمر، عشر جوارى حبشيات من سراى الخاصة . ولما لم يكن الرأى العام يرى فى الأمر بأسا بل يرى بالعكس تعليم النساء فنّ القبالة شيئا مستحبا ؛ ورأى القوم ، بعد ذلك من عمل تلك الجوارى عقب خروجهنّ من المدرسة ، ما نهض بهنّ الى مقام محمود وأغنى الأسرات التى طلبت مساعدتهنّ ، عن عمل الجاهلات من القوابل ، طفق الفقراء يرسلون بناتهم الى مدرسة كلوت بك بالقصر العينى ، حتى توطدت دعائمها ، وباتت مع مضى الزمان ، من المنشئات الثابتة ، التى لا يخشى انهيارها . وآلت النظارة عليها فى أيام (اسماعيل) الى مدام ڤيال . فغصت مقاعدها بأربع وأربعين طالبة داخلية ، وعشر خارجيات ؛ والذى كان يلفت منها الأنظار هو أن جميع تلك الصبايا كنّ يتلقنّ العلوم، وهنّ مكشوفات الرءوس ، لا طرح عليها ، كأنهنّ غربيات : لا شرقيات، بدون أن ينفر ذلك أحدا من الزائرين — الى مثل هذا الحدّ يتغلب الشعور بالمصلحة على الشعور بالعادات الموروثة !

ولم تكن المتخرّجات من تلك المدرســة قوابل فقط ، بل كنّ طبيبات أيضا ، انتشرن بمصر، والاسكندرية، و برزخ السويس ، ودمياط، ورشيد، والمديريات الأربع عشرة ، انتشــار ملائك الرحمة، يخففن البؤس عن المريضات، ويواســين العليلات ، فمهد ذلك السبيل الى تعليم البنات وكسر من حدّة الشعور العــام النافر من تعليمهنّ .

وكان (اسماعيل) الراغب فى إطلاق بلاده فى مضمار الحضارة الغربية، بهمة تكاد تكون عنفا، لاعتقاده أن لا سلامة لها إلا بجريها شوطها الطبيعى فيــه، يقظا كل اليقظة للصغيرة قبــل الكبيرة من تحرّكات الرأى العام فيها . فلم يفته الالتفات الى تزحزحه القليل عن مقرّه، وعزم حالا، على اغتنامها فرصة، لتنفيذ أمنيته فى التعليم العام كانت من أعز أمانى قلبه . ولعلمه بمــا انطوت عليه النفوس لا سيما الجاهلة ، من إحاطة أجل المشاريع نفعا بسحابة من ريب وظنون، ولرغبته فى أن تقوم، مقام تلك السحابة ، هالة من الشــعر ساطعة السنا ، أوعز الى ثالثة زوجاته ، الأميرة تشسما آفت خانم بأن تكون أوّل مدرسة إسلامية تفتح فى القطر المصرى لتعليم البنات على الطريقة الغربية شعاعا من أشعة شمسها .

فاشترت الأميرة سراى قديمة بالسيوفية، وهى حىّ من أكثر أحياء العاصمة سكانا وجدّدت بناءها ، فصيرتها مدرسة ، وفتحت أبوابها للطالبات فى ربيع سنة ١٨٧٣ وهى السنة التى أشرقت على البلاد بأفراح الأعياد التى أقيمت لترويح الأمراء الثلاثة توفيق وحسين وحسن، أبناء (اسماعيل) الكبار .

ولكنه بالرغم من أن تلك المدرسة جعلت داخلية مجانية، وأن البنات استدعيت اليها من جميع طبقات الأمة، بلا تمييز مذهبي أو اجتماعى ، وأن الجميع كانوا يعلمون

أنهم يرضون ولىّ النعم بارسال بناتهم اليها ؛ بالرغم من أن المعيشة فيها جعلت هنيئة ، فاخرة ، كأن المقيمات فيها بنات أرباب قصور من ذات العيش الرغيد ؛ وأن المعلمات الخمس عشرة اللاتى اخترن لهـا ، ومنهن الناظرة واثنتان افرنجيـات ، كنّ من خيرة المدرّسات ، لم يقع فى خلد أحد من الأهالى ، فى بادئ الأمر أن يبعث بابنته اليها ، لشدّة تسلط الأوهام الموروثة ، المقبولة بلا تمحيص كنهها على العقول .

فلم تجـد الأميرة عدد التلميذات اللازم لمدرستها ، واضطرت الى أخذ فتيـات الجوارى البيض من بيتها و بيوت أميرات الأسرة المـالكة وأمرائها ، وإدخالهنّ فيها .

غير أن السحر ما لبث أن زال ، والغشاوة التى كانت على العيون ما لبثت أن انقشعت فأدرك القوم حقيقة النعمة التى أسديت اليهم ، على يد أميرتهم الجليلة الفاضلة من لدن خديوهم الحازم البارّ بمصالحهم العقلية والقلبية ؛ وفقهوا الى لذة الطعام الأدبى الذى مدّ (اسماعيل) به المـائدة أمامهم . فأقبلوا ، من كل ملة ونحلة — أولاد عرب ، ونوبيون ، وأقباط ، ويهود ، وشرقيون ، من كل الطوائف والأجناس — وتزاحموا ببناتهم ، وسنهنّ من سبع الى اثنتى عشرة سنة ، على أبواب مدرسة السيوفية ، ليدخلوهنّ فيها . فامتلأت بالداخليات المحلات المعدّة لهنّ ، وعددها مائتان ؛ واضطر الاقبال الادارة الى إنشاء مائة محل أخرى — ولكن خارجية — لمن لم يمكن قبولهنّ فى مصاف الداخليات .

فأصدر (اسماعيل) ، حينذاك ، أمره ، الى ادارة الأوقاف ، بانشاء مدرسة أخرى للبنات على نظام مدرسة السيوفية . فصدعت الادارة به ، وأسست فى جهة القربية ، المدرسـة المرغوب فيها . فتقاطرت اليها الطالبات ، لا سيما بنات الوجهاء وموظفى الحكومة ومستخدميها ، واكتظت بهنّ المقاعد ، وزادت الطالبات ، مئات مئات

عن المطلوب . فدل الاقبال على المدرستين، دلالة قاطعة، على سرعة تطوّر المصرى الى مقتضيات العصر، حينما يأتيه الايعاز من علّ .

وكان التعليم ، فى كلتا المدرستين — ومدّته خمس سنوات — مثله فى مدارس أوروبا التى من نوعهما ، أى القراءة العربيــة ، والكتابة ، والحساب ، والرسم ، والجغرافيا، والموسيقى، وأشغال الابرة، والطبخ، والغسيل، والتدبير المنزلى، زيادة على تعلم التركية والفرنساوية، وتلقين القرآن للمسلمات .

ولكن مصروفات التعليم كانت تفوق مثيلاتها فى أوروبا ، لأن المظاهر ، هنا ، كانت فخمة، سنية كمظاهر كل ما كان يصدر عن (اسماعيل)؛ وأما هناك، فكانت بسيطة، عادية .

غير أن إقبال بنــات الوجهاء والكبراء عليهما، ومزاحمتهنّ بنــات الشعب على مائدتيهما، حملا الخديو على الرغبة فى تشييد مدرسة ثالثة، تكون من العظمة والبهاء فى أقصى درجتيهما، وتجعل خصيصة بتربيــة بنات العائلات الرفيعة، والبيوتات السنية، أو المصرية الشريفة، القديمة .

فصدرت إرادته بتشييدها، و بوشر ذلك حالا . وانك لترى فى خريطة القاهرة، المعمولة بمعرفة جران بك ســنة ١٨٧٨ ، الموقع الذى خصص لإقامة تلك المدرسة عليـــه .

ولما كانت عزيمة (اسماعيل) قد توطنت على إبطال الرق، نهائيا، كما سنبينه فى محله وكان لا بدّ من خادمات تقمن بخدمة المنازل، بدل الرقيقات المرغوب فى عتقهنّ — ولم يكن من وجود لتلك الخادمات بين أهل البلاد ومنهم ، لعدم استدعاء نظامات

القطر الاجتماعية السالفة وجودهنّ — رأى (اسماعيل) أن ينشئ مدرسة، غيرما ذكر، تعلم فيها بنات ريفيات فقيرات شؤون الخدمة المنزلية على أنواعها . فأسسها فى العاصمة على نفقة الأميرة زوجته الأولى، وتحت رعايتها الساميـة ، ورعاية وزارة المعارف ؛ وعهد بالنظارة عليها الى سيدة أوروبية ، وضع تحت إدارتها ثمانى معلمات ، منهنّ واحدة إفرنجية . وأدخل فيها ستا وسبعين طالبة داخلية، وإحدى وسبعين خارجية . فبرزت الى الوجود، من أحسن المدارس المصرية وأكثرها فائدة — وليت لها من مثيلة فى أيامنا !

ومـا يستوقف النظر من أمر هذه المدارس، أنه كان يقام فيها يانصيبات على أشغال التلميذات اليدوية ، يخصص صافى المتحصل منهـا بتكوين مال للطالبات الفقيرات ، يصرف لهنّ عند زواجهنّ !

ولكن الضائقة المـالية ماعتمت أن اشتدّت، وازدادت حلقاتها تصلبا . فصرف البناء الفخم ، الذى أنشئ ليكون مدرسة لبنات الوجهاء، عما قصد به منه ؛ واضطرّت الأميرة تشسما آفت خانم ، بل إدارة الأوقاف ذاتهـا ، الى الاقتصاد فى الإنفاق على مدرستيهما . ثم، لـما سارت تلك الأميرة السنية الى المنفى، بصحبة بعلها الجليل، سنة ١٨٧٩ ضمت المدرستان الواحدة الى الأخرى ؛ وبلغ، فى السنوات التالية، من تضاؤل الإنفاق عليهما، ما آل بهما، الى الخروج عن دائرة الغاية التى أنشئتا من أجلها، وصيرورتهما، ملجأ لبنات المعوزين، يذهبن اليه ليصبن منه قليلا من الطعام المـادّى على سبيل الاحسان . وأما مدرسة تربية الخادمات ، فألغيت، كذلك، بعد تنازل (اسماعيل) عن العرش ، بالرغم من شـدّة الاحتياج اليها ، إرضاء لتحتيمات أصحاب الديون .

ألا ، قاتل الله دائنى مصر فى ذلك العهد ، قدر ما أساءوا الى البـلاد ونهبوا من أموالها ، ووقفوا فى سبيل خيرها ! وأغدق سحائب رضوانه على أرواح (اسماعيل) وأزواجه عداد ما نووا من عمل خيرى لبنات مصر وغاداتها فى بابى تعليمهنّ وتربيتهنّ !

أما مدرسة القبة ،وكانت ابتدائية وثانوية معا ، فقد أنشأها الأمير محمد توفيق باشا ، ولى العهد ، على نفقته الخاصة ، وجعلها قسمين : داخلية وخارجية . فبلغ عدد الطلبة الداخليـة خمسين ، والخارجية أربعين . وامتازت عن سائر المدارس التى من نوعها بالعناية الخاصة التى حاطها الأمير بها ، والتى جعلت الطلبة بمأمن من كل عوز .

٤ — المدارس التى أنشأتها الطوائف الشرقية غير المسلمة

إليك بيانها :

(ا) مدارس الأقباط الأورثوذكس

مدارس الأقبـاط الأورثوذكس

دبت فى الأقباط الأورثوذكس روح التعلم ، بما بذله من مجهودات فى هذا السبيل بطريركهم الأنبا كيرلس الرابع المشهور عندهم بلقب "الأنبا كيرلس الأكبر محيي العلوم والمدارس". فما فتئوا يسلكون الطريق التى اختطها لهم ، حتى أصبحت مدارسهم فى عهد (اسماعيل) : اثنتى عشرة مدرسة بالقاهرة ، وواحدة بمصر العتيقة ، وواحدة بالجيزة ، ومدرستان بالاسكندرية ؛ يتعلم الطلبة فيها : القبطية ، والعربية ، والفرنساوية أو الانجليزية أو الطليانية ، والحساب ، ومبادئ الهندسة ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وبعض منطق ، والأناشيد الكنيسية .

وذلك خلاف مدرســة إكليريكية بالعاصمة ، يتعلم فيها اثنا عشر طالبا من راغبي الكهنوت ، اللاهوت ، واللغة القبطية ، والعربية ، والغناء الكنيسى .

وكانت أهم هذه المدارس، ولا تزال، المدرسة الكبرى البطريركية. فقد بلغ عدد الطلبة فيها سنة ١٨٧٦ ثلثمائة وتسعة وسبعين : منهم ٣٠٢ أقباطا أرثوذكسيون — ٤٠ منهم داخلية، والباقون خارجيون — و١٦ مسلما ، ويهودى واحد، وثمانية أرمن، وخمسة يونانيون، وسورى واحد. وكان عدد أساتذتها ثلاثة عشر، لهم ستة مساعدون، وعليهم ناظر، رجل فاضل يقال له المسيو ادوار زار .

وكانت هـذه المدرسة تمتاز عن مثيلاتها بالامتحانات العامة ، التى كانت تعملها ، سنويا ، فى حفلة فخمة ، يرأسها عادة وزير المعارف — وكان فى الغالب على مبارك باشا — ويحضرها شيخ الإسلام ومفتى الديار المصرية وجم غفير من الأكابر والأعيان والسراة ووجوه البلد ؛ ولم يكن يشوبها سوى الجزء منها ، الذى كان يقوم فيه خمسة من التلامذة ، وهم مرتدون ملابس كهنوتية ، ببعض شعائر طقسهم الكنسى، فيوجبون فتورا فى نفوس الحاضرين من غير بنى مذهبهم ، ويذهبون عن الحفلة، بشكلها المدرسى البحت، المرتاحة أفئدة الجميع اليه، ليصبغوها بصبغة دينية لا يرتاح اليها إلا قلوب البعض، وكانت الحفلة فى غنى عنها .

وكانت مدرسة حارة السقايين، بتلامذتها البالغ عددهم ١٧٤ — أى ١٧١ قبطيا، ومسلمان، وأرمنى كاثوليكى — تلى المدرسة البطريركية فى الأهمية بمصر.

على أن الذى امتاز به الأقباط دون المسلمين ،هو أنهم، قبل إقدام الأميرة تشسما آفت خانم على تأسيس مدرسة السيوفية، أنشأوا مدرستين للبنات : احداهما فى حارة السقايين؛ وكان فيها ٤٥ بنتا قبطية يتعلمن على يد معلمات سوريات ، اللغة العربية والأشغال اليدوية؛ وقد وقعن من قلب دور بك، حين زيارته لهنّ موقع الاستحسان،

بعيونهن النبيهات ، وهيأتهن الظاهر عليها الاهتمام الكلي بالدروس[1]؛ والأخرى بجانب الأزبكية؛ وكان فيها ٨٠ بنتا فى سنة ١٨٧٦ يتعلمن ما يتعلمه بنات مدرسة حارة السقايين .

أما باقى المدارس القبطية ، فلم يكن يتعلم فيها غير أقباط ، وكانت جملتهم ٢٥٠ طالبا .

غير أنه ، بالرغم من مجهودات ذوى الفضل من رجال الطائفة، وبالرغم من أن أغنياءها لم يكونوا بالنفر القليل ، لم يكن الأقباط يستطيعوا القيام بنفقات المدارس التى أنشأوها، لولا برّ (اسماعيل) الجليل بهم، وموالاته إياهم . فانه — فوق تشجيعه الأدبى لكل جهودهم ، ووضعه سفنه البخارية النيلية بكل المؤن اللازمة، والخدمة الواجبة ، تحت تصرف بطريركهم فى رحلاته الرعوية الى الصعيد — قد وهب مدارسهم ألفا وخمسمائة فدان من أطيان القطر الجيدة، لينفقوا من ريعها على تعليمهم . وبما أن مقدار ذلك الريع كان نيفا وألفى جنيه سنويا — وكانت ميزانية المدارس القبطية بأسرها لا تتجاوز ٢٠١٥١٨ قرشا صاغا — فانه كان يكفيها تقريبا ، أو يكاد، بخلاف النفحات التى كانت يده الكريمة تدرّ بها عليهم، بين حين وحين .

فاذا حق لهم أن يدعوا الأنبا كيرلس الرابع بطريركهم "محيى العلوم والمدارس" فى أمتهم، حق لهم أيضا، بل وجب عليهم أن يدعوا (اسماعيل) "حافظ تلك العلوم والمدارس"، ويقيموا له تمثالا فى صحن مدرستهم الكبرى ، بدار البطريركية المرقصية، اعترافا منهم بفضله العميم !

(١) أنظر : "التعليم العام بمصر" لدور بك ص ٨٦

مدارس الأقباط الكاثوليك

(ب) الأقباط الكاثوليك

هؤلاء — بسبب اتصالهم بروما، وبالتالى، بجمعية انتشار الايمان الكاثوليكى المسماة "بروپاجندافيدى" صاحبة المدارس الجمة الشهيرة فى البلاد الشرقية — كانوا أسبق أخوانهم المصريين على الاطلاق، فى مضمار التعليم والتعلم، وأعرقهم فيه. وكانت مدارسهم الابتدائية والثانوية منتشرة، على الأخص، فى الصعيد، أى بأسيوط، وطهطا، واخميم، وجرجا، وقنا، ونقاده. وكانت حافلة فى سنة ١٨٧٦ بنيف وثلثمائة طالب.

والذى يستوقف الأنظار، فى المدارس الثلاث الأولى منها، أنها كانت مختلطة، أى للبنين والبنات معا. وهو أمر غريب فى ذاته، لشذوذه عن مبدأ فصل الذكور عن الإناث، المعمول به فى عموم مدارس الكثلكة على الاطلاق.

مدارس الروم الأورثوذكس

(ت) الروم الأورثوذكس

والكلام هنا على الرعايا المحليين — فقد أصبح لهم، فى عهد (اسماعيل)، مدرستان للبنات والبنين بمصر، يتعلم فى إحداهما ١٤٠ ولدا: اليونانية، والفرنساوية، والعربية، والحساب، والرياضة، والجغرافيا، والتاريخ؛ ونتعلم فى الأخرى ١٢٠ بنتا: اليونانية، والفرنساوية، والتاريخ، والجغرافيا، والحساب، وأشغال الابرة، والموسيقى؛ وأصبح لهم بالاسكندرية — وكان عددهم فيها يربو عليه فى مصر — مدرستان أيضا: واحدة للذكور، وواحدة للاناث، يؤم الأولى ٤٣٠ ولدا، ويؤم الثانية ٢٢٢ بنتا؛ وبين المتعلمين فيهما طلبة كثيرون من ملل أخرى، وكان برنامج التعليم فى كلتيهما ما كان فى مدرستى مصر.

مدارس الروم الكاثوليك

(ث) الروم الكاثوليك

تأخروا عن اخوانهم، الروم الأورثوذكس، فى هذا المضمار، وربما كان السبب فى ذلك قلة عددهم فى تلك الأيام، أو قلة ذوى اليسار بينهم، أو أنهم اكتفوا، دهرا، بمدارس الأخويات الكاثوليكية.

ومهما تكن الحال، فانه لم يكن لهم سوى مدرسة واحدة، فيها ثلاثون طالبا فقط، بالاسكندرية بمنشية ابراهيم باشا المعروفة اليوم "بالمنشية الصغرى"؛ وكان نصيبهم من الحركة التعليمية فى عهد (اسماعيل) ضئيلا جدا.

(ج) المـــوارنة

كان شأنهم أكبر قليلا من شأن الروم الكاثوليك. ولا ندرى هل السبب فى ذلك هو أنهم كانوا أكثر عددا منهم، أو أن أرباب اليسار فيهم كانوا أكثر منهم فى الروم الكاثوليك، أو لما اشتهر عنهم من جدّ ونشاط واقبال على العلوم والمعارف، أو أن المنافسة المشهورة بين الطائفتين تناولت مضمار التعليم أيضا — مهما يكن من الأمر، فانه كان للموارنة ثلاث مدارس ابتدائيـة بمصر: واحدة بدرب الجنينة؛ وثانية بقنطرة الدكة بالأزبكية؛ وثالثة بشبرا. والثلاث من نوع الكتاتيب البلدية، ولكنها كانت أرقى منها ماديا: لأن الطلبة كانوا يجلسون فيها على تخوت، بدل جلوسهم فوق حصير على الأرض، كما كانت الحال فى الكتاتيب.

مدارس الأرمن

(ح) الأرمن

لم يكن لهم سـوى مدرسة واحدة، فيها عشرون تلميذا. ولكنها كانت غريبة فى بابها؛ لأن ناظرها، وكان المعلم الوحيد فيها — الپاپاز، أى القس ميجرديتش — لم يكن يعرف غير الأرمنية، والعشرين تلميذا، المتثقفين على يديه، لم يكونوا يعرفون

غير العربية . فكان الأستاذ والتلامذة ، والحالة هذه ، يتفاهمون بالاشارات وتعبير العيون و (السيمياء) ، أكثر منهم بالتكلم والمحادثة . على أن البطريركية الارمنية أخذت تعمل على تأسيس مدرسة للطائفة جديرة بها، في دارها في سنة ١٨٧٢

مدارس اليهود

(خ) اليهـــود

هذه الأمة الصغيرة بعددها، الكبيرة بتأثيرها على ماجريات الأمور ، مافتئت ، على شرقيتها ، أوّل من تيقظت الى مقتضيات الأيام . فما رأت لواء العلم منشورا فى القطر، إلا وهبت للانضواء تحته ؛ وقام البررة من أبنائها كبنيامين أدزى، ومبارك ملكى، وابراهيم كوهين، وشموئيل أشير، و پروسپر أوزيما، وعلى الأخص صموئيل روبينو ، ينشئون الكتاتيب والمدارس بمصر والاسكندرية للأولاد والبنات ، ويعلمونهم فيها الايطالية على أصولها، والعبرية ، والفرنسية، والحساب، والتاريخ، والجغرافيا، والكزموجرافيا؛ ويعلمون المتقدّمين منهم التلمود — كتاب اليهود الشارح للتشريع شرحا يعتبر تشريعا جديدا ، وهو أعز عليهم من التوراة عينها — مرة فى الأسبوع .

وكانت سنّ التلامذة المندمجين فى تلك الكتاتيب والمدارس تختلف ما بين ثلاث سنين وست عشرة سنة .

على أن تلك المعاهد، ماعدا مدرسة حارة اليهود بمصر، المؤسسة فى سنة ١٨٦٠، بهمة صموئيل روبينو ، برأس مال قدره ألف جنيه ، تبرع به هذا السرى وحده ، كانت مشهورة بالقذارة الضاربة أطنابها فيها، أكثر منها بحسن التعليم وانتظام طرقه . فقامت الطائفة برمتها ، وتضافرت ، وأسست مدرستين حرتين لأولادها وبناتها ، إحداهما وهي أكبرهما بمصر، أمّها ١٧٥ طالبا؛ والثانية بالاسكندرية وأمّها ١٤٥

بنتا — وكان سبعون من الذكور، وسبعون من الاناث يهودا مصريين؛ والباقون يهودا من جنسيات مختلفة . وعلمتهم فيهما العبرية، والعربيـة ، والفرنساوية ، والايطالية، والخط، والحساب .

ثم أنشأت، بالاسكندرية، مدرسـة أخرى كان عشر التلامذة فيها مجانيين ، والباقون بمصروفات أسبوعية زهيدة . غير أن معظم أولاد اليهود وبناتهم كانوا يذهبون الى المدارس المنشأة من الغربيين ، أكثر من ذهابهم الى المدارس المؤسسة من طائفتهم . وبما أنهم كانوا يعتبرون العلوم محض أسلحة اجتماعية، لا يحتاجون اليها إلا ليضربوا بها فى معترك الحياة، كانوا يتسرعون فى اقتباسها، ويكتفون بقشور معظمها أو طلائها ، غير صارفين عنايتهم أو جلها إلا للحساب والحساب التجارى على الأخص، ويخرجون من المعاهد العلمية ، وهم فى أول يفعهم ، ببضاعة قليلة ، واعتداد بالنفس كبير، وجسارة أكبر، ليندفعوا فى ميادين العمل والكسب . فكنت لهذا السبب، قلما ترى بينهم فردا راقيا رقيا حقيقيا، على قلة عدد الأميين بينهم .

المدارس الغربية

٥ — المدارس التى أنشأتها الجاليات الغربية .

ان ما دار من حركة التعليم فى مدارس هـذه الجاليات ينقسم الى قسمين : قسم خاص بمعاهد الأخويات والرهبنات والارساليات المسيحية ، كاثوليكية كانت أم بروتستانتية؛ وقسم خاص بالمعاهد المدنية البحتة .

(ا) أما القسم الأول، فقد سبق لنا قول وجيز فيه، ولكنا نرى أن نوفيه، هنا، حقه ؛ فنقول : ان أقدم مدارس أنشأتها الرهبانيات المسيحية الكاثوليكية بالقطر هى مدارس الآباء الفرنسسكيين المعروفين بآباء الأرض المقدّسـة . وكانت تعلم الايطالية على الأخص، والتعليم المسيحي الدينى .

فلما كانت سنة ١٨٤٤، استدعى (محمد على الكبير) راهبات المحبة والآباء العازاريين الى الاسكندرية، ووهبهم محلا فخما، مكان برج عربى قديم . وأجاز لهم الانتفاع بأنقاضه لبناء المحلات اللازمة لهم، على أن ينشئوا مدرستين لأبناء المدينة . فقامت الراهبات بالشرط، وفتحن مدرسة للبنات، ما فتئت، مع تقادم الأيام، تكبر وتتسع حتى صارت الى ما نراها عليه الآن من الكمال والاتقان فى أول الشارع المدعو باسمهن "شارع السبع البنات" أو "شارع الراهبات"؛ وأصبح عدد المتعلمين والمتعلمات فيها على عهد (اسماعيل) نيفا وألفا وثلاثين؛ منهم ٨٨٠ بنتا و ١٥٠ ولدا؛ وكان (اسماعيل) يهبها، سنويا، إردبا من البرّ عن كل بنت تتعلم فيها .

وأما العازاريون فبنوا بيتا، وكنيسة، إزاء تلك المدرسة، وأحلوا الاهتمام بادارة دير الراهبات المذكورات محل الاهتمام بتربية الناشئة . ولكنهم ما لبثوا، أن رأوا أن عملهم هذا مخل بالشرط الذى اشترطه الوالى، وأن مثل ذلك الاخلال قد يؤدّى الى استعادته الموهوب اليهم منهم .

فاستدعوا إخوة التعليم المسيحى الشهيرين "بالفرير"، وكلفوهم ببناء مدرسة مجانية بالقرب من بيتهم . فلبى الفرير الدعوة؛ وأنشأوا المدرسة المطلوبة؛ وعاشوا مع العازاريين مدّة ست سنوات، باتفاق تام، وعلى غاية ما يرام من الوئام .

ثم تغيرت مجارى القلوب، وما لبث العازاريون إلا ورأوا، أو تخيلوا، افتياتا من الفرير على ما كانوا يعتقدونه حقوقا لهم، دون سواهم . فهبوا الى انشاء مدرسة خصيصة بهم؛ ولما تم بناءها، تقدّموا الى الفرير، وأفهموهم أن الضيافة لها حدود تقف عندها، ورجوهم أن يبحثوا لأنفسهم عن محل غير الذى هم فيه نازلون، وذلك فى أواخر سنة ١٨٥٢

لحار الفرير فى أمرهم، وتخبطوا؛ ولكنهم اضطروا الى الرحيل . فتقدّم اليهم آباء الأرض المقدّسة (الفرنشسكيون)، وعرضوا عليهم أن يضيفوهم فى المنازل الكبيرة المجاورة لكنيستهم الكاتدرائيــة الرعوية ، بمنشية ابراهيم باشا ؛ فقبلوا، شاكرين؛ ونقلوا مدرستهم الى تلك المنازل؛ وما عتمت أن اكتظت بالطلبة، لمـا اشتهر عنهم من الاعتناء الخاص بأمر التعليم .

فشجعهم ذلك على فتح مدرســة بالعاصمة فى ١٥ فبراير ســنة ١٨٥٤ فراجت ، أيضا ، رواجا عظيما . ولمـا كانت سنة ١٨٥٩ ، وهبهم (محمد سعيد باشا) محلهم الحالى بالخرنفش — فى أهم الأحياء الوطنية — ونفحهم بثلاثيــن ألف فرنك . فأدّى ذلك الى نجاحهم، النجاح الذى ما فتئ فى ازدياد مطرد، عاما عن عام، لغاية أيامنا هذه .

وكانت مدارسهم، فى عهد (اسمــاعيل) ، تضم بين جدرانها ، بالاسكندرية ، نيفا وستمائة طالب ، منهم ٢٣٠ مجانيون ؛ و بمصر، نيفا وثلثمائة طالب ، نصفهم مجانيون ؛ وكانت تعلم ، مع الفرنساوية ، الايطالية ، والعربية ، والموسيقى، وأهم العلوم الوضعية .

وكانت مصروفات الداخلية بمدرســة مصر مائة فرنك شهريا ؛ و بالاسكندرية ستين فرنكا؛ ومصروفات نصف الداخلية ٥٠ فرنكا شهريا بمصر، و٣٠ بالاسكندرية .

والذى كان يميز المجانية فى مدارسهم عنها فى مدارس الحكومة ، أنها كانت خصيصة بالطلبة الكاثوليكيين دون سواهم ، فى حال أنها كانت ، فى الحكومة ، عامة ، لا تميز للمذاهب فيها .

أما العازاريون ، فبعد أن انفصل الفرير عنهم، طفقوا يعلمون فى مدارسهم تعليما قاعدته الطريقة الشهيرة عند الغربيين باسم "كلاسيك" وهى التى قوامها اليونانية القديمة واللاتينية ، والآداب المقتبسة من مؤلفات أشهر الكتّاب اليونان واللاتين والفرنساويين؛ وأصبحوا يفاخرون ما سواهم بأن ما يتقنه طلبة مدرستهم من اليونانية القديمة لا تباريهم فيه طلبة مدارس أوروبا ذاتها . واشتركوا مع راهبات المحبة ، فى إنشاء ملجأ للأيتام — كان الأوّل من نوعه فى القطر المصرى — حوى اثنين وخمسين يتيما .

واقتدت براهبات المحبة القديسة تريزادى رمبت منشئة "أخوية الراعى الصالح"، وأسست بمصر فى ٦ يناير سنه ١٨٤٦ — وهو يوم عيد الغطاس عند الطوائف الغربية، وكان لغاية سنة ١٩٠٠ يوم عيد الميلاد عند الطوائف الشرقية — بيتا لراهباتها، ليقمن فيه بتربية البنات المصريات، وعلى الأخص اليتيمات والفقيرات منهن، مجانا . فبتن موضوع عناية (محمد على) وأمراء بيته الرفيع العماد .

فتمكن من التوسع، وفتح مدرسة نخمة، داخلية، بشبرا لبنات الأسرات الغنية، خلاف المدرسة الداخلية المجانية لرغبتهن فى المحافظة على شعور الفقيرات من أن ينجرحن باختلاطهن مع الغنيات ، ورؤيتهن الهناء فى الماديات المحيط بهذه والذى هنّ محرومات منه .

وحذت الراهبات الكلاريسات، أى الفرنشسكيات، حذو سابقاتهن؛ وأنشأن، فى سنة ١٨٥٩، مدرسة بمصر، بجهة درب رياش، بالقرب من الأزبكية؛ طفقن يعلمن فيها، بنات الطائفة اللاتينية على الأخص؛ وذلك لأن هذه الطائفة كانت ، ولا تزال، تحت رعوية الآباء الفرنشسكيين الروحية؛ وكان من الطبيعي أن ترسل

بناتها الى مدرستهنّ ، لانتمائهنّ ، هنّ أيضا ، الى مارى فرنسيس دسيزى ، مؤسس الرهبنة الفرنشسكية .

فضاقت المدرسة بالمائة والسبع والثلاثين طالبة ويتيمة اللائى ملأنها ؛ وحال فقر تلك الراهبات دون التوسع فيها أو انشاء غيرها . وكان (اسماعيل)، وهو لايزال ولى عهد السدّة المصرية ، واقفا على سر حالهنّ ، معجبا بغيرتهنّ واقدامهنّ . فلما آل اليه العرش ، نفحهنّ ، فى يوم جلوسه عليه ، بخمسين ألف فرنك ، وقرّر لهنّ تسعين إردبا قمحا ، سنويا . فتمكن بذلك من وفاء ديونهنّ ، وتوسيع دائرة مدرستهنّ بدرب رياش ، وفتح مدرسة أخرى ببولاق سنة ١٨٦٨ ثم غيرها بالمنصورة بعد أربع سنوات أى فى ٢٠ مارس سنة ١٨٧٢

ومع أن الغرض الأوّل المقصود من تأسيس هذه الرهبنات والأخويات مدارسها بالقطر المصرى ، انما كان ولا يزال السعى الى نشر الدين الكاثوليكى الرومانى ، إلا أن الانصاف يقضى علينا بأن نعترف مع المستر ماك كون بأنها عملت عملا محمودا على تقدّم العلوم فى البلاد ، وبين طبقات الأمة ؛ وأنها وضعت ، نصب عينها ، التعليم الجيد أوّلا ، ثم السعى الى نشر الدين . فكان فى هذا سرّ نجاحها ، وتوافد الطلبة عليها من كل ملة ونحلة وجنس ، وبلوغ عددهم فى مدارسها فى سنة ١٨٧٦ نيفا وثلاثة آلاف ومائة وخمسين ![1]

أما المدارس والمعاهد البروتستانتية ، فقامت على أيدى الارساليات الأميريكية والانجليزية والسكتلندية .

(١) أنظر : "مصر كما هي" لماك كون ص ٢٣٠

فالارسالية الأميريكية وفدت على القطر فى سـنة ١٨٥٥ كما سبق فقلنا ، ووهبها (سعيد باشا) بناية بمصر، أسست فيها أوّل مدرسة لها . فكانت بمثابة موقف وثبت منه الى أنحاء القطر ، عامة ، وأسست فى السنوات العشر التالية ، مدارس غيرها : بالاسكندرية ، والفيوم ، وأسيوط ، وقوص ، والمنصورة ، وفى ثلاثة عشر بندرا من بنادر الريف بمصر الوسطى والصعيد؛ منها ما هو للأولاد؛ ومنها ما هو للبنات؛ ومنها ما هو مختلط بين الجنسين؛ ومنها ما هو للشبان لتعلم اللاهوت ، والاستعداد للكهنوت؛ ومنها ماهو لتخريج معلمات؛ ومنها مدرسة أيضا ، للعميان؛ ومعظمها مجانية ؛وما فتئوا ينشئون غيرها ،حتى بلغ عددمدارسهم فىسنة ١٨٧٦ ثمانيا وعشرين . فيها ما يزيد على ١٢٤٤ طالبا وطالبة ، بينهم بعض مسلمين ومسلمات ، ومعظمهم من الأقباط !

وكانت مدرستهم الكبرى للصبيان بمصر، فى بادئ الأمر ، فى يد أقباط اعتنقوا البروتستانتية ، ولم يكونوا يحسنون الإدارة ولا التعليم : فكان كلاهما مختلا ، بخلاف مدرستى البنات ، فى حارة السقايين والأزبكية ، فانهما كانتا من خيرة معاهد ذلك العصر .

على أن أرض مدرسة الصبيان احتيج اليها للمنافع العمومية فى سـنة ١٨٧٦ فنزع (اسماعيل) ملكيتها من الارسالية مقابل ثمن دفعه اليها . ولم يكتف به ، بل عوّضها منها أرضا واسـعة فى أحسن بقعة من الأزبكية؛ ثم نفحها بسبعة آلاف جنيه لبناء مدرسة جديدة عليها ، تسع ١٥٠ طالبا ، وتشتمل على مساكن للعلمين وعائلاتهم (١) . فأنشئت المدرسة الفخمة الحالية ، المزدان بها حيّ الأزبكية؛ ولكنه لم يفتكر أحد

(١) أنظر : "مصر كما هى" لماك كون ص ٢٣١

فى وضع أى مظهر كان فيها يذكر الداخل اليها بأنها من نعم الخديو الفخيم صاحب اليد الذهبية !

والارسالية الانجليزية وفدت على القطر فى سنة ١٨٦٢ تحت رياسة الآنسة الأديبة المس واتلى، بنت رئيس أساقفة دبلين التى أوقفت حياتها وثروتها على تربية البنت المصرية، لا سيما الفلاحة . وأسست، فى السنة عينها، مدرسة مختلطة بمصر، صادفت من العناء أشدّه فى سبيل جلب التلميذات إليها، لا سيما المسلمات، وتعليمهنّ، بالرغم من أن التعليم كان مجانيا، وأنه كان يشمل العربية، والانجليزية، والفرنساوية، والجغرافيا، والتاريخ، والخط، وأشغال الابرة للبنات .

وإن القلب ليتقطع أسفا، لدى مطالعة وصف المس واتلى، فى الكتب التى ألفتها عن الحياة المصرية الحقيرة، للشاق التى تكبدتها بصبر جميل، وهى دائبة بثبات نادر على الطريق التى اختطتها(١) لحياتها ! ولكنه، لما كان لا بدّ للثابر من نيل مناه، فان المس واتلى ما لبثت أن جنت ثمرة ثباتها ؛ وبعد مضى عشر سنوات عليها، وهى عاملة فى مدرستها المذكورة، لا تعرف الملل، كلل النجاح مسعاها : فاستلأ معهدها بنيف ومائة وستين صبيا وستين بنتا، ضاقت بهم حجر فرقه .

فأنعم (اسماعيل) عليها بأرض واسعة، فى جهة الفجالة، وساعدها بمبلغ وفير على بناء مدرسة جديدة عليها . فبرزت من أحسن المدارس بالقطر . ولما كانت البنت المصرية هى المقصودة على الأخص، منها، زاد عدد الطالبات فيها، حتى بلغ المائة والستين، معظمهنّ فلاحات، والبعض من الطبقتين : الوسطى والعليا . ولا شك

(١) طالع : كتابى المس واتلى المعنونين : "رجد ليف إن إجبت"، و "أند مور أبوت رجد ليف إن إجبت" أى "حياة البؤساء بمصر"، وأيضا "عن حياة البؤساء بمصر" .

فى أنه كان لاهتمام الأميرة الجليلة زوجة (اسماعيل) الثالثة فى أمر تربية البنات وتعليمهنّ، دخل فى ازدياد إقبال الفتيات الراغبات فى التعلم .

أما الارسالية السكتلندية، فانها قصرت عملها على مدينة الاسكندرية، حيث فتحت بجانب كنيستها مدرستين : احداهما للذكور، والثانية للاناث فى المنشية، بجوار البحر، وجعلت التعليم فيهما مجانيا للفقراء . فأمهما ٩٥ تلميذا و٩٢ تلميذة، علموا العربية، والانجليزية، والفرنساوية، والايطالية، والكتابة، والحساب، والتاريخ .

وقد امتازت عموم مدارس الارساليات البروتستانتية، بالمساواة التامة، التى نشر لواؤها فيها بين الطلبة والطالبات المجانيين، والمتعلمين بمصروفات، بحيث لم يكن أحد ليستطيع أن يميز مطلقا أيهنّ المجانيات .

ويجدر بنا أن لا نختم الكلام عن معاهد هذه الارساليات دون أن نخص بالذكر رجال الدين الذين قاموا بتأسيس المدرسة الألمانية بالاسكندرية . فانهم على اصطباغهم بالصبغة الاكليروسية، فتحوا لمدرستهم هذه طريقا نحو الأهمية العظمى بين مدارس الارساليات الأخرى، بما قرروا من أن يكون التعليم فيها مدنيا بحتا، لا مسحة دينية عليه مطلقا .

(ب) وأما القسم الثانى الخاص بالمعاهد المدنية البحتة، فان السبب الذى دعا الجاليات الأجنبية الى إنشائه هو أن بعضها لم يكن مرتاحا لانحصار التعليم فى المعاهد الدينية . فقام الأخوان الحلبيان روفائيل وحنانيا عبيد[1] فى سنة ١٨٦٠ وأسسا

(١) وكانا — على أنهما سوريان — متجنسين بالجنسية اليونانية .

المدرسة اليونانية بمصر وآليا على نفسيهما دفع مبلغ يتراوح بين خمســة وعشرين ألفا وثلاثين ألفا من الفرنكات سنويا للمساعدة على القيام بشؤونهـا . فأمّها الطلبة من أولاد الجاليــة اليونانية ، يتعلمون فيها اليونانية القديمة ، واليونانيــة الحديثة ، والايطالية ، والفرنساوية ، والعربية ، والحساب ، والجغرافيا ، والتاريخ ، ويتغدّون فيها على نفقتها .

ولمـا كان اليونان بالاسكندرية أكثر منهم بمصر ، أسسوا مدرسة تحت إدارة رجل يقال له المسيو تمباس ضمت اليها ٥١ تلميذا ، وعلم فيها فوق ما ذكر من تعليم مدرسة الأخوين عبيد ، التاريخ المقدّس ، ومبادئ الاعتقادات المسيحية . ثم هب الكيريس عمانوئيل ساماريبا ، وأسس مدرسة أخرى يونانية جمع فيها ٢٨ تلميذا ، يعلمهم خمسة أساتذة التعليم عينه السابق ذكره .

ولم يهمل اليونان تعليم البنات ، بل سبقوا اليه الجاليات الأخرى ، لأنهم أنشأوا فى ٢٠ مايو ســنة ١٨٤٣ ، أوّل مدرســة من هذا النوع بالعـاصمة ؛ ثم أسسوا بالاسكندرية ، مدرســة ثانية للبنات ، انتظم فى سلكها ، حالا ، ما يزيد على خمس وتسعين طالبة .

وهبَّ ايطالى ، يقال له المسيو كرلو تمازى ، فأنشأ مدرسة ايطالية بمصر ، قصدها أولاد الجالية الايطالية ؛ ولكنها ضاقت دون عددهم رحبا . ولم يتمكن أولاد الفقراء من الانتظام فيها لعدم مقدرتهم على دفع مصروفاتها .

فنهض المسيو فيجرى ، وأنشأ فى سنة ١٨٧٠ مدرسة ايطالية مجانية ، أهم ما امتازت به عن سواها ، أنهم كانوا يمرّنون الطلبة فيها على الترجمة من الفرنساوية الى التليانية والعربية ، وبالعكس ، فى آن واحد ، وشفويا على مسمع من الفرقة برمتها : فتتربى ،

عنـد التلامذة ، المقدرة على تحويل الفكر ، بسرعة ، من احدى هـذه اللغات الى الأخرى ، وعلى ابرازه مرتديا بالحلة التى تقتضيها طبيعة كل منها .

غير ان أهم عمل تعليمى قامت به الجاليات الأجنبية بمصر ، هو الذي تم بمساعى المسيو دوفين ومجهوداته ، وأعنى به انشاء معاهد تعليمية مجانية ، لا صبغة جنسـية أو دينية عليها ، ولا غرض منها سوى تثقيف العقول ، وتنوير الأذهان ، وتخفيف عبء مشقات الحياة على العاملين فى ميدانها ، دعيت "المدارس الحرّة المجانية العمومية" .

ففى أوّل سبتمبر سنة ١٨٦٨ ، فتحت مدرسة هذا شأنها فى الاسكندرية ، ولكى يكون النجاح قرين سيرها ، وامتثالا لرغبة (اسماعيل) ، الذى كان أكبر معضد للقائمين بأمرها ، وضعت تحت رعاية سموّ ولى عهده ، الأمير محمد توفيق باشا — وكان له من العمر ، حينذاك ، ست عشرة سـنة ، فقط — فخصها باثنى عشر ألف فرنك سنويا ، وحفها بكل صنوف العناية . فبرزت الى الوجود ، علمية ، حرفية ، عروس المدارس وأفيدها ، وأمها القاصدون من كل مذهب وجنس ، وليس فيها مظهر البتة يذكر أحدهم بأن هناك فارقا بينه وبين الجالس بجانبه ، بل يشعر الجميع بأنهم إخوة فى الانسانية المحضة ، وأن هذه الإخوة هى الرابطة الوحيدة بينهم . وشرعوا يتعلمون فيها العربية ، والانجليزية ، والفرنساوية ، والتليانية ، ومبادئ الرياضة ، والهندسة ، والتاريخ ، ويتعلم من شاء منهم الحرفة التى يختارها . فنجحت نجاحا عظيما ، ذهب مداه الى أبعد ممـا كان ينتظر ويرجى . ومن شاء الوقوف على حقيقته ، فليطالع التقرير الذى رفعـه مجلس ادارتها الى سموّ الأمير محمد توفيق باشا ، الموجود نسخة مطبوعة منه فى المكتبة السلطانية بمصر[١] .

(١) دار الكتب المصرية .

ذلك النجاح السارّ حدا بالمسيو دوفين وزمرة الرجال الكرام العواطف ، الذين وضعوا أيديهم فى يده، الى انشاء مدرسة مثلها بمصر . فتأسست فى سـنة ١٨٧٣ ، بمساعدة مالية كبرى من (اسماعيل)، وتحت رعاية سموّ ولى عهده، أيضا، وبالنفحات السنوية عينها التى لشقيقتها بالاسكندرية . وفى الوقت الذى لم يقصد فيـه هذه سوى ٢٥٦ طالبا — منهم ٩٠ فقط مصريون — قصد مدرسة مصر وانتظم فى سلكها ٤٨٦ طالبا — منهم ٢٦٢ مصريون، من كل ملة وطائفة ونحلة، و١٥ انجليزيا ، و٦٢ فرنساويا، و٧٣ ايطاليا، و٢٦ يونانيا، و٢١ نمساويا، و٥ بروسيان، و٣ أتراك، و٣ روس، و٣ اسبانيول، و١٣ من جنسيات غير محددة — ويتضح من الأرقام التى ذكرناها أن نجاح مدرسة مصر كان أعظم من نجاح مدرسة الاسكندرية .

ولم يقتصر المسيو دوفين ومساعدوه على فكرة انشاء هاتين المدرستين، بل انهم، منذ استطعموا لذة نجاح مسعاهم ، وقطفوا ثمـاره بالاسكندرية ، هبّوا، فى عامى ١٨٦٩و١٨٧٠ الى فتح فرق ليلية، لتعليم الشبان والرجال بالثغر، وساعدهم(اسماعيل) مساعدته المعهودة . فأخرجوا مشروعهم الى حيز الوجود، واندمج فى سلك تلك الفرق ٤٥٠ طالبا، منهم ٢٧٣ من رعايا الحكومة المحلية .

هكذا تناولت الحركة التعليمية بمصر، فى عهد (اسماعيل) ، جميع المظاهر، من التعليم الدينى المحض فى المعاهد الدينية المحضة، كالأزهر وغيره، الى التعليم ، المتخذ دثارا لترويج التعليم الدينى، فى معاهد الارساليات المسيحية، الى التعليم الممزوج بشئ من الدين، عملا بمؤثرات الوسط والبيئة، فى مدارس الطوائف الشرقيـة المختلفة ، ومدارس الجالية اليونانيـة ، الى التعليم المدنى البحت الخاص بجنس دون جنس ، فى مدارس الجالية التليانية ، الى التعليم المدنى البحت ، المجرد عن كل صبغة دينية

وجنسية، في المعاهد المنشأة بمساعي المسيو دوفين ومن معه . وفي ذلك أوضح صورة لما كانت عليه الأفكار والأخلاق في تلك الأيام، وأكبر دليل على سعة صدر (اسماعيل) ورجحان عقله العظيم، في أمر قلما اتفق لعاهل شرقي، غيره، أن لا يبدي فيه تعصبا لهذا الفريق أو ذاك .

ولا يسعنا أن نختم هذا الفصل عن حركة التعليم بمصر، في أيامه، بدون أن نذكر ما لاقت من عنايته المدرسة التي أنشأتها الحكومة الايطالية بالاسكندرية في عهد (سعيد باشا) وتولت أمر الانفاق عليها، وبدون أن نذكر ما كان من شأن الارساليات المدرسية الى البلاد الأوروبية ما بين سنه ١٨٦٣ وسنه ١٨٧٩ .

أما مدرسة الحكومة الايطالية بالإسكندرية، فقد سبق لنا القول أن (سعيدا) نفحها بستين ألف فرنك، ووهبها ثمانية آلاف ذراع في نقطة من أحسن جهات المدينة . ونقول الآن ان حركة التحسينات ، التي أدخلها (اسماعيل) على أحياء الاسكندرية وشوارعها ، اقتضت نزع ملكية جزء من تلك الأرض . فبالنسبة للصداقة المتينة التي كانت بين (اسماعيل) وڤيكتور عمانوئيل، ملك ايطاليا، ولتقدير العاهل المصري التعليم الملقن في تلك المدرسة حق قدره، دفع للحكومة الايطالية ثمن ذلك الجزء وحده أربعين ألف جنيه . فاستعانت بها على تجديد بناء مدرستها، وترقية شؤونها ، وعهدت بادارتها الى أستاذ فاضل ، يقال له السنيور باجاني ، كان رأى دور بك فيه ، « انه أخبر نظار المدارس بمصر بمبادئ البيداجوجيا ، وأحكمهم تطبيقا لأحدث طرق التعليم على مقتضياته بالقطر في تلك الأيام » .

وكانت تلك المدرسة تعلم الايطالية ، والعربية ، والانجليزية لمن يرغب فيها ، والفرنساوية ، والرياضيات ، ومسك الدفاتر ، والفلسفة الطبيعية ، والتاريخ ،

والجغرافيا، والرسم على نوعيه . وكان معظم تلامذتها من اليهود ، وليس بينهم سوى عشرين تلميذا مسلما .

الإرساليات المدرسية

وأما ما كان من شأن الارساليات المدرسـية ، الى البلاد الأوروبية ما بين سـنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٧٩ فقد بلغ عدد الطلبة الذين تألفت منهم نيفا ومائة واثنين وسبعين وزعوا كالآتى : مائة وعشرون أرسلوا الى مدرسة الطب والمدرسة الحربية ، بباريس ؛ وخمسون ، الى مدارس طورينو العسكرية والملكية ؛ وثلاثة فقط ، الى مدارس لندن الهندسية . و بلغ المنفق عليهم فى تلك السنوات الست عشرة ١٦٣٠٥٧ جنيها .

فمن شاء أن يقارن بين ما عمل فى هذا المضمار فى عهد (اسمـاعيل) ، وما عمل فى عهد أسلافه ، فليعلم أن عدد طلبة الارساليات المصرية الى أوروبا بلغ فى مدّة حكم (محمد على الكبير) و (ابراهيم الهمام) أى ما بين سنة ١٨١٦ وسـنة ١٨٤٨ : ٣١٩ طالبا ؛ وفى مدّة حكم (عباس) ، أى ما بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥٣ : ١٩ طالبا ؛ وفى أيام (سعيد) ، أى ما بين سنة ١٨٥٤ وسنة ١٨٦٢ : ١٤ طالبا فقط ؛ وأن جملة ما أنفق عليهـم قد بلغ فى عهدى الباشا الكبير وابنه ٢٢٣٢٣٣ جنيها ؛ وفى عهـد (عباس) ٤٩٦٧٥ جنيها ؛ وفى أيام (سعيد) ٦٩٠٨٣ جنيها .

فاذا وجد قلة نسبية فى المنصرف على أولئك الطلبة تحت حكم (اسماعيل) بالنسبة الى المنصرف عليهم تحت حكم (سعيد) ، فليعلم أن ذلك لسببين :

(الأوّل) هو أن (سعيدا) لم يكن ، من جهة ، يعرف للنقود من قيمة ، كما سبق لنـا القول ؛ وكان ، من جهة أخرى ، كأسلافه ، يعتقد أنه كلما زاد انفاقه على طلبة ارساليته ، كلما حق له أن يطالبهم ، لدى عودتهم ، بمعرفة كل فنّ وحرفة ، لا بمعرفة ما تخصصوا له وأتقنوه فقط .

و(الثاني) هو أنه اتضح (لاسماعيل) أن طلبة الارساليات ، بالرغم من بقائهم زمنا في المعاهد الأوروبية، واقتباسهم العلوم المعلمة فيها، وإتقانهم إياها، في أغلب الأحيان ، اتقانا يجعلهم متفوّقين ، في مضمارها النظرى ، على أقرانهم الغربيين ، لم يكونوا يكتسبون إقدام هؤلاء، ولا روح الاعتماد على النفس، المتقوية به هممهم في معاركة مصاعب الحياة؛ بل كانوا لا ينفكون متمسكين بأذيال الحكومة، متنكبين عن العمل في ميدان الاستقلال الشخصى ، إلا اذا أخذت هي بيدهم . من ذلك أن الأطباء المصريين الذين تخرّجوا من مدرسة باريس لغاية سنة ١٨٧٠ بالرغم من نيلهم شهاداتهم العليا فيها، وتمرّنهم على العمل، تمرّنا مفيدا، في المستشفيات العسكرية والملكية، أثناء الحرب المشهورة بين فرنسا وألمانيا، لم يقع في خلدهم، مطلقا، لدى عودتهم الى مصر، أن يفتحوا عيادات خصوصية ، ويزاحموا زملاءهم الغربيين في أعمالهم، مزاحمة، كان من المحتم أن يفوزوا عليهم فيها ، لكونهم أبناء البلاد ، العارفين لغتها وعوائدها ، والمتخلقين بأخلاقها ، ولأنهم أقرب ، طبعا ، الى قلوب مواطنيهم من أولئك الأجانب؛ وأقبلوا يضايقون الحكومة بطلبات استخدام متتابعة ، في مصالحها، كأنهم لا يستطيعون، بدونها، معاشا؛ أوكأنه لا قدرة لهم، ولا سلاح في أيديهم يضربون به في مناكب الأرض، ابتغاء للرزق!

فرأى ، والحالة هذه ، أن يقلل من مصروفاتهم ، عسى أن تجبرهم قلة السعة في الانفاق على التخلق بخلق الهمة والإقدام .

وامتاز عهده عن عهد أسلافه، في أمر طلبة تلك الارساليات، بأنه كان ، اذا استخدم أحدا منهم في مصالح حكومته ، بعد عودته الى مصر، فانما كان يعهد اليه القيام بشؤون من النوع الذي تؤهله شهاداته للقيام به . وأما أسلافه ، فقلما

كانوا يراعون ذلك . وكثيرا ما نطالع فى ما كتبه مؤرّخو (محمد على) الغربيون أنه كان يكلف المهندس، مثلا ، بأعمال من اختصاصات طبيب بيطرى، أو يكلف الطبيب البيطرى بعمل طاه من الطهاة، وهلم جرّا .

حكاية ما وقع لبعض العائدين من طلبة الإرساليات العلمية الى أوروبا مع (عباس الأوّل)

وقد سمعت من صديق لى ، نقلا عن لسان عثمان باشا غالب — ولست أضمن صحة الرواية، بل أرانى بمـا لدىّ من المعلومات التاريخية ، مائلا الى تكذيبها — أنه لمـا عاد الى مصر ثلاثة من الذين أتموا دروسهم بأوروبا، ونبغوا فيهـا — وهم من أصبحوا فيما بعد، على باشا ابراهيم ، وعلى باشا مبارك ، وحماد بك ، ومثلوا بين يدى (عباس)، ليقدّموا له واجب عبوديتهم، ويضعوا أنفسهم تحت تصرفه، كان فكره منصرفا الى انشاء معمل شمع ؛ فسألهم : «أيمكنكم أن تصنعوا لى شمعا؟» فأجابوا : «اننا، يا أفندينا، لم نتعلم ذلك!» ؛ فاحتدم غيظا وقال : «انى، اذا، لقد أنفقت نقودى على تعليمكم سدى!»، وأمر بهم، فطرحوا أرضا، وضربوا خمسين سوطا . فخرجوا من لدنه فى حال انفعال لا مزيد عليه،وهم ناقمون على عقله وعقليته،ولاعنون الساعة التى عادوا فيها من أوروبا[1] . وانمـا أرانى مائلا الى تكذيب هـذه الرواية : (أولا) لأنى لست أرى لها من أثر فى مرويات على مبارك باشا عن نفسه ؛ و(ثانيا) لأنى أعلم حق العلم أن حماد بك تعلم فى أوروبا كيف يصنع الشمع ، فيما تعلمه فى دروسه الكيماوية !

تلك كانت الحركة التعليمية بمصر، فى عهد (اسماعيل) ، وتلك المجهودات التى بذلت لترقية مستوى الأمة العقلى، حتى أصبح عدد المتعلمين فيها ٤٫/٠ من عامة

(١) روى لى هذه الرواية صديق الأستاذ الشيخ مرسى محمود المحامى ، بكيفيته النكتية اللطيفة . ولكنه ، مثلى ، يميل الى عدم تصديقها .

ذكورها، بعد أن كان أقل من واحد فى المـائة منهم؛ وذلك فى عهد كانت أرقى نسبة المتعلمين فى أكثر البلاد الأوروبية تعليما ١٥٪ فقط، وكانت فى روسيا ٢٪ لا غير!

فلا غرابة اذا أن ادون دى ليون، المؤرخ الأمريكى المعاصر لهـا، قال عنها: «ان ما عمله (اسماعيل) فى سبيل التعليم العام بمصر كان عظيما، و يعتبر عظيما فى أى قطر من الأقطار!»[1] ولا غرابة فى بلوغ الأشعة المنبعثة عنها الى سر أعماق الأمة، وأكن مكنوناتها — وأبناء الخديو أنفسهم كانوا يتعلمون، مع أبنائها، ذات العلوم الملقنة اليهم، ويشاركونهم فى جميع مظاهر حياتهم؛ لا يختلفون عنهم فى شئ منهـا، ولا يمتازون إلا بنومهم فى حجر مخصوصة، وقد أثار ذلك رغبة التعلم فى جميع أفراد طبقاتها، الى حدّ أن رجلين من عامة الناس ودّا الالتحاق بالأزهر، فلما رأيا من فقرهما المدقع ما يحول دون إدراك مبتغاهما، اتفقا على أن أحدهما يشتغل نهارا فى تكسير الحجر الذى تبلط به الشوارع، وأن ثانيهما يجاور فى الأزهر، ليقتبس مايلق فيه من علوم؛ وأنهما يجتمعان بعد المغيب فى الحجرة التى استأجراها معا؛ فيطعم مكسر الحجر مقتبس العلم ممـا كسبت يداه؛ ويغذى مقتبس العلم مكسر الحجر ممـا اكتنزه عقله. فتيسر لهما، هكذا، أن يدركا، معا، ما ابتغيا ادراكه، كما تيسر نيل القوت للأعمى والمقعد، فيما يروى عنهما، اذ سارت رجلا الضرير بالمقعد، وأرشدت عينا المقعد الضرير الى السبيل السوى[2].

ولا غرابة — وقد رأينا (اسماعيل) يظلل، بعنايته فى التعليم، جميع القائمين بشؤونه، بلا تمييز بين جنس ومذهب ودين — فى أن تلك الحركة التعليمية، المتنوعة المسالك

(١) أنظر: "مصر الخديوى" لادون دى ليون ص ١٦٠

(٢) أنظر: "مصر" لمـالورتى ص ١٠٤

والمشارب، والمتحدة المرمى والمقصود والنتيجة، فيما يختص بالعلوم، أدّت مع تراخي الزمن، الى إزالة جزء عظيم من الفوارق، التي كانت بين الملل، والنحل، والأجناس المختلفة، الضاربة في وادي النيــل؛ وجعلت الصدور أوسع احتمالا للاختلافات المذهبية، والقلوب أقرب جدّا، ممـا كانت، الى التسامح في الدين. وهمـا احتمال وتسامح، لن تستطيع أمة، تختلف معتقدات أفرادها، من التكوّن بدونهما!

نهضة في المعارف والافكار

ولا غرابة أخيرا أن يكون قد تولد، عن تلك الحركة التعليمية، نهضة معارف وأفكار كانت من أكبر مسببات تطوّرات المستقبل، ومن أدعى مكوّنات نظامات الأيام التالية.

نعم، ان مثلها كان قد نشأ، أيضا، عن جهود (محمد علي الكبير) التعليمية، وإرسالياته المدرسية إلى أوروبا — ولكنها، من جهة، كانت فردية أكثر منهـا اجتماعية. فلم تؤثر في مجموع الأمة إلا قليلا، ولا تناولت طبقاتها الدنية؛ ومن جهة أخرى، فإن ملكي (عباس) و(سـعيد) كانا قد أوقفاها في تطوّرها، وأعاداها الى الجمود؛ ولولا إقدام (اسماعيل)، لظل الأفراد القليلون المتخلفون بعد موت من كانت أنفاس تلك النهضة قائمة به، في ظل النسيان، في أية جهة كانت من جهات القطر المعاد الى النوم.

مظاهر هذه النهضة

لتلك النهضة الإسماعيلية، ثلاثة مظاهر: (١) المظهر الرسمي؛ (٢) المظهر الفردي؛ (٣) المظهر الاجتماعي[١].

---

(١) أهم مصادر هذا الجزء من هذا الفصل: "تاريخ آداب اللغة العربية"، و"تاريخ مصر الحديث" لجورجي بك زيدان، و"تاريخ التمدن الاسلامي" له أيضا.

المظهر الرسمى

أما المظهر الرسمى، فقد تجلى، على الأخص، فيما بذلته الحكومة من مجهودات، لاعادة الاتصال بين حلقات تاريخ مصر فى القدم، وتاريخها فى الأعصر الوسطى، وتاريخها فى الأيام الحالية .

أما الاتصال بين تاريخها القديم، وتاريخها فى الأعصر الوسطى، فان المسيحية، أولا، فالاسلام كانا قد قطعاه بتاتا، على توالى القرون، بما حملا مصر الفرعونية والبطليموسية على الاقلاع عنه من دين، ومعتقدات، ولغة وعادات، وعقلية سابقة .

وأما الاتصال بين تاريخها فى الأعصر الوسطى، وتاريخها الحالى، فقد قضت عليه قضاء مبرما، قرون الحكم العثمانى الثلاثة على وادى النيل . فبتأسيس مدرسة للاچپتولوچيا (علم الآثار المصرية)، أولا، ثم بانشاء المتحف المصرى، أعيد الاتصال الأول؛ وبانشاء المكتبة الخديوية، وتزيين قاعاتها بكل ما أمكن العثور عليه من مكتوبات مصر الاسلامية فى الأعصر الوسطى — أعصر الخلفاء الراشدين، والأمويين والعباسيين؛ أعصر الطولونيين والأخشيديين؛ أعصر الفاطميين والأيوبيين، وأعصر السلاطين المماليك البحريين والبرچيين؛ ثم كل ما أمكن العثور عليه، أيضا، من مكتوبات القرون العثمانية؛ وبانشاء دار الآثار العربية، أعيد الاتصال الثانى .

مدرسة الاچپتولوچيا

أما مدرسة الاچپتولوچيا — والاچپتولوچيا علم نشأ فى العالم الغربى، عقيب العثور على الأثر القديم المعروف "بحجر رشيد"، وتمكن شمپوليون من فك طلاسمه الهيروغليفية، والتوصل الى معرفة هذه اللغة المقدسة المصرية القديمة، المنقوش بعلاماتها ورسومها التاريخ الفرعونى برمته، على آثار العهد العتيق وتشييداته — فقد

عهد بادارتها ، وتعلم الطلبة فيها ، الى العالم الألمـانى بروجش — وكان من فحول رجال الفن ، وله فيه المؤلفات الشيقة الممتعة — فما زال بالطلبة المتعلمين على يده ، حتى أوجد فيهم روح الاهتمام بالمـاضى المصرى السحيق ، بالرغم من الهاوية التى حفرتها العقائد بين عقليتهم ، وعقلية أجدادهم البعيدين ؛ وحتى تمكن من انشاء قنطرة على تلك الهاوية ، بين عصر الفراعنة وعصر (اسماعيل) . وأشهر من نبغ من تلامذته ، العالم الاجيتولوجى الوديع أحمد بك كمال . وأهم ما ينتج عن اشتغال طلبته فى حل الكتابات الهيروغليفية زوال نفور مصريى اليوم المسلمين والكتابيين ، بالتدريج ، من قومية مصريى عصور الوثنية ، وتاريخهم وأعمالهم ؛ والاقبال شيئا فشيئا ، على مطالعة أخبارهم ، والاعتبار بآثارهم ، والدنو من الحنو اليهم ، والتفاخر بهم ؛ بالرغم من مؤثرات المعتقدات . « واذا لم يكن للأمة مجد سالف وأثر باق ، فلا تدوم سلطتها ولا تتأصل حضارتها ! » .

المتحف المصرى

وأما المتحف المصرى ، فقد عهد (اسماعيل) بابرازه الى حيز الوجود ، الى الفرنساوى الشهم الكبير ، ماريت باشا ، ووضع تحت تصرفه العمال والنقود على قدر مايريد .

وكان الرجل من فطاحل المشتغلين بالعـلم الاجيتولوجى ، ومن المغرمين بكشف النقاب ، وإماطة اللثـام عما درس أو توارى من المفاخر المصرية القديمة ، غراما يجمع الى ذاته قوى النفس ، ويحصرها فيها ؛ فما زال ينقب ويبحث هنا ، وهناك ، تحت الرمال ، وفى كهوف الجبال — لا سيما حيث كانت "منف" القديمة — حتى تسنى له ، فى سنة ١٨٥١ اكتشاف "السيرابيم" أى معبد الاله "سيراپيس" واذا فيه قبور ٦٤ عجلا من العجول المعروفة باسم "أپيس" دفنت هناك ، من القرن السابع عشر قبل المسيح ، لغاية القرن الأوّل بعده ؛ وتسني له العثور فى ذلك المكان ، على

كتابات تثبت أن الديانة المصرية القديمة إنما آلت فى نهاية أمرها ، الى التثليث والتوحيد، على فرض أنها كانت فى البدء اشتراكية — فأوزيريس هو الاله الأكبر ومبدع كل الكائنات ؛ وأپيس تجسد فى عجلة أصبحت أمًّا ، وهى لا تزال عذراء، بفعل پتاه، روح القدس . وعليه فأوزيريس وأپيس وپتاه ثلاثة أقانيم فى إله واحد، أوزيريس يقيم فى السماء ؛ وأپيس يعيش على الأرض ، ولا بد له عند بلوغه ستا محدّدا من الموت موتا عنيفا ، على أنه يقوم بعد ذلك من بين الأموات ويصعد الى السماء ليقيم فى حضن أبيه باسم سيراپيس ؛ وپتاه روحهما المرفرف بينهما — ثم تسنى له اكتشاف نيف وألفى أبى هول ، وما يقرب من خمسة آلاف تمثال ونقش خلاف ثمانية تماثيل فى منتهى الجسامة ، تعدّ ، من جهة كبرها ، معجزة فن الحفر المصرى . فكان والحالة هذه ، خير من يعهد اليه إبراز المتحف المرغوب فيه . وما لبث أن دل نجاحه الباهر، على أن القوس إنما أعطيت باريها .

فانه أقدم بهمة لا تعرف الملل، وشجاعة لا تبالى بالأخطار، على جمع ما لم يكن يتيسر جمعه لغيره . لم يجز علمه ، من نفائس الآثار القديمة ، حتى كوّن فى بولاق متحفا لا مثيل له فى العالم ، ادّخر فيه من الذخائر والأعلاق، والأصنام، والتماثيل، والمكتوبات البردية ، والنقوش ، ومومیات كبار الفراعنة ؛ ما لا يعرف له قيمة ، ولا يمكن لكنوز الدنيا بأسرها مشتراه، ولو بذلت فى سبيل ذلك بالتدقيق — ومعرفة أحمد عرابى باشا هذا هو الذى حمله أيام أن آلت اليه الدكتاتورية بمصر، على الرغبة فى بيع ذلك المتحف دفعة واحدة ، ليسدّد الديون المصرية الرسمية كلها بما يدفع له من ثمن فيه [1] .

(١) أنظر : "مصر الأخيرة" للبيك ص ٨١

ولا مشاحة فان قيـام الحكومة المصرية بالبحث عن آثار حياة البـلاد المنقضية قبل ظهور المسيحية والاسـلام . والتنقيب عليها، واكتنازها وإجلالها، وإقدام (اسماعيل) كثيراً على دعوة ذوى المنزلة الرفيعة من زائريه، خمسة خمسة، وستة ستة، الى تناول الطعام معه فى سركوفاج (نادى) من السركوفاجات المكتشفة مع وقوف الأهالى على ما كان يبدو من السائحين الغربيين القادمين الى بلادهم من الاهتمام بزيارة التشييدات الفرعونية والبطليموسية، زيارة تدقيقية؛ واقتناء ولو القليل والتافه، من آثار أولئك العواهل بأثمان باهظة، كل ذلك أدّى الى تيقظ عدّة عوامل فى القلوب لم يكن لها فى الأجيال السابقة من أثر :

(أولها) الاهتمام باقتناء أى شئ يكون من تلك الآثار، لبيعه بثمن يرضى النفس الى الراغبين فيه من أولئك الأجانب؛ والمزاحمة على ذلك الاقتناء مزاحمة شديدة، يدل عليها ما يقصه الكونت لبيك عن الرجل الذى اغتصب من ولدى مهزار قردا ذهبيا من أبدع المصنوعات واختص به بعد أن أشبعهما ضربا[1] .

(ثانيها) الاجتهاد فى تقليد تلك الآثار تقليدا متقنا، عند عدم التمكن من العثور على الصحيح منها، كما فعل بعضهم فى الأقصر: فانه اشترى من أحد السائحين الفرنساويين، بمبلغ مائة فرنك كتابا فيه خراطيش الفراعنة المختلفة، وشرع يصنع جعرانات وينقش عليها ما يشاء من تلك الخراطيش، نقشا جميلا، ويبيعها كأنها صحيحة وقديمة، بأثمان عالية لذات الخبيرين بها، ومن ضمنهم عالم ألمـانى اجيبتولوچى مشهور، وهم لا يفقهون الى التقليد، ويظنون، لا سيما ذلك العالم، أنهم بحيازتهم لها، إنمـا حازوا يتيمات يفاخرون بها مزاحميهم عليها[2] ؛

(١) أنظر : ''مصر الأخيرة'' للبيك ص ٢٦٨ و ٢٦٩

(٢) أنظر : ''مصر الأخيرة'' للبيك ص ٢٦٤ و ٢٦٥

(ثالثها) نظر العامة نفسها نظر الاكبار، والاجلال، والتعظيم، الى بقايا ذلك الماضي الخصيب المجيدة؛ وتحولهم، شيئا فشيئا عن شعور الاحتقار، الذى كان متأصلا فى قلوبهم لأهل تلك العصور، المدعوة عندهم "كفرية" لرغبتهم فى الدلالة على مبلغ ازدرائهم إياها .

غير أن هذا التحول كان بطيئا؛ وكثيرا ما كان يقع للعملة أنفسهم المشتغلين تحت إدارة ماريت باشا أن يبدوا امتنانهم لنفس بقايا من كانوا ملوك أجدادهم فى سالف الأيام .

لطيفة لموميا فرعونية

فيروى من هذا القبيل أن ماريت باشا لما عثر على مومياء الفرعون "مرى إن را" من الأسرة السادسة، فى جهة إهرام دهشور، كلف بعض أولئك العملة بنقلها الى متحف بولاق؛ ولما كان لا بد لهم من الذهاب بها، فى بادئ الأمر، الى البدرشين، لاستقلال القطار الحديدى فى محطتها، لم يجدوا طريقة لاجتياز المسافة بين المكانين خيرا من وضع جثة ذلك الفرعون على ظهر حمار، عرضا، وسوق الحيوان بها، وأطرافها متدلية من كلا جانبيه بشكل مهين — ولما بلغوا بها محطة البدرشين، وأرادوا أن «يخلصوا» عليها، ليسافروا بها الى بولاق، وقع ناظر تلك المحطة فى حيرة عميقة، لأنه لم يكن قد سمع بكلمة "مومياء" فى عمره؛ فلم يعرف ما هى حينما سموها له . ولم يجد لها تسعيرة، بل ولا ذكرا ضمن الأشياء التى تشحن الواردة فى تعريفته . أخيرا قطع لهم جميعا تذاكر فى الدرجة الأولى، واعتبر مومياهم فردا منهم . فلما وصل بها حاملوها الى كوبرى بولاق وأرادوا أن يجتازوه بها أوقفهم رجال الدخولية، ليحصلوا منهم رسما عليها . ولكنهم لم يدروا ما هى، ولا فى أى صنف

من الأصناف تقع، حتى فتح الله على أحدهم، فقال : « ألا ترون أنها فسيخة ؟ » فقال رفاقه : « حقا ! هى فسيخة ! »، وأخذوا عليها مكس فسيخة[1] !

فلتنفخ العظمة البشرية، أية كانت بعد ذا، أوداجها ! فما أحراها بالدرس الذى ألقاه المسيو ماسبيرو خلف ماريت باشا على الأمير الألمانى الصغير والمتغطرس غطرسة إمبراطورية، افتخارا يحسبه البالغ من السنّ حوالى المائة والخمسين عاما، أمام موميا ذلك الفرعون الراقدة عليها آلاف السنين ! إذ قص عليه ما أصابها من امتهان، لا فى بلاد غريبة، يعذر فيها الناس على جهلهم إياها، بل فى البلاد ذاتها، التى كان صاحبها حاكمها المطلق، حيث كانت الجباه تعنو لجلاله، والقلوب، قبل الأبصار، توجف خشوعا لهيبته، والركب تخر أمامه ساجدة ! وعلى أيدى أحقر الملأ من سلالة أولئك الخاشعين الساجدين !

خنزير ماريت

وربما كان للخنزير الذى كان أليف ماريت باشا فى مسكنه بصحراء سقارة ودهشور دخل فى بطء سير التحوّل عن احتقار العصور الفرعونية « الجاهلية » فى نفوس مجاوريه وفعلته . فانه كان من شأن ذلك الحيوان «النجس» فى عرفهم أن يحملهم على الاشمئزاز، وعلى مزج صاحبه ومواضيع بحثه فى عاطفة النفور عينها التى كانت توجبها نجاسته، لا سيما، بعد أن وقع له، يوما، شديد القيظ، أنه خرج يلتمس فيئا ؛ فسارت به قدماه الى رحبة مسجد مجاور . فرأى فيه «الميضا»؛ فحسن لديه الاستحمام فيها . فخاضها بلذة، وأبطأ فى التمتع ببرودتها اللطيفة، حتى جاء المصلون، ساعة العصر، ليتوضأوا؛ فوجدوه منفردا بمياهها .

(١) أنظر : ‘‘مصر الأخيرة’’ للبيك ص ٧٦ وما يليها .

فحملوا عليه حملة منكرة، وأخرجوه مهينا مضروبا . واضطر ماريت الى نقض بناء تلك «الميضا» لأنها نجست، واعادته ثانيـة، بحجارة غير التى احتك فيها خنزيره الأليف[1] .

وكان من لطائف ذلك الخنزير، أيضا، أن لوردا انجليزيا ذهب، مرة، مع اللادى قرينته، لزيارة ماريت باشا فى مقامه الصحراوى؛ فأمسكهم على الغداء . فما جلسوا على المائدة إلا وأتى الخنزير، كأنه كلب ظريف، وأخذ يحتك بالجالسين، طالبا منهم نصيبه فى الطعام . فثارت عوامل الاشمئزاز العميق فى صدر اللادى، وأبدت استغرابها من «أن رجلا كماريت يتخذ مثل ذلك الحيوان القذر أليفا له، دون غيره من الحيوانات الجديرة بذلك» . ولاظهار اشمئزازها، عمليا، غرست أسنة شوكتها فى ظهر ذلك المسكين . فما كان منه إلا أنه دخل تحت المائدة، وصدمها بظهره، فقلبها بصحونها وطعامها على حضرة اللادى، فأتلف لها ملابسها[2] .

وبلغ من غيرة ماريت باشا على ادخار الآثار الفرعونية واكتنازها، والضن بها على غير المتحف الذى أنشأه، أنه استصدر من الحكومة المصرية أمرا ساميا يحظر تحظيرا باتا، التنقيب عليها وبيع أى شئ كان منها الى الأجانب؛ ونقل أى أثريكون من مكانه، إلا بمعرفة رجال الآثار؛ وتصدير أى بقية من بقايا الماضى بمصر الى أى قطر من الأقطار الخارجية — وكان نهب الآثار القديمة، قبل ذلك، مباحا: فملأ بها سارقوها المتاحف الغربية الكبرى — فضمن بذلك بقاء الكنوز المصرية التاريخية لمصر والمصريين، دون سواهم؛ ولم يعد فى استطاعة أحد أن يزين ببعض ماريت وليبك

(١) أنظر: "مصر الأخيرة" لليبك ص ٦٧

(٢) أنظر: "الكتاب عينه" ص ٦٦ و ٦٧

منها غير المتحف المصرى، والميادين المصرية، إلا تهريبا وتحايلا . كما وقع للكونت لبيك وهو فى الصعيد . فان بعضهم عرض عليه مشترى موميا فى سركوفاچها، كان قد عثر عليها، بدون اطلاع رجال الآثار، فى أحد مدافن الملوك، التى كانت لا تزال تحت التنقيب . فتعرفها لبيك من الرسومات التى عليها، ولادرا كه قيمتها التاريخية، اشتراها بثمن جيد . ولكن الصعوبة كلها كانت فى التمكن من تصديرها الى فرنسا، مع تيقظ عينى ماريت ولا كأنهما أعين (أرجس) حارس بستان (الهسپريد) فى الميثولوچيا اليونانيــة . وزادت تلك الصعوبة، بعد أن فشا خبر المشترى وبلغ أذنى "الأرجس" المصرى، وصـــدرت أوامره الى ذوى الشأن بمديرية قنا، بمنع لبيك — ولو أنه فرنساوى مثله — من مقتناه، وإعادة الثمن الذى دفعه به اليه — وكان عشرين ألف فرنك، على ما أظن — وارسال الموميا بسركوفاچها الى المتحف . فعمد لبيك الى من صنع له سركوفاچا كالذى فيه الموميا، برسوماته وألوانه، ولو أنها غير متقنة، ووضع فيه جذع شجرة، وسمر عليه غطاءه، ثم سلمه — كأنه يصـــدع بالأمر، ومقابل اعادة العشرين ألف فرنك اليه — الى رجال السلطة فى المديرية — وكانوا من الجهل فى ذلك الموضوع بمكان عظيم — ورجاهم، فقط، ألا يرسلوه إلا بصحبته، حينما يؤوب الى مصر، عساه أن يتمكن من نيل تصريح من الحكومة المصرية بتصديره الى فرنسا . فوعدوه — وكان هو فى الأثناء قد سفر، سرا، السركوفاچ والموميا الحقيقيين الى القصــير، برا، ومنها الى السويس، بحرا، فالى بور سـعيد ومرسيليا — فلمـا تيقن أن ما اقتناه أصبح فى فرنسا، قام من الأقصر الى مصر، ومعه السركوفاچ الكاذب . فاستلمه ماريت أمامه، مبتهجا، ولكن نظره ما لبث أن وقع على غطائه، إلا وقطب حاجبيه، لأن عينه الخبيرة أدركت التقليد، حالا،

ففتح السر كوفاچ بيد مضطربة . واذا به يرى جذع الشجرة داخله بدل جثة محنطة ! ! ! فالتفت الى لبيك وعوامل الاستغراب والغيظ والاستهزاء تتناوبه ، وهو لا يدرى أيها يبدى . فقابل لبيك نظره بقهقهة ضحك عالية ؛ وقال : « لم يعد ، يا صـديق ، من وسيلة ، سوى انى أردّ اليك العشرين ألف فرنك التى دفعت إلىّ ؛ فهاكها ؛ لأن ما اشترى بها ، حقا ، أصبح فى فرنسا ! » فأدرك ماريبت أن مواطنه ضحك عليه . ولما كان ممن يستطعمون ملح السخرية الظريفة أكثر مما تستفزهم السخرية الى الغضب ، انضم الى لبيك فى ضحكه ، وانقضى الأمر بينهما على سلام ! (١)

المكتبة الخديوية

وأما المكتبة الخديوية ، فيعزو بعضهم إنشاءها الى إشارة بذلك صدرت من السلطان عبد العزيز الى (اسماعيل) ويقولون ان هذا العاهل ، لما زار مصر ، وشاهد مساجدها وآثارها ، ورأى الكتب العديدة من مخطوطات ومطبوعات ، مبعثرة فى خزاناتها ، أشار على (اسماعيل) بانشاء مكتبة عامة تجمع شتاتها ، ليستفيد الناس بمطالعتها . وان هذه الاشارة الهمايونية وقعت وقعا جميلا من نفس (اسماعيل) .

على أننا ، مع عدم ميلنا الى تكذيب حكاية هذا الايعاز ، نرى أنه كان من طبيعة الاهتمام الذى أبداه (اسماعيل) باحياء العلوم والمعارف فى بلاده ، ومن شأن رغبته فى تكوين نهضة علمية أدبيـة فيها ، أن يولدا فى نفسه فكرة انشاء تلك المكتبة . وكان جدّه (محمد على الكبير) قد أوجد مستودعا فى بيت المال القديم ، خلف المسجد الحسينى ، لبيع مطبوعات الحكومة من كتب وغيرها . فأضاف (اسماعيل) الى ما فيه من كتب ، نحو ألفى مجلد من مخطوطات بالعربية والتركية والفارسـية ، ابتاعها من تركة حسن باشا المونastرلى أحد كبار رجال (عباس الأول) . ولما كانت

(١) أنظر : "مصر الأخيرة" للبيك ص ٢٧٩ و ٢٨٠ و ٢٨١ و ٢٨٢

ســنة ١٨٦٩ — وهى ســنة الاحتفال بفتح القناة السو يســية ، وتوافد أصحاب التيجان وأرباب الأقلام الى القطر — أوعز الى على باشا مبارك — وكان مدير ديوان المدارس ، أى ناظر المعارف — أن يتخذ محلا ، من سراى درب الجماميز ، بجانب ديوانه ، ويجعله دار كتب خديو ية ، وينقل اليــه ذلك المستودع برمته ، وأهم ما يجد من كتب فى المساجد والتكايا بمصر وغيرها من مدن القطر ؛ ففعل ، وأضاف اليهــا الكتب التى كانت فى خزانة الأوقاف الخيرية ، وكثيرا من الآلات الهندسية والرسومات ونحوها .

فلما كانت سنة ١٨٧٠ ، أصــدر (اسماعيل) أمرا رسميا بإنشاء المكتبة ، وأمر على مبارك باشا بتنظيمها ووضع قانون لهــا ؛ ففعل . وفى ســنة ١٨٧٦ توفى الأمير مصطفى فاضل باشا شقيق (اسماعيل) — وكان كلفا بالكتب ، عربيــة وغيرها ، حريصا على اقتنائها ، وعنده منها خزانة نفيسة فيهــا نيف و ٣٥٠٠ كتاب . فابتاعها (اسماعيل) بثلاثة عشر ألفا من الجنيهات ، وأهداها الى مكتبته الخديو ية ؛ وما زال يجدّ فى اقتناء الكتب العربية وغيرها ، وهو لا يبالى بالانفاق ، حتى صير تلك الدار تضارع مثيلاتها التى من درجتها فى العواصم الأورو بية ، وأعاد الى الشرق الأدنى ، مثالا من مفاخره العلمية ، التى ازدهت بها العصور العباسية والفاطمية ؛ وأخرج الى الأيام الحاضرة ، فى ثوب قشيب ، تحفا من تلك المفاخر ، جعلتنا نشاهد عيانا ما كنا نسمع عنه من خطوط متقنة ، كخطوط ابن مقلة ، ورسوم بهية بهجة ومكن ظمأنا الى العلم والبحث والمذاكرة ، من ينابيع حية يلجأ اليها ، فيرتوى .

دار الآثار العربية

وأما دار الآثار العربية ، فان (اسماعيل) أصدر أمره بإنشائها فى ســنة ١٨٦٩ وكلف بذلك فرنس باشا ، رئيس هندسة الأوقاف . وكان غرضه منها جمع ما كان

مبعثرا فى المساجد وغيرها، من الآثار العربية والاسلامية، على أنواعها، لتكون تلك الدار ضوءا للتحف المصرى، المجموعة فيه الآثار الفرعونية والبطليموسية والرومانية والبيزنطية، فيكون الاثنان معا، هيكلا فخما للتاريخ المصرى برمته، ينتقل فيه المطالع الباحث، أو المتفرج البسيط، من مرحلة الى مرحلة، فى حياة مصرنا هذه، على ممر العصور، وهو مأخوذ اللب دهشة، وإعجابا وإعظاما ولكن عللا كثيرة، منها اشتغال المكان المطلوب لجمع تلك الآثار فيه بما سواها، حالت دون تنفيذ فرنس باشا أمر (اسماعيل) فى عهده فلم تخرج فكرة «الخديو العظيم» الى الوجود إلا فى أيام ابنه وخليفته، المرحوم محمد توفيق باشا؛ وقد أنبأ على بهجت بك، مدير دار الآثار العربية الآن، المؤرخ المحقق الكبير المرحوم جورجى زيدان بك «ان عدد ما كان فى تلك الدار من التحف الأثرية، فى سنة ١٩١٣، نحو ٤٠٠٠ قطعة، بينها آثار عربية إسلامية من بقايا التمدن الاسلامى على اختلاف عصوره؛ ومصنوعات حجرية وزجاجية، وخشبية، ونحاسية على الطرز العربى الجميل؛ تستحق العناية والدرس، وأكثرها من عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين!»[1].

غير أن مظهر النهضة العلمية الرسمى بمصر لم يقتصر، مطلقا، على ما ذكر، ولو أنه تجلى فيه، على الأخص. فدار الطباعة، مثلا، وجدت من (اسماعيل) عناية كبرى جعلتها أكبر مطبعة عربية فى العالم، حتى بلغ متوسط المؤلفات المطبوعة فيها، سنويا، على عهده، نيفا وعشرين مؤلفا، فضلا عن الكتب المترجمة وخلافها.

تنشيط الصحافة والجمعيات العلمية والخيرية والادب والعلم

ثم إنه نشط الصحافة والجمعيات العلمية، والخيرية، والأدب على أنواعه، فى سائر الأمصار العربية، تنشيطا عظيما، بتشجيعه المعروف للعلم.

(١) أنظر: "تاريخ آداب اللغة العربية" لجورجى زيدان بك ص ١٥٠ ج ٤

أما الصحافة، فهو الذى سهل الاشتغال بها على أدباء السوريين المتقاطرين فى أيامه الى مصر، طمعا فى كرمه؛ وأشهرهم آل تقلا، وأديب اسحق، وسليم النقاش، وسليم حموى، وغيرهم . ولم يكن يقاوم حريتها فى أى موضوع تخوض فيه، ما عدا موضوع الطعن عليه؛ وعدم مراعاة جانبه . فان الخوض فيه كان يؤلمه ويؤذيه، لا سيما فى أيام ضيقه، وتنازعه على البقاء مع دائنيه وحماتهم . ولا غرابة، فما من عاهل، لا سيما فى أيامه، ولا سيما من كان منبته وتربيته كمنبته وتربيته، كان يستطيع أو يريد أن يروّض نفسه على احتمال انتقاد ألسنة الرعايا لأعماله . وما من رجل يحسن اليك ويرعاك، إلا ويستفزه أن تكون مع عدوّه عليه، فى وقت شدّته .

أما الجمعيات، من علميه وخيرية، فقد أمدّها بعنايته وماله، وشجع الناس على الاشتغال فيها . فاليه مرجع الفضل فى تأسيس الجمعية الجغرافية الخديوية فى سنة ١٨٧٥ — وكان من أهم أعضائها محمود باشا الفلكى، وستون باشا الأميريكى، وكلاهما من موظفى الحكومة المصرية — والجمعية العلمية الشرقية — وكان من أهم أعضائها أرتين باشا ونخرى باشا، ثم انضم اليها سليمان أباظه باشا، وإلياس حبالين، والدكتور مهدى خان التبريزى — وساعدت حكومته على انشاء الجمعية الخيرية الاسلامية الأولى فى سنة ١٨٧٨، وأمدّتها بالنقود؛ ولما كان الباعث على إنشائها روحا سياسية اجتماعية دبت فى نفوس المصريين فى ذلك العهد، على أثر ما شاهدوه من استئثار الأجانب بمرافق البلاد الاقتصادية، فحملتهم على فتح المدارس لتعليم البنين والبنات، وتهذيب أخلاقهم، فى ميدان حرية مطلقة، فان الحكومة اشترطت عليها لكى تسمح لها بذلك، ألا تكون خاصة بالمسلمين، وألا تصطبغ بصبغة دينية خاصة . فغيرت الجمعية اسمها، وتسمت "بالجمعية الخيرية" . فاعتبرت رسميا وصدق على قانونها .

وأما الأدب ، فقد نشطه (اسماعيل) بما سهل لرجاله من أسباب الرزق فى خدمة حكومته ، وخدمته الشخصية ، وغيرها . فقد قرب الى ذاته الشاعرين المجيدين عليا أبا النصر المنفلوطى والشيخ على الليثى ، والكاتب الفريد عبدالله فكرى باشا ؛ وألحق بمعيته عبده الحمولى الموسيقى المغنى الشهير ، وعهد بتثقيف أبنائه الى الأستاذ الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى ، ووهب ابراهيم المويلحى ، بعد أن خسر ثروته فى التجارة ، مالا استرجعها به ، ووظف نقولا بك توما فى حكومته ، حينا . وأدنى من نفسه الدكتور أحمد حسن الرشيدى ، وأوعز اليه أن يشتغل ؛ فألف كتاب "عمدة المحتاج لعلمى الأدوية والعلاج" . ولما انتقل يوسف الخياط بجوقه التمثيلى من الاسكندرية الى مصر فى سنة ١٨٧٨ ، أمر (اسماعيل) أن تفتح له أبواب الأوپرا لتمثيل رواياته فيها ، ووعد أن يحضر التمثيل بنفسه . ولكن ذلك الغبى لم يجد رواية فى متعلماته يفتتح بتمثيلها الفصل إلا رواية "الظلوم" ؛ وكان (اسماعيل) حاضرا : فغضب لما تخللها من ذكر الظلم والظالمين فى تلك الأيام العصيبة ، التى كانت الحرب فيها ، بينه وبين الدائنين الغشومين ، عوانا ؛ وتوهم بحق أن أولئك الممثلين ، بالرغم من أنه غمرهم بفضله ، يعرضون به وبأحكامه ، انقيادا لإيعازات أعدائه . فاستنقصهم جدا ، وحكم بأنهم غير جديرين بالنعمة التى أسبغها عليهم . وأمر بإخراجهم من مصر. فباءوا بعار وخزى عظيمين .

وأما العلم ، فلا أدل على اهتمام (اسماعيل) به ، وجهاده فى سبيل ترقية شؤونه من البضع والعشرين بعثة علمية التى سيرها الى مجاهل أفريقيا الوسطى والشرقية ، لاكتشافات علمية متنوعة ، سيأتى ذكرها ، بالتفصيل ، فى كلامنا على تحقيقه الشطر الثالث من الخطة التى رسمها لمجهوداته .

مظهر النهضة الفردى

وأما المظهر الفردى لتلك النهضة، فتجلى فى مجهودات النابغين من المدارس المصرية والسورية على اختلاف أنواعها ومذاهبها، ومن الارساليات المدرســية الى البلاد الأجنبية، منذ أيام (محمد على)، ومباحثهم وأعمالهم وتآليفهم .

فحسين حسنى باشا — الذى بدأ حياته العملية بصــفة مصحح وكاتب بالتركية فى الوقائع الرسمية ســنة ١٨٥١، وآلت اليه، فى نهـاية أمره، النظارة على مطبعة بولاق الأميرية سنة ١٨٨٠ — كان من نوابغ الرجال فى الهمة والاقدام، فضــلا عن سعة اطلاعه على الرياضيات والميكانيكيات، (علوم الحيل)، واليه يرجع الفضل فى استجلاب معمل الورق لمصر .

ومحمد على باشا الحكيم، وابراهيم الدسوقى، كانا أوّل من أنشآ مجلة طبية فى اللغة العربية سنة ١٨٦٥، دعواها "اليعسوب" وضمناها من المباحث الجليلة، ما ترتوى منه الألباب، وترتاح اليه العقول — ألا ليتها عاشت طويلا !

وأبو السعود افندى، الذى ترجم عدّة كتب تاريخية وغيرها، كان أوّل من أنشأ جريدة سياسية مصرية . فدعاها "وادى النيل" واستمرّ يصدرها مرتين فى الأسبوع طافحة بالمقالات السياسية والأدبية والعلمية، الى أن وافته المنية سنة ١٨٧٨

وابراهيم المويلحى، ومحمد عثمان جلال، تلياه فى هذا المضمار، وأنشآ فى القاهرة فى سنة ١٨٦٩ "جريدة نزهة الأفكار" — وكانت أسبوعية، شــديدة اللهجة . فاضطرت الحكومة الى تعطيلها .

وسعيد صالح بك، ناظر المدارس، أصــدر فى سنة ١٨٧٠ مجلة دعاها "روضة المدارس" أخذ يطبعها فى مطبعة "وادى النيل" ويوزعها على الطلبة مجانا — وكانت

علمية ، أدبية ، يحررها نخبة من العلماء والأدباء ، منهم عبد الله فكرى باشا السابق ذكره ، واسماعيل باشا الفلكى ، وبدر بك الحكيم ، وعلى مبارك باشا ، ورفاعة بك ، وقدرى بك — وهو الذى أصبح ، فيما بعد ، قدرى باشا المشهور بمؤلفاته . وكان كل منهم ينشر فيها مقالات متسلسلة فى موضوع واحد كالكتاب المستقل .

وميخائيل عبدالسيد افندى أصدر جريدة "الوطن" فى سنة ١٨٧٧ — وهى أقدم الصحف القبطية — وسليم حموى باشا السورى أصدر جريدة "الكوكب الشرقى" فى الاسكندرية سنة ١٨٧٣ ؛ ولكنها لم تعش طويلا . وسليم تقلا بك ، وبشارة أخوه ، السوريان ، أصدرا بالاسكندرية فى سنة ١٨٧٦ جريدة "الاهرام" ، فنالت حظا وافرا من الرواج والنفوذ ؛ ولا تزال تنشر لغاية يومنا هذا ، وربما كان لها من اسمها الحظ فى البقاء الذى أتعبت الدهور جهودها فى حرمان مسماها منه ، ولم تفلح .

وأحمد حسن الرشيدى — وهو من كبار نوابغ مدرسة الطب المصرية ، وقد سبق الكلام عنه — جاهد فى خدمة النهضة التى نحن فى شأنها جهاد الأبطال ، ترجمة وتأليفا ؛ فكان من أكبر أركانها ومن أكثر الأطباء عملا فى سبيلها . وهو ، وان يكن من نابغى عصر (محمد على) إلا أنه قد أدرك زمن (اسماعيل) وألف ، فى أكثر فنون الطب والطبيعيات والاقرباذين ، التآليف الوافية الممتعة .

ومحمد على باشا البقلى ، الجراح الطائر الصيت — وهو من زاوية البقلى بالمنوفية ، وقد سبق ذكره أيضا — قد ألف فى الجراحة جملة كتب مفيدة ، منها : "روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى" و "غرر النجاح فى أعمال الجراح" و "غاية الفلاح فى فنّ الجراح" و "نشر الكلام فى جراحة الأقسام" ، علاوة على إصداره "اليعسوب" المجلة الطبية العربية البادى ذكرها .

وحسن عبـد الرحمن بك — وكان من أساتذة مدرسـة الطب فى أيام نظارة محمد على باشا البقلى عليها — ألف، بأمر رئيســه هذا، كتاب "القول الصحيح فى علم التشريح"، لكى يدرس فى المدرسة المذكورة .

وأحمد ندا بك، الصيدلى الشهير، المتوفى سنة ١٨٧٧، كان هماما، كثير العمل والبحث، محبا للتأليف ونشر العلم، وله مؤلفات جزيلة الفائدة، أهمها : "الآيات البينات فى علم النباتات" و"حسن البراعة فى فنّ الزراعة" (مترجم عن الفرنساوية) و"حسن الصـناعة فى فنّ الزراعة"، وضعه للتعليم فى مدرسـة الزراعة التى أحيل اليه التدريس فيها بعد إنشائها، و"الأقوال المرضـية فى علم الطبقات الأرضية" (چيولوچيا)، وهلم جرّا .

وحسين عوف بك الكحال، المتوفى سنة ١٨٨٣ — وكان، فى عصره، ركنا من أركان العلم الأربعة، وهم : أحمد ندا بك فى التاريخ الطبيعى، ومحمد على باشا البقلى فى الجراحة، وحسن عبد الرحمن بك فى التشريح، والمتكلم عنه فى الرمد — ألف فى فنه هذا كتابا ذا سبعة أجزاء من خير ما دبجه يراع الكاتب .

ومحمد حافظ بك، المتوفى سنة ١٨٨٧ — وكان أستاذ الرمد فى مدرسة الطب — ألف كتاب "مطمح الأنظار فى تشخيص أمراض العين بالبحث بالمنظار" .

وسالم سالم باشا، المتوفى سـنة ١٨٩٣، صاحب الشهرة الواسعة، ألف كتاب "وسائل الابتهاج الى الطب الباطنى والعلاج" و"دليل المحتاج فى الطب والعلاج"، وأكثر مصادره ألمـانية، لأنه تمم اختباراته الطبية فى ڤيينا، بعد خروجه من مدرسة القصر العينى سنة ١٨٤٨

وعلى رياض بك، الصيدلى، نشر فى عهد (اسماعيل) كتاب "النفحة الرياضية فى الأعمال الأقرباذينية" .

وعبد الهادى اسماعيل، معلم البيطرة فى المدارس الحربية، ألف كتاب "العجالة البيطرية لارشاد الضباط والسوارى والطوبجية".

ومنصور أحمد، مدرّس الكيمياء بمدرسة المهندسخانة المصرية، ألف كتابه "عمدة المتطببين فى فنّ الصيدلة والأقرباذين".

ألا يخيل لك، أيها القارئ، أنك فى أيام الرشيد والمأمون؛ وهلا تمثل أمامك شخصيات آل بختشوع وآل حنين، وأنت تقرأ أسماء كل هؤلاء النوابغ المصريين فى علمى الطب والصيدلة؟

وبهجت باشا — وهو أرناؤطى الأصل — خلف خرائط طوبوغرافية يعتدّ بها.

وعلى عزت، المدرّس للعلوم الرياضية فى المهندسخانة، ألف "الخلاصة العزية فى تهذيب الأصول الحسابية".

وأحمد فائد بك، وهو من كبار أساتذة المهندسخانة الخديوية، وضع المؤلفات الجمة فى الهندسة والسوائل، أهمها: "الأقوال المرضية فى علم بنية الكرة الأرضية" و "تحرك السوائل" و "الدرة السنية فى الحسابات الهندسية".

وعامر سعد، مدرّس الرياضيات بالمدارس الحربية، ألف "المنحة الزهرية فى الأعمال الجبرية" و "أحسن الوسائل لتصريف السوائل".

وأحمد نجيب، مدرّس الرياضة بمدرستى أركان الحرب والطوبجية، ألف "التحفة البهية فى الهندسة الوصفية".

وحسين على الديك، ألف كتاب "عدّة الحاسب وعمدة الكاتب" فى الحساب ومسك الدفاتر الديوانية.

ومحمود باشا الفلكى، المذكور مرارا والمتوفى سنة١٨٨٥، عن ثمانين عاما، ألف بالفرنساوية والعربية مؤلفات جمة ممتعة .

ومختار باشا المصرى، وكان كثير الاشتغال فى الرياضيات والفلك، ألف "التوفيقات الالهـامية لمقارنة السنين الهجرية بالافرنجية والقبطية " و "المجموعة الشافية فى علم الجغرافية" و "جداول تحويل المسطحات المترية"، وهلم جرّا .

واسماعيل باشا الفلكى، ألف "الآيات الباهرة فى النجوم الزاهرة" وتقاويم فلكية سنوية .

والسيد صالح مجدى بك، المحالة اليه ترجمة الكتب فى الفنون العسكرية، ألف "الدرّ المنثور فى الظل والمنظور" و "بغية الطلاب فى قطع الأحجار والأخشاب" و "الروضـة السندسية فى الحسابات المثلثية" و "تذكير المرسل بتحرير المفصل والمجمل" و "ميادين الحصون والقلاع ورمى القنابل باليد والمقلاع" وكتاب "الترع والأنهر"، وهلم جرّا .

ومحمد صفوت المشهور باسم "الساعاتى المصرى"، وعلى أبو النصر المنفلوطى، والشيخ على الليثى، أطربوا العام والخاص والسوقة والأمراء بأشعارهم الجميلة .

[ومن نكات الشيخ على الليثى المستظرفة أنه دخل يوما هو والشيخ على أبو النصر المنفلوطى على (اسماعيل)، والخديو منقبض النفس، وكان الرجلان — على خفة روحهما التى كانت كأنها خطرة نسيم عطر — طويلى القامة جدّا، دميمى الخلقة، وأسودين سوادا يكادان يكونان زنجيين .

فلما وقعت عين (اسماعيل) عليهما أخذ يجيلها فى طولها وعرضهما ويرفعهما بها ويضعهما . فلما رأى الشيخ على الليثي منه ذلك، شرع يقلب كفا على كف .

فقال (اسماعيل) له : « ما بالك تفعل هذا؟ » . قال : « أفكر فى أمر أقوله إذا صفح عنه مولاى مقدّما » . قال : « لقد صفحت ، فقل » . قال : « أرانى أستغرب ما الذى أعجب به مولاى فى مدختين مثلنا أنا وزميلى هذا! » . فضحك (اسماعيل) وسرّى عنه .

وقد كان الشيخ على الليثى هذا — على مابه من خفة روح وعلى ما فى شـعره من الإبداع والرواء — على جانب متين مع الله . فمن أجمل ما يحكى عنه أن رجلا يقال له محمود فوزى افندى (كان ناظرا لدار العلوم فأنزله على مبارك باشا الى وظيفة أستاذ الكيمياء والطبيعة فى إحدى المدارس الثانوية ، ثم ما زال به حتى رفته بتاتا ، مع أنه كان ابن زميل له فى التلمذة بفرنسا) قصده وسأله أن يتوسط له لدى الباشا لكى يعيـده الى منصبه ، لعدم تمكنه من استخدام علمه فى الكيمياء والجغرافيا الطبيعية إلا فى التدريس . فقال له الشيخ على الليثى : «أعفنى، يا ولدى، من هذه المهمة؛ فانها شاقة على نفسى . فعلى مبارك باشا هذا رجل سيئ الأخلاق وأخشى اذا أنا كلمته فى هذا الشأن أن لا ينالنى منه إلا إراقة ماء وجهى!» . ولكن محمود افندى تشدّد فى التمـاسه . فتظاهر الشيخ على بأنه يروم قضاء حاجة فاستدعى خادمه وقال له : «ضع لى إبريق المـاء فى بيت الراحة» ، وكانت هذه جملة مصطلحا عليها بينه وبين خادمه ، يعنى "احضر لى عربتى!" ؛ ثم قلع جبته وخرج واضطر محمود افندى الى انتظاره حتى يعود .

ولكن الشـيخ على ما بارح الحجرة إلا وارتدى جبة خلاف الجبة التى تركها فيها وسار توا الى على مبارك باشا فى ديوانه ودخل عليه وبادره بالكلام هكذا : «أنت يا رجل أوقع فى خلدك أن بيتى تكية لك ترسل اليها من تشاء ؟» . فدهش على باشا

وقال: «ما ذا تعنى يا شيخ على؟» . قال: «أعنى أن كل من ترفته أنت من موظفيك يأتى فيحل فى بيتى» . وها محمود فوزى افندى خوجه الكيمياء والطبيعة فى المدارس الثانوية، الذى رفته منذ أيام، أتانى بأمه وزوجه وأولاده وأخواته ونزل عندى، وأرانى مضطرا الى الانفاق عليه ؛ أفترى أن أولادى قليلون علىّ فترهقنى بالانفاق على كل هذه العائلة . قال على باشا : «ولكن محمود افنــدى هذا رجل شرس الأخلاق، قليل الاناة، كثير المخالفة للأوامر!» . فقال الشيخ على : «وأنا ما شأنى حتى تنكبنى به وبأولاده؟ انى سأرسله اليك من غد، فأعده الى وظيفته وزد فى مرتبه !» . قال على باشا : «وتريد أيضا أن أزيد فى مرتبه؟» . قال: «نعم» وخرج عائدا الى منزله . فوجد محمود افندى هناك فى انتظاره، فما رآه هذا استوى على مقعده إلا وأعاد الكرة وكرر الالتمــاس . فقال له الشيخ على : «يا بنى إنى، بعد ما قلته لك عن أخلاق على مبارك باشا، أرى أن الأوفق أن تكتب له عرضا تسترحمه فيه وتطلب إعادتك الى وظيفتك!» . ثم قدّم له ورقة وقلما، وقال : «خذ واكتب!»، وأملاه عرضا لطيفا وصرفه موصيا إياه بأن يذهب به الى على مبارك باشا من صباح غد .

ففعل محمود افندى كما أمر . ولمــا أدخل العرض الى على مبارك باشا أمر بكاتبه فمثل بين يديه . فقال له الباشا : «أأنت كاتب هذا العرض؟» . قال: «نعم» . قال: «وأنت من الذى عرفك بالشيخ على الليثى؟ حقيقة إنكم أناس لا تختشون!» . ثم استدعى باشكاتب الديوان وأمره بأن يكتب إذنا باعادة محمود افنــدى الى وظيفته، وبزيادة جنيه على مرتبه الأصلى وصرفهما .

فخرج محمود افندى وهو لا يدرى أفى يقظة هو أم فى منام . ولمــا كان العصر وفرغ من عمله، ذهب الى الشيخ على الليثى ليشكره، وقال له : «حفظ الله مولاى

الأستاذ . فانه لم يعلمنى البتة أنه قابل على مبارك باشا البارحة وأوصاه بى خيرا! »

فأجاب الشيخ على : « إنى يا بنى إنما أردت أن يكون اعتمادك على الله ، لا على الشيخ على ، وقد خرجت أنت من عندى ولا اعتماد فى قلبك إلا على الله . وها قد تحققت بنفسك أن من يعتمد على الله لا يخيب[1] ! »]

وعائشة التيمورية ، ومعلمتاها فاطمة الأزهرية وستيتة الطبلاوية ، فتحن بأناملهن العنابية باب أفق جديد أمام الأعين المعاصرة لهن ، المبتهجة بعملهن الشعرى والنثرى البديع .

وعبد الهادى نجا الابيارى ، السابق ذكره ، صاحب كتاب "سعود المطالع" وكتاب "نفحة الأكمام فى مثلثات الكلام" و"الوسائل الأدبية فى الرسائل الأحدبية" و"الكواكب الدرية فى نظم الضوابط العلمية" وكتاب "باب الفتوح لمعرفة أحوال الروح" ، وغيرها .

والشيخ حسين المرصفى المصرى ، صاحب " الكلم الثمان " و" الوسيلة الأدبية فى العلوم العربية " جعلا لعلوم اللغة العربية بمصر مقاما كالذى رفعها اليه فى سوريا الشيخ ناصيف اليازجى ، صاحب "مجمع البحرين" و"فصل الخطاب" وأحمد فارس الشدياق ، صاحب "سر الليال فى القلب والإبدال" و"غنية الطالب" .

وعبد الله أبو السعود ، صاحب جريدة "وادى النيل" ، وحسن حسنى باشا الطويرانى ، وعلى مبارك باشا ، ورفاعة رافع بك ، أعادوا عصور ابن الأثير وابن خلدون

(١) قص علىّ نكتة الشيخ على الليثى المستظرفة وعمله هذا الطيب حضرة صاحب الفضيلة والعلم والنبل الحسيب النسيب السيد محمد على الببلاوى نقيب السادة الأشراف فى القطر المصرى ومراقب إحياء الآداب العربية . وإنى أغتنم فرصة ذكر اسمه الكريم هنا لاسدائه أجمل عبارات شكرى على ما تفضل به من العناية الفائقة بطبع كتابى هذا ، وجعله خالصا من كل شائبة تقلل من قيمته فى اعتبار القرّاء .

والمقريزى بما كتبوه من المؤلفات التاريخية والجغرافية المفيدة . فأبو السعود، وضع كتاب "الدرس التام فى التاريخ العام" وكتاب "منحة أهل العصر بمنتقى تاريخ مصر"؛ وحسن حسنى الطويرانى، وضع كتبا فى العربية والتركية فى تاريخ الدولة العثمانية، تعدّ بالعشرات؛ وعلى مبارك باشا، ألف كتاب "الخطط التوفيقية" فى عشرين جزأ، تحدّى فيــه أسلوب المقريزى فى "خططه"؛ ورفاعة رافع بك، من رجال عهد الأسرة العلوية لغاية (اسماعيل)، وضع فى التاريخ سفرا جليلا، دعاه "أنوار التوفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل" حال المنون بينه و بين إتمامه، فلم يطبع منه سوى الجزء الأوّل . وذلك فوق ما كتب من الأسفار الهامة فى غير عهد (اسماعيل) .

ومحمـــد عليش المغربى، صاحب "فتح العلىّ المـالك، فى الفتوى على مذهب الامام مالك"؛ وقدرى باشا، صاحب "مرشد الحيران الى معرفة أحوال الانسان" وغيره؛ ومحمد العباسى المهدى، صاحب "الفتاوى المهدية"، أعادوا الى الشرع والقضاء، شــيئا من سنا الأنوار التى أشرقت عليهما، على أيدى أبى حنيفة النعمان وأبى يوسف والامام مالك وغيرهم .

وجمال الدين الأفغانى — ولو أنه غير مصرى، وأنه لم يخلف كتبا تستحق الذكر — قد أحيا بمقامه بمصر مدّة فى زمن (اسماعيل) روحا فى نفوس المسلمين من أهالى البلاد، كان لتحرّكاتها، ومساعيها، وجهودها التاليــة شأن خطير، اصطبغ به الربع الاخير من القرن التاسع عشر، اصطباغا أزعج الكثيرين من أرباب السياسة .

مظهر النهضة الاجتماعى

وأما مظهر النهضة الاجتماعى، فتجلى فى الجمعيات على أنواعها التى قامت فى ظل (اسماعيل) أو فى عهده، تفتح للهمم ســبل أعمال جديدة، من خيرية، وعلمية، وخطابية، وأدبية، وسياسية .

فالجمعية الخيرية الاسلامية ، وقد سبق الكلام عنها ؛ وجمعية المقاصد الخيرية ، وقد تأسست فى سنة ١٨٧٨ ، تحت رياسة سلطان باشا ، وبعضوية مقبل باشا ، وكثيرين من أعيان مصر ، نزعتا الى أعمال البر والتعليم . ففتحتا المدارس ، وأمدّتا عدّة أسر فقيرة .

ومجلس المعارف المصرى — وهو "الانستيتوت" أو المعهد العلمى المصرى ، الذى أنشأه بونابرت ، حين قدم بحملته الى مصر ، بعث من رمسه فى سنة ١٨٥٩ ، على يد جماعة من رجال العلم الغربيين — قام ينشر المدنية والعلم بمصر ، وتوالى على رياسته نخبة من العلماء ، فى جملتهم ماريت باشا ، ودشامبور ، وكولوتشى ، وغيرهم .

وجمعية المعارف — وقد تأسست فى سنة ١٨٦٨ بمساعى محمد عارف باشا ، أحد أعضاء مجلس الأحكام لنشر الكتب النافعة ، وبرزت فى شكل شركة مساهمة ، ثمن السهم فيها خمسة جنيهات ، فلقيت إقبالا كثيرا حتى بلغ عدد المساهمين أو الأعضاء بضع مئات ، مزيتهم الوحيدة الحق فى اقتناء مطبوعات الجمعية بثمن أقل مما تعطى به لسواهم — شرعت تطبع الكتب الهامة فى التاريخ واللغة والأدب والفقه ، منها : "أسد الغابة" لابن الأثير و"ألف باء" و"الفتح الوهبى" و"تاج العروس" وغيرها . وما زالت عاملة حتى حدث التنازع السياسى الذى سيأتى بيانه فى حينه ، بين (اسماعيل) وحليم باشا ، على مبدأ الوراثة ؛ وكان محمد عارف باشا من مروّجى آراء حليم ، فلم تعد تطيب له الاقامة بمصر ، ورأى أن سكناه الأستانة أوفق للمصلحة التى قام يدافع عنها . فذهب الى القسطنطينية ، وتوفى فيها . وانحلت الجمعية . وكان عارف باشا هذا من أهل الأدب ، له مؤلفات فى التركية ، ويحسن اللغة العربية ، ويروون من نظمه بيتين يفتخر بهما ، ويدلان على عقليته ، وهما :

ألم تعلم بأن سماء فكرى * تلوح بأفقها شمس المعارف ؟
تفرّس والدى فىّ المزايا * فيوم ولدت، لقبنى بعارف !

وجمعية رواق الشوام بالأزهر ، وقد أنشأها طلبة الأزهر السوريون سنة ١٨٧٣ ، أخذت، كلما عزم طالب سورى على الرجوع الى الشام نهائيا، تحدّد ليلة للاجتماع ، تعانها الى أهل الرواق . فيعدّ الشعراء قصائد الوداع ، و يتلونها ليلة السفر بمحضر من علماء الأزهر وأدبائه . وكانوا يبتدئون القصيدة بالغزل، ثم يتخلصون الى المديح والوداع . و يتبارون و يتنافسون فيها أيما تنافس . ولم يكن الشعراء من السوريين فقط ، بل كل من أراد أن ينظم قصيدة ، أيا كان ، تقبل منه ، ويؤذن له بتلاوتها[1] .

وجمعية الآداب،وأنشئت بمصر سنة ١٨٧١ ،وتولى رياستها الشيخ محمد الخشاب الفلكى ؛ والجمعية العلمية الشرقية، وقد سبق ذكرها ، قامتا مشتهرتين باسمى علم ، ترميان الى أغراض سياسية فى طى الخفاء .

وأما جمعية "مصر الفتاة" فقد كانت سياسية، جوهرا ومظهرا؛ وذكروا أن من أعضائها جمال الدين الأفغانى، وأديب اسحق ، وسليم النقاش، وعبد الله نديم، ونقولا توما ، وغيرهم من أرباب الأقلام فى ذلك العهد . وذلك لصدور جريدة سميت "مصر الفتاة" باسم الجمعية عينها، دبج أعمدتها بالعربية والفرنساوية معا أقلام أولئك المفكرين، على أن بعض الثقات أكدوا لجورجى زيدان بك، أن هذه الجمعية كانت اسما بلا مسمى ؛ وأن أصحاب جريدة "مصر الفتاة" أرادوا ايهام أولى الأمر بوجود جمعية سرية يخشى بأسها، فيعتدلون .

(١) كلام المرحوم حفنى ناصف بك .

غير أن أهم ما تجلى فيه مظهر النهضة الاجتماعية ، هو مجموع التغييرات الأساسية التى أدخلها عصر (اسماعيل) على الحياة الاجتماعيــة المصرية . فجعلت بقاءها على جمودها القديم أمرا فى منتهى التعذر . وسيرتها باستمرار نحو بيئات جديدة ، وعقلية حديثة ، وهو ما توخينا فى الفصل التالى .

على أننا ، قبل الخوض فى هذا الموضوع ، نرانا مضطرين أن نلفت نظر القارئ الى أننا لا نقصد ، من قولنا هذا ، الحكم بصلاحية تلك التغييرات الأساسية ، واستنكار ما كانت عليه البلاد من جمود قديم ؛ أو الحكم بالعكس : لأن ذلك ، فى كلا الأمرين ، يســتدعى بحثا ليس له هنا من موضع . وانمــا نقصد اثبات واقع ، ترك فى تاريخ القطر أثرا عميقا ، ندع الحكم فى صلاحيته من عدمها الى ذكاء القارئ وتحقيقات الأيام .


Bibliotheca Alexandrina
12240056